

(٢٣)

دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير

دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير

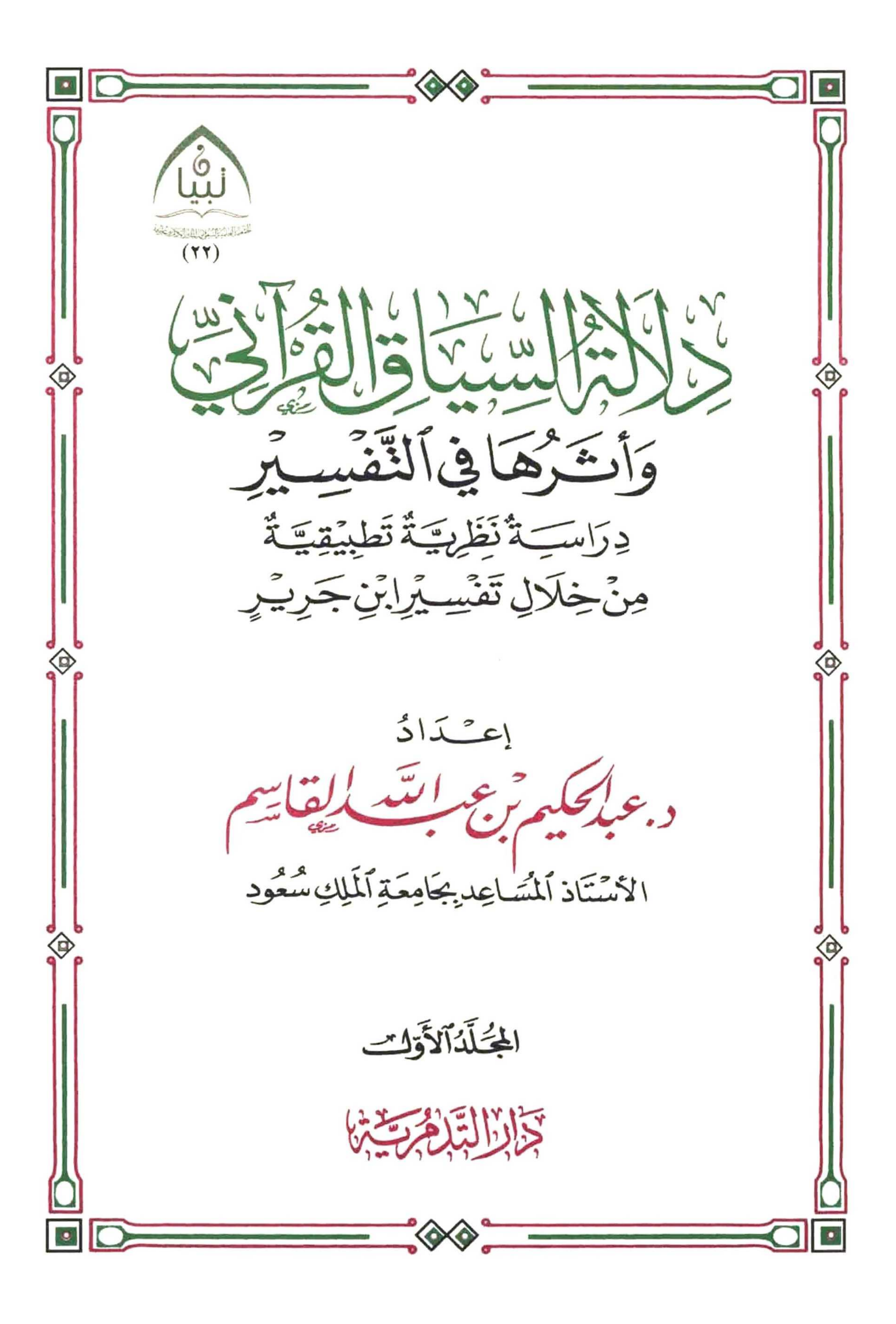
إعداد

د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم

الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود

المجلد الأول

دار التدمرية



(٢٢)

دلالة السياق القرآني

وأثرها في التفسير

دراسة نظرية تطبيقية

من خلال تفسير ابن جرير

إعداد

د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم

الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود

المجلد الأول

دار التدمرية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

جرى مناقشة هذه الأطروحة ليلة الثلاثاء ١٤٢١/١/٢٧هـ

في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

وكانت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة مكونة من :

فضيلة الدكتور : حسن عبد العزيز علي عضو هيئة التدريس في الكلية مقرراً .

وفضيلة الدكتور : عبد العزيز بن ناصر السبر عضو هيئة التدريس في الكلية عضواً .

وفضيلة الدكتور : سعيد جمعه الفلاح عضو هيئة التدريس في الكلية عضواً .

وقررت اللجنة منح الباحث درجة الماجستير بتقدير : ممتاز

المقدمة

المقدّمة :

إنّ الحمدَ لله ، نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئاتِ أعمالنا ، من يهدِه اللهُ فلا مضلّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ، وحـــدَه لا شريكَ له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه – صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً – .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أمّا بعْدُ :

فإنّ خيـــرَ ما بُذلت فيه الأوقاتُ والجهودُ ، تدبّرُ الكتابِ الكريمِ ، الذي أَنـــزله الله مَوْعِظَةً، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى ، وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .

ولا سبيلَ للاتّعاظ والاستشفاء والاهتداء بالقرآن إلا بمعرفة مراده ، وذلك بتفسير ألفاظه، وفهم تراكيبه ، ومن ثَمَّ يصل السائرون إلى الله لثمرة هذا الكتاب المنـــزّل ، وهي التّدبّر الدّاعي إلى العمل ، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

ولقد سلك العلماء طرقاً لفهم معاني كلام الله – عزّ وجلّ – وأحسنها الآتي :

الأولى : تفسير القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في موضعٍ ، فُصِّل في موضعٍ آخر ، وما اختُصِر في سورةٍ ، بُسِط في أخرى .

الثانية : تفسير القرآن بالسّنة الصّحيحة عن نبيّنا محمّدٍ – ﷺ – ، فإن السّنة شارحةٌ للقرآن وموضّحةٌ له –قال تعالى– : ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

[النحل: ٦٤]. وقال النبي – ﷺ – : " ألا إنّي أُوتِيْتُ القرآنَ ومثلَه مَعَه" .[(١)]

الثالثة : تفسير القرآن بأقوال الصّحابة – رضوان الله عليهم – الذين شاهدوا وقائع التّنْـــزيل، وأعطاهم الله الفهمَ التَّام ، والعلمَ الصحيحَ ، وهم خيرُ القرون .

الرابعة : تفسير القرآن بأقوال التّابعين ، الذين أخذوا عن الصّحابة ، وهم أفضلُ القرون بعد الصّحابة ، وكذلك تفسيره بكلام تابعي التَّابعين ؛ لتزكية النَّبي – ﷺ– لهم حيث قال : "خير أُمَّـــتي قرني ، ثمّ الذين يلونهم ، ثمّ الذين يلونهم..." الحديث [(٢)] .

الخامسة : تفسير القرآن باللّغةِ ؛ لأن القرآن نـــزل بلغة العرب ، –قال تعالى–: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: ٢]. فاللغة العربيَّةُ توضِّح معاني الكلمات ، والأساليب اللغوية[(٣)]، وأوضحُ دليل على ذلك جواب ترجمان القرآن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– على أسئلة الخارجيّ نافع بن الأزرق[(٤)] بالأشعار [(٥)] .

ولا شكّ أنَّ أَصحَّ هذه الطّرقِ وأحسنَها : تفسيـــرُ القرآن بالقرآن ؛ فلا أحدَ أعلمُ بمراد الله

---

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة (١٠/٥) حديث (٤٦٠٤) ، والترمذي كتاب العلم باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي – ﷺ – (٣٧/٥) حديث (٢٦٦٤) ، وابن ماجه ، في المقدمة باب تعظيم حديث رســـول الله – ﷺ – والتغليظ على من عارضه (٦/١) حديث (١٢) ، والدارمي في مقدمة سننه ، باب السنة قاضية على كتـــاب الله (١٥٣/١) حديث (٥٨٦) ، وأحمد في المسند (١٣١/٤) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقال محقق المسند : إسناده صحيح ٤١١/٢٨ .

(٢) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب فضائل أصحاب النبي – ﷺ – ، باب فضائل أصحاب النبي – ﷺ – ومن صحب النبي –ﷺ – أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه ، صفحة (٧٤٧) حديث (٣٦٥٠) ، ومسلم (١٩٦٢/٤)، في كتاب فضائل الصحابة ، باب (٥٢) فضل الصحابة ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، حديث (٢٥٣٣) .

(٣) انظر أصول التفسير وقواعده ، للشيخ خالد بن عبد الرحمن العك صفحة (٧٩–٨٠) .

(٤) هو أبو راشد ، نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي الأزرقي الحروري ، لا عقب له ، قتل يوم دولاب ، على مقربة من الأهواز، سنة خمس وستين . المعارف لابن قتيبة صفحة (٦٢٢) ، والكامل لابن الأثير (٣٣٥/٣) ، والأعلام للزركلي (٣١٥/٨) .

(٥) أخرج بعضها الطبراني في المعجم الكبير (٢٤٨/١٠) في مسند ابن عباس،وأوردها الســـيوطي في الإتقـــان (٣٨٣/١)،وفي ثبوتها خلاف.

من الله ، والصّلةُ بين الآية المفسَّرة والمفسِّرة لها قد يكونان في محلٍّ واحدٍ وسورةٍ واحدةٍ ، وقد يفترقان، وأغلب تفسير القرآن بالقرآن إذا أطلق ينصرف إلى المتفرِّق في القرآن ، وأقوى النوعين وأسلمهما ما كان في محلٍّ واحدٍ وسورةٍ واحدةٍ [(١)]، وهذا هو موضوع هذه الرسالة الذي يتعلّق بالتفسير بدلالة السّياق .

إذا عُلِم أنَّ تفسيرَ القرآن بالقرآن أحسنُ الطرقِ وأقواها وأفضلُها ، فإن التّفسيرَ بدلالة السِّياق – موضوع هذه الرّسالة – داخلٌ تحت هذه الأهميّة والأولويّة في التّفسير ، إذ هو من تفسير الآية بما ورد في السّورة الواحدةِ ، والذي ينبغي على المعتنين بتفسير القرآن ملاحظته ومراعاته ؛ ولذلك اخترت موضوع دلالة السّياق .

والمقصود بالسياق : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده في الترتيب .

والمقصود بدلالة السياق بمعناها العام هي : فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده .

والمقصود بدلالة السياق في التفسير : هي بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق .

ومن الأمثلة على التفسير بالسياق :

ما روي من جواب النبي – ﷺ – لعائشة –رضي الله عنها– لما سألته عن قوله –تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقالت : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : "لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ، ويصلون، ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون ". [(٢)]

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٣) ، وقد مثّل على ذلك : بتفسير محمّد بن كعب القرظي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾ [الإخلاص: ٢] بقوله تعالى : ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ٣ – ٤]، وكذلك تفسير أبي العالية قوله : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: ١٩] بقوله : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١]، وبقول ثعلب لما سئل ما الهلع ؟ قال : " قد فسّره الله تعالى " يعني في قوله : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ وغير ذلك .

(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة المؤمنون (٥/٣٠٦) ، حديث رقم (٣١٧٥) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ، =

وهذا مثال من السنّة واضح في استعمال اللاحق من الآيات ، في معرفة معنى الجملة المفسَّرة ، ورجع فيه النبي - ﷺ -إلى السياق ليحلَّ المشكل في الأذهان ، قال المباركفوري -رحمه الله- [(1)] : " أولئك الذين...كذا في هذه الرواية ، وفي القرآن : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١] " [(2)].

وقال رجل : لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يا أمير المؤمنين : أرأيت قول الله : ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: ١٤١]؛ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي : ادنه ، ادنه!، ثم قال : ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: ١٤١] يوم القيامة." [(3)] .

فبين علي – رضي الله عنه – أن محل إشكال السائل هو ظهور بعض الكافرين على المسلمين في الدنيا؛ بينما هذا الوعد محدد باليوم الآخر بدلالة سياق الآية، وهي قوله : ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾

=

حديث (٢٥٣٧) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل (١٤٠٤/٢) ، حديث (٤١٩٨) ، والحاكم في المستدرك (٣٩٣/٢) وصححه ، ووافقه الذهبي في التلخيص للمستدرك ، وأحمد (١٥٩/٦) برقم (٢٥٣٠٢) ، وغيرهم ، إلا أن الدارقطني رجح إرساله في العلل ١٩٣/١١، وضعفه محقق المسند لانقطاعه ١٥٦/٢٤ .

(١) هو أبو العلى ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري –نسبة لبلدة في الهند –، ولد سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ، له: تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ، توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته باختصار أول تحفة الأحوذي (٣/١) .

(٢) انظر تحفة الأحوذي (٢٠/٩) .

ومن الأمثلة على أهمية السياق : ما روى البخاري عن سهل بن سعد قال : أنزلت ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة ١٨٧] و لم ينزل ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل من النهار ، فزال الإشكال عند الصحابة بعد نزول جملة ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وحين تهمل هذه الجملة في تفسير الآية يقع اللبس والخطأ في الفهم كما حصل من عدي بن حاتم– رضي الله عنه– .

(٣) جامع البيان (٣٣١/٤) وتحقيق شاكر (٣٢٧/٩) .

وبعدها مباشرة ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾.

ولما رد نافع بن الأزرق الخارجي على ابن عباس ، أن قوماً يَخْرجون من النار مستدلاً بقول الله – جلّ وعزّ –: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا ﴾ [المائدة: ٣٧] (١) ، فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها!! ، هذه للكفار ." (٢)

والآية التي فوقها –أي قبلها –هي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ ﴾ [المائدة: ٣٦] (٣) .

وهذا الموضوع واسعٌ لا يحاطُ به على سبيل العموم ، فرأيتُ الاقتصار على تفسير جامع البيان لإمام المفسرين محمد بن جرير الطّبري –رحمه الله– المتوفى سنة عشر وثلاثمائة ، ورأيتُ أن يكونَ موضوعُ البحث من خلاله ؛ للأسباب الآتية :

الأول : اهتمام الإمام –رحمه الله– بدلالات السّياق تصريحاً أو تلميحاً ، حيث إنّه يدقّق النّظر في تتابع الآيات والجمل ويلحظ الأقرب للمعنى ، فيرجّحه ويدلّل عليه .

قال الشيخ محمود شاكر –رحمه الله– (٤) فيه : " إنه كان مفسراً إماماً سبق ففات السّابقين ، لم يلحقه لاحقٌ في البصر بمعاني كتاب ربّهِ ، وفي الحرصِ على بيان معانيه ، وفي الدّقّةِ البالغة في ضبط روابط الآيات بعضها ببعض...وأبو جعفر –رضي الله عنه– لم يغفل عن هذا التّرابط الدّقيق بين معاني الكتاب ، سواء كان ذلك في آيات الأحكام ، أو آيات القصص أو غيرها من نصوص هذا الكتاب ، فهو يأخذ المعنى في أوّل الآية ثم يسير معه كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً ، ثم جملةً جملةً ، غيرَ تاركٍ لشيءٍ منه ، أو

---

(١) المائدة (٣٧) ونصها : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ ﴾ .

(٢) جامع البيان (٤/٥٦٧-٥٦٨) وتحقيق شاكر (١٠/٢٩٤) .

(٣) المائدة (٣٦) .

(٤) هو محمود بن محمد شاكر بن آل أبي علي ، أخٌ للشيخ أحمد شاكر ، ولد عام ١٣٢٧هـ –١٩٠٩م ، محقق كبير من تحقيقاته : جمهرة نسب قريش لابن بكار ، وكاتب في التاريخ وأحوال العالم ، له : التاريخ الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه، وغيره ، اشترك مع أخيه في إخراج تفسير جامع البيان للطبري ، فأخرجا منه إلى سورة إبراهيم (٢٧)، فاز بجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب عام ١٩٨٣م، توفي سنة ١٩٩٧م –رحمه الله– .

متجاوزٍ عن معنى يدلُّ عليه سياقها..." [١]

الثاني : توسّع الإمام الطبري في تناول هذه القاعدة وتوضيحها وتفسيرها ومناقشةُ الأقوالِ المخالفةِ للقاعدةِ تفصيلاً ، فلا يكتفي بأنّ هذا المعنى دلّ عليه السّياق فقط ، بل يوضّحه ويدلّلُ عليه بأسلوبٍ مفصل ، وعباراتٍ واضحةٍ ، ويذكر سبب تقويته لهذا المعنى ، وما ينتقض على القائلين بغيره بذكر النّاقض له.

الثالث : أقدميّة هذا التّفسير فإنه عمدةُ من لحقه ، ولم يؤلِّف بعده مؤلِّف متوسّع في التّفسير غالباً إلا نَقَل عنه،وكذا منزلته عند المفسّرين؛فقد أجمعوا على أنه لم يؤلّف مثله.

الرابع : اهتمام الإمام بأقوال السّلف ورواياتهم - حتى عدّ تفسيره من أهم كتب التفسير بالمأثور - وتمسّكه بعقيدة أهل السّنة والجماعة ومدافعته عنها .

الخامس : أنّ دراسة الموضوع الطّويل عند مفسّرٍ واحدٍ ، تجمع أصول الموضوع فلا يتشتَّت ، وتُبْرِزُ منهجَ المفسّرِ ، وتوضِّح طريقتَه .

هذا وقد كان الحديثُ في هذا الموضوع شاقّاً ؛ لصعوبة أسلوب الإمام أبي جعفر الطبري -رحمه الله- من جهةٍ ، ولِدِقَّةِ مأخذِه من أخرى ، ولكثرة المواضعِ المتعلِّقة بالموضوع من جهة ثالثة ، وقد حاولتُ ما وسعني الجهد عرض طريقة الإمام الطبري -رحمه الله- ، والتّعليق على أهمّ المواضع التي هي داخلة في دلالة السياق .

وحين سجلت هذا الموضوع وأثناء دراسته لم أقف -حسب جهدي- على مؤلفات في الموضوع نفسه ، ولما قرب طبع هذا ونشره وجدت بحوثاً ورسائل ، ومن المؤلفات التي استقلت في السياق سواء كانت تفسيرية أو لغوية ما يلي :

١- السياق القرآني وأثره في التفسير، دراسة نظرية و تطبيقية من خلال تفسير ابن كثير ، لعبد الرحمن عبد الله سرور المطيري ، رسالة ماجستير ، بجامعة أم القرى ١٤٢٩هـ .

٢- أثر السياق القرآني في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة ، لمحمد بن

---

(١) جامع البيان بتحقيق شاكر (٥٣٧/٤) .

عبد الله الربيعة ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية أصول الدين ، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤٢٧ هـ .

٣- السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري ، لمحمد بنعدة ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية الآداب ، بجامعة محمد بن عبد الله بالمغرب ، عام ١٤١٨هـ .

٤- دلالة السياق ، لردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى عام ١٤٢٤هـ ، وهي دراسة نظرية ، وطبعت في جامعة أم القرى .

٥- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق مثل من سورة البقرة ، لخلود بنت إبراهيم سلامة العموش ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية ، مقدمة لكلية اللغة العربية في الجامعة العربية ، عام ١٤٠٨هـ .

٦- السياق ودلالته في توجيه المعنى ، لفوزي إبراهيم عبد الرزاق ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، مقدمة لكلية الآداب ، بجامعة بغداد ، عام ١٤١٦هـ.

٧- أثر السياق في النظام النحوي مع تطبيقات على كتاب (البيان في غريب القرآن لابن الأنباري). لنوح بن يحيى الشهري ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى ، عام ١٤٢٦هـ .

٨- السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة ، رسالة دكتوراه لسعيد بن محمد الشهراني ، مقدمة لكلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٢٧ هـ .

٩- دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام ، لفهد بن شتوي الشتوي ، رسالة ماجستير ، مقدمة لقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٢٦هـ .

١٠- السياق وأثره في الدرس اللغوي ، دراسة في ضوء علم اللغة الحديث ، لإبراهيم محمود خليل، رسالة دكتوراه ، مقدمة للجامعة الأردنية ، عام ١٤١١هـ.

١١- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ، لعبد النعيم عبد السلام خليل ، رسالة دكتوراه ، مقدمة لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية بجامعة الإسكندرية ، عام ١٩٩٠م .

١٢- الربط في سياق النص العربي ، لمحمد القرشي ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية اللغة العربية ، بجامعة أم القرى ، عام ١٤٠٨هـ .

١٣- السياق والمعنى عند الإمام أبي حامد الغزالي في ضوء علم اللغة الحديث ، لسالم بن محمد الخوالدة ، رسالة ماجستير ، مقدمة لكلية الآداب والعلوم بجامعة آل البيت .

١٤- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، لعبد الفتاح عبد العليم البركاوي ، كتاب مطبوع ، القاهرة دار المنار ، الطبعة الأولى لعام ١٤١١هـ .

١٥- اللغة والمعنى والسياق ، لجون لاينز ، ترجمة الدكتور عباس صادق الوهاب ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، سلسلة المائة كتاب ، عام ١٩٨٧م .

١٦- اللغة ونظرية السياق ، للدكتور علي عزت ، مقال في مجلة الفكر المعاصر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، العدد (٧٦) ١٩٧١م [(١)].

١٧- السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني ، لشيخنا الأستاذ الدكتور : زيد عمر عبد الله ، ونشر هذا البحث في مجلة جامعة الملك سعود (ج١٥) عام ١٤٢٣هـ الرياض . وجمع أمثلة رائعة ، وتعليقات مسددة رائقة [(٢)].

---

(١) انظر مقال الدكتور محمد الربيعة في ملتقى أهل التفسير ، وقد وصف هذه البحوث وصفا توضيحيا وتقويميا .

(٢) فمن الأمثلة الرائعة التي ذكرها : لفظ ﴿بَلَغْنَ﴾ ، حيث جاء في سورة البقرة في آيتين متجاورتين [٢٣١-٢٣٢] يقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ فالخطاب في الآية الأولى : للأزواج، ومعنى بلوغ الأجل دنوه وقبل نهايته، وفي الآية الثانية : خطاب للأولياء ، ومعنى بلوغ الأجل : نهايته بخروج المرأة من عدتها ، ونقل قول الشافعي :"دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين!!"، [مختصر المزني في فروع الشافعية بهامش الأمر ٨٧/٤، لمحمد بن أحمد المزني القاهرة ،طبع دار الشعب].

=

-كما مثل على تنازع السياق مع بعض الأدلة ومنها : الحديث النبوي : ففي قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١ – ٢] وذكر أقوال المفسرين : فمنهم من وقت لهذا في آخر الدنيا وأول الآخرة ، واستدل بمجيء التاء في أرضعت فهي دالة على إلقام الثدي، وكذا سقوط الحمل وذهب له ابن عطية والقرطبي . ومنهم من حملها على يوم القيامة واستدلوا بحديث قدسي صريح [رواه البخاري ٤٤٦٤ ، ومسلم٢٢٢]: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النَّبي – ﷺ– :" يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدمُ، فيقول : لبيك ربَّنا وسعديك ، فَيُنادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف أراه ، قال تسعمائه وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد..."الحديث.وعند الترمذي [ح٣١٦٨] عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله – ﷺ– حين نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر: "أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذلك ؟ فَقَالُوا الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قال :"ذلك يوم يقول الله لِآدَمَ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ..".ورجحه الطبري ، وابن كثير ، والشنقيطي .ومثل هذا التنازع يحصل أحيانا بين السياق وأسباب النزول ، أو الإجماع ، أو العموم .

ومن كلامه النفيس : "أسيء إلى السياق –على الرغم من أهميته – مرتين : الأولى: حين تم تجاهله من قبل بعض من اشتغل بالتفسير التحليلي التجزيئي ، وحرص على تكثير المعاني وذلك بانتزاع اللفظ من نظمه وسياقه وتفسيره تفسيرا لغويا معجميا دون التفات إلى مدى مناسبة هذا المعنى للسياق.

كانت الثانية : حين قدّم السياق على غيره من القرائن مطلقا كما صنعت مدرسة المنار في مواطن متعددة تحت تأثير المقررات السابقة فكان أن أخطأت في هذه المواضع ."

قلت : ويصلح أن يمثل الصنفين : الصنف الأول : بعض متقدمي أهل العربية الذين بالغوا في الاعتماد على اللغة دون السياق ، فعيب عليه ذلك ، ومنهم : أبو عبيد وابن قتيبة والأخفش ، ومن المتأخرين بعدهم نسبيا البيضاوي والخازن وابن الجوزي .

ويمثل الثانية من المعاصرين : من بالغ في الاعتماد على السياق ونبذ ما سواه : مثل مدرسة المنار حيث يقول الأستاذ محمد عبده :"لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح" .

وكذلك المدرسة البيانية وعلى رأسها د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ حيث تقول : " نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصا وروحا ونعرض عليه أقوال المفسرين".وقد أشار الشيخ لهذين الصنفين وذكرهم ولكني قدمت وأخرت في كلامه، وبقي شيء كثير مهم ، وكان نقلي هذا مشوقاً للوقوف على بحثه النفيس.

وعنوان هذا البحث : دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير ، دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير .

وتشتمل خطّة الرّسالة على النّحو الآتي :

مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة :

هذه المقدّمة .

وأما التمهيد فيحوي ثلاثة أمور :

الأول : ترجمةً موجزة للإمام : محمد بن جرير الطبري –رحمه الله– .

الثاني : التعريف بتفسير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

الثالث : عرضاً موجزاً لدلالة الألفاظ عند الأصوليين .

الباب الأول : دلالةُ السّياق القرآنيّ ، وطريقةُ تناولِ ابن جريرٍ لها :

وينقسم الباب الأول إلى فصلين :

الفصل الأول : دلالة السّياق القرآني ، وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريفُ السّياق القرآنيّ ، وأنواعُه ، مع التَّمثيل .

المبحث الثاني : أهميّة دلالة السّياق القرآني في التّفسير .

المبحث الثالث : أسبابُ الاعتماد على دلالة السّياق القرآنيّ .

المبحث الرابع :دلالة السّياق القرآنيّ ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن.

وأمّا الفصل الثاني فعن :

قواعد تناول ابن جرير –رحمه الله–لدلالة السّياق القرآنيّ : **وفيه تسعة مباحث:**

المبحث الأول : الكلام على اتّصال السّياق ما لم يدلّ دليلٌ على انقطاعه .

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعتٌ فإنّها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السّورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معينٌ على معرفة مناسبة خاتمتها .

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التّكرار الذي لا معنى له فذلك خُلْــفٌ ينــزّه القرآن عنه .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتّسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نــزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل مــن يشابههم .

المبحث الثامن : الأولى في التّفسيــر أن يكون الوعيد على ما فُتِح به الخبر من الفعل المذكور السّابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السّياق إلا بالظّاهر من الخطاب .

أما الباب الثاني فعن : أثر دلالة السّياق القرآني في تفسير ابن جرير :**وفيه تسعة فصول** :

الفصل الأول : أثر دلالة السّياق في القراءات ، وتحته مبحثان :

المبحث الأول : أثر دلالة السياق في تصحيح القراءة .

المبحث الثاني : أثر دلالة السياق في تضعيف القراءة أو ردّها ومناقشة ذلك.

الفصل الثاني : أثر دلالة السّياق في بيان الأصحِّ من أسباب النُّــزول ، وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول : بيان الأصح من أسباب النــزول .

المبحث الثاني : ترجيح سبب النــزول لا يعني تخصيص الآية به ، بل يدخل مــن يشابهه .

المبحث الثالث : ترجيح المخاطب بالآيات .

المبحث الرابع : موضع لم يرجّح فيه الإمام الأرجح من أسباب النــزول .

الفصل الثالث : أثر دلالة السّياق في إظهار تناسب الآيات وترابطها ، وتحته سبعة مباحث :

المبحث الأول : علامات تظهر الترابط والتناسب بين الكلام .

المبحث الثاني : الترابط والتناسب في الآية الواحدة .

المبحث الثاني : قد يدل سبب النـــزول على حذف .

المبحث الثالث : أمثلة على بعض أنواع الحذف بدلالة السياق .

المبحث الرابع : الحذف قد يكون محتملاً ، بسبب السياق ، أو القراءة .

المبحث الخامس : تقديـــر الحذف بما يناسب السياق .

المبحث السادس : مواضع قدر فيها الإمام –رحمه الله– الحذف ، والراجح أنها ليست كذلك، أو لم يقدّر فيها الإمام –رحمه الله– محـــذوفاً مناســـباً للسياق .

الفصل السابع : أثر دلالة السّياق على وجود النسخ أو عدمه ، وتحته مبحثان :

المبحث الأول : الاستدلال بالسياق على وجود النسخ المحقّق أو عدمه .

المبحث الثاني : الاستدلال بالسياق على عدم وجود النسخ .

الفصل الثامن : أثر دلالة السّياق على وجود تقديم أو تأخير ، وتحته مبحثان :

المبحث الأول : أسباب القول بالتقديم أو التأخيـــر .

المبحث الثاني : قد يكون السياق محتملاً للتقديم أو التأخيـــر ، ولغيـــره .

الفصل التاسع : أثر دلالة السّياق في تضعيف بعض الأقوال ، وتحته ثمانية مباحث:

المبحث الأول : الترجيح بسبب اللغة .

المبحث الثاني : الخصوص والعموم .

المبحث الثالث : مراعاة المخاطب والمتكلم .

المبحث الرابع:دلالة الكلمة والسباق واللحاق وموضوع السورة .

المبحث الخامس : مراعاة التقابل والتقسيم المتوازن .

المبحث السادس : تضعيف ما لم يـــرد ذكره في السياق .

المبحث السابع : مراعاة عود الكلام على القريب .

المبحث الثامن : مواضع لم يكن فيها تطبيق للتعامل نفسه .

الخاتمة : وفيها أهم النّتائج ، والمقترحات .

الفهارس : ذيّلت البحث بفهارس للآيات ، والأحاديث ، والأعلام ، والمراجع ، والموضوعات .

منهجي في البحث :

– عزوتُ الآيات بأرقامها إلى سورها ، ووثّقت القراءات ، وبيّنت المتواتر منها والشّاذ .
– خرّجت الأحاديثَ النّبويّة ، وحكمتُ على غير ما في الصّحيحين ، أمّا ما ورد في الصّحيحين فأكتفي بالإحالة عليهما .
– وثّقت المنقولَ عن تفسير جامع البيان للطبري ، فما كان من أوّل القرآن إلى نهاية الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم ، فإنّ المعتمد فيه الطبعة المحقَّقَة للشيخين : أحمد ومحمود شاكر [1] ، وسأذكر الطبعتين ، والأُولى منهما طبع دار الكتب العلمية، والثّانية سمّيتها اختصاراً ، بـ"تحقيق شاكر"، وما بعد الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم، فالمعتمد طبع دار الكتب العلمية .

– وقد نقلتُ كلام ابن جرير –رحمه الله– وعرضه الأقوال وترجيحه بينها ؛ ولو طال النقلُ ليكون كلامه واضحاً ، وليكون للقارئ الحكم على الاستنتاج قبولاً أو ردّاً ، وليعتاد على أسلوب الإمام الطبري –رحمه الله– الذي قد صعُب على كثيرين .
– إذا حذفتُ شيئاً من النصّ المنقول وضعت مكانه نقطاً "..." ، وإذا كان هناك توضيح له جعلته بين معكوفتين [ ] ، وسأُحيلُ غالباً على الجزء والصفحة لبداية النصّ ، أمّا المواضع التي في الحاشية فسأُحيلُ على أوّل الآية ورقمها ، وأمّا الصّفحة فهي على الشّاهد منها دائماً وقد حاولت حصر المواضع المتعلقة بالسياق وذكرها في الحاشية وإن طالت ؛ لتكون المواضع قريبة من المهتمين بهذا الموضوع .
– عرّفتُ بالأعلامِ غير المشهورين ، دون إشارة إلى من سبقت ترجمتُه ، وعرّفتُ بالأماكن غير المشتهرة، وذكرتُ معنى الألفاظِ الغريبةِ .

وقد تبيّن لي من عود النّظر إلى البحث مرةً بعد أخرى ، أنّ تصحيح المكتوب لا يتناهى ، فلا يزال الكاتب يقول : ينبغي أن يقدّم هذا ، ويؤخّر ذاك ، ويزاد في هذا وينقص من الآخر ، وهكذا ،

---

(١) سبقت ترجمة الأستاذ محمود شاكر صفحة (٨) ، وأما أخوه : فهو أحمد بن محمد شاكر بن آل أبي علي ، ولد سنة ١٣٠٩هـ ، تولى القضاء بمصر أكثر من ثلاثين سنة ، علامة في التخريج ودراسة الأسانيد ، حقّق جزءاً من مسند الإمام أحمد ، وجزءاً من تفسير جامع البيان للطبري و لم يتمهما ، والرسالة ، وغيرها ، ومن مؤلفاته : عمدة التفسير ، وهو مختصر من ابن كثير ، وله كتاب عن الطلاق في الإسلام ، وغيرهما ، توفي سنة سبع وسبعين وثلاث مائة وألف –رحمه الله– . انظر ترجمة محمود لأخيه أحمد في مقدمة كتاب حكم الجاهلية ، لأحمد شاكر ، صفحة (١٩-٢٤) ، ومقدمة المجلد الثالث عشر من تفسير جامع البيان لمحمود شاكر (١٣/٥) .

فالكمال عزيز، وهو لكلام الله العزيز . فأتمثل قول القاضي الفاضل [١] للعماد الأصبهاني [٢]: " إني رأيتُ أنّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه، إلا قال في غده : لو غيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرِك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر،وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر." [٣]

ثم أشكرُ كُلَّ من ساعدني في هذه الرسالة برأيٍ أو توجيهٍ أو نصحٍ أو تقويم ، أو دلالةٍ على كتاب أو إعارةٍ ، أو غير ذلك ، وأخص منهم : لجنة المناقشة –سبق التنويه بهم أول الكتاب– فقد كان لآرائهم وتوجيهاتهم الأثر الحسن في تقويم البحث وتكميله ، كما أشكر فضيلة الدكتور مساعد بن سليمان الطيار ، وابن أخي فواز بن محمد القاسم ، على جهودهما ، فجزى الله الجميع خير الجزاء .

وبَعْدُ : فقد بذلتُ جهدي لتخرج هذه الرسالة على أحسن ما يُرام ، ولكن القصور والخطأ من بني البشر لازم ، وما منّا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا رسول الله–ﷺ –، فإن أصبتُ فمن الله وحده ، وهو الكريم المنان ، وإن أخطأت فمنّي ومن الشيطان ، وأستغفر الله وأتوب إليه وهو الرحيم الرحمن . والحمد لله رب العالمين .

وكتب :
عبد الحكيم بن عبد الله بن عبد الرحمن القاسم
الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود
١٤٣١/٢/١٩ هـ .
aabuhkeem@gmail.com
ص ب ٢٤٢٢١٠ الرياض ١١٣٢٢

(١) هو عبد الرحيم بن علي اللخمي البيساني ، إمام الأدباء ، وقائد لواء أهل الترسل ، وصاحب صناعة الإنشاء ، وكان صديق السلطان صلاح الدين الأيوبي وعضده ووزيره وصاحب ديوان إنشائه ، له كتب منها : ترسّل القاضي الفاضل ،مات سنة ست وتسعين وخمسمائة للهجرة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٢٥٣/٤) والأعلام (٣٤٦/٣).

(٢) هو محمد صفي الدين بن نفيس ، الأديب الكاتب ، ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة ، له كتاب خريدة العصر ، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٣٤٥/٢١) ، وشذرات الذهب (٣٣٢/٤) ، والأعلام (٢٥٣/٧) .

(٣) انظر شرح الإحياء للزبيدي ٣/١ .

التمـــهيـــد

ويحوي ثلاثة أمور :

الأول : ترجمةً موجزة للإمام : محمد بن جرير الطبري –رحمه الله– .

الثاني :التعريفَ بتفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

الثالث :عرضاً مختصراً لدلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين .

مدخل : ألّف علماء المسلمين مؤلفاتٍ كثيرةً في التفسير ، وكان من أ شهرها : تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن – وهو محلّ البحث والدراسة – للإمام محمد بن جرير الطبري –رحمه الله– ؛ ولابد من التعرف على ترجمةٍ موجزةٍ للمؤلف ، ولمحةٍ يسيرةٍ مقتضبةٍ عن تفسيره : جامع البيان .

– الأول : ترجمة موجزة للإمام محمد بن جرير الطبري – رحمه الله – :

وفيها نتعرف على العناصر التالية :

– ١ – نسبه ، ومولده .

– ٢ – نشأته .

– ٣ – رحلاته .

– ٤ – شيوخه ، وتلامذته .

– ٥ – علومه .

– ٦ – تدريسه ، وتأليفه .

– ٧ – مذهبه العقدي .

– ٨ – مذهبه الفقهي .

– ٩ – صفاته : الخِلقية ، والخُلقية .

–١٠– وفاته ، ورثاؤه .

-١- نسبه ، ومولده :

- أ - نسبه : هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب .[١]
وقيل : يزيد بن كثير بن خالد .[٢]

و لم يكن ابنُ جريرٍ مهتمّاً بهذا الأمر كثيراً ، فلما سُئل عن نسبه ؟ قال : محمد بن جرير . قال السائل : زدني ، فردّ عليه ببيت رؤبة بن العجاج[٣] :

قد رفعَ العجّاجُ ذكري فادْعُني   باسمِي إذا الأنْسابُ طالتْ يَكْفِنِي .[٤]

وقال ابن خلّكان[٥] : وأبو بكر الخوارزميّ - الشاعر المشهور - ابن أخته .[٦]

ولكن ردّ ذلك ياقوت[٧] ؛ لأن أبا بكر رافضي ، ولما رأى الحنابلة سبّته ؛ اغتنم سبّهم لـه ،

---

(١) تاريخ بغداد (١٦٢/٢) للخطيب البغدادي ، ومعجم الأدباء (٤٠/١٨) لياقوت الحموي .

(٢) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) لابن النديم ، ووفيات الأعيان (١٩١/٤) لابن خلكان ، والوافي بالوفيات (٢٨٤/٢) للصفدي .

(٣) هو أبو الجحَّاف ، رؤبة بن العجاج والعجاج هو عبد الله بن رؤبة بن النبيد بن صخر التميمي ، ولد تقريباً سنة خمس وستين، الشاعر الأموي ، توفي سنة خمس وأربعين ومائة . انظر معجم الشعراء صفحة (١٢١) ، للمرزباني ، وتهذيب التهذيب (٦١٣/١) لابن حجر ، ولسان الميزان (٤٦٥/٢) لابن حجر أيضاً .

(٤) معجم الأدباء (٤٧/١٨) .

(٥) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي البرمكي ، ولد سنة ثمان وستمائة ، المؤرخ الأديب الماهر ، تولى القضاء ، من مؤلفاته : وفيات الأعيان ، توفي سنة إحدى وثمانين وستمائة . انظر شذرات الذهب (٣٧١/٥) ، والأعلام (٢١٢/١) .

(٦) وفيات الأعيان (١٩٢/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٢٦/١٦) . وأبو بكر الخوارزمي هو : محمد بن العباس الطبرخزي ؛ لأن أمه من طبرستان وأبوه من خوارزم ، من الكتاب والشعراء والنسابين ، له الرسائل المشهورة بالرسائل الخوارزمية ، وله ديوان شعر ، توفي بنيسابور ، سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وقيل غير ذلك . انظر الأنساب للسمعاني (٤٤/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٢٦/١٦) ، والأعلام (٥٢/٧) ، وأثبت الخونساري أن هذا الخوارزمي ليس ابن خالة الطبري صاحب تفسير جامع البيان . انظر روضات الجنات صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

(٧) هو أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس ، الحموي المولد ، البغدادي الدار ، الوراقي المهنة ، ولد سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ، أعتقه مولاه فنسخ بالأجرة ، أديب شاعر ، له : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وغيرهما ،
=

ووصفه بأنه رافضي ، وليس كذلك .[١]

– وكنيته : أبو جعفر ، ولم يتزوج ؛ فقد قال عن نفسه: "وما حَلَلْتُ سراويلي [٢] على حرامٍ ولا حلال قط" .[٣]

– ب – مولده :

– مكان المولد ، وتاريخه :

– أمّا مكانُ مولد أبي جعفر فهو المسمّى – قديماً – : بمدينة آمُلُ – بضم الميم واللام – وهي أكبر مدن سهل طَبَرِسْتان وأعمرها ، وإقليم طَبَرِسْتان مجاور لجيلان وديلمان، وهو بين الريّ وقومس ، والبحر وبلاد الديلم والجيل .[٤]

وحاليّاً : يتبع إقليم طَبَرِسْتان لدولة إيران ، في شمالها ، جنوب بحر قزوين ، غربي بابل ، وجنوب محمود آباد ، على شاطئ نهر هراز .[٥]

ويُنسَب إلى المدن والقرى في إقليم طَبَرِسْتان فيقال : طَبَرِيّ ، وإذا نُسِب إلى بحيرة طَبَرِيّة أو بلدة طبريّة بالشام قيل : طَبَرَانِيّ [٦].

– أما تاريخ مولده : فقد كان سنة أربع ، أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين .[٧]

=

تأثر بكتب بعض الخوارج ، توفى سنة ست وعشرين وستمائة ، عن نيف وخمسين سنة . انظر وفيات الأعيان (١٢٧/٦) ، وسير أعلام النبلاء (١٧٩/٢٠) ، وشذرات الذهب (١٢١/٥) .

(١) معجم البلدان (٥٧/١) لياقوت ، وأيَّد ذلك صاحب روضات الجنات صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

(٢) فارسية معربة ، وسراويل مفرد ، جمعه سراويلات . انظر ترتيب القاموس المحيط للفيروزآبادي (٥٥٧/٢) .

(٣) معجم الأدباء (٥٥/١٨) .

(٤) انظر معجم البلدان (١٣/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٠/١٤) .

(٥) دائرة المعارف (٣٥٧/١) إدارة البستاني ، بيروت ١٩٥٦م .

(٦) انظر الأنساب المتفقة صفحة (٩٥) ، لابن القيسراني ، وانظر الأنساب للسمعاني (٤٢/٤و٤٥) .

(٧) معجم الأدباء (٤٠/١٨) .

وقد سأل ابنُ كاملٍ [١] شيخَه ابن جريرٍ : عن سبب الشكّ في ذلك ؟ فأجاب : لأنّ أهل بلدنا يؤَرِّخون بالأحداث دون السنين ، فأُرِّخَ مولدي بحدثٍ كان في البلد ؛ فلما نشأتُ سألتُ عن ذلك الحادث ، فاختلف المخبرون لي ، فقال بعضهم : كان ذلك في آخر سنة أربع ، وقال آخرون: بل كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين .[٢]

– حالة مدينة آمُل –التي نشأ وترعرع فيها الطبري –سياسياً :

اتّخذَ الحسنُ بن زيد العلوي [٣] "آمل" مقرّاً له ، عندما تغلّبَ عليها في سنة : خمسين ومائتين للهجرة ، وبقيت كذلك في عهد أخيه محمد بن زيد [٤] بعده ، حتى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة ، عندما تغلّبَ عليها السامانيون ، الذين أقاموا إمارةً شِبه مستقلّةٍ في ما وراء النهر ، وجعلوا مدينةَ بخارى قاعدةً لهم .[٥]

وبالجملة فعصر الدولة العباسية الذي عاش الإمام الطبري منه خمسة وسبعين عاماً ، كانت العلوم الدينية فيه قويّةَ العودِ يانعةَ الثمرِ ، وكانت دنيا العلم دائبةَ الحركةِ لا تهدأُ ولا تتريَّث ؛ فكثرتِ المؤلفاتُ ، وعمّتِ المناقشاتُ ، وعمُقَت المناظراتُ ، واستقرّت دعائمُ المذاهبِ الفقهيةِ ، ونشطت

---

(١) هو أبو بكر ، أحمد بن كامل بن خلف البغدادي القاضي ، ولد سنة ستين ومائتين ، وهو تلميذ محمد بن جرير الطبري ، عالم بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر والتواريخ ، وله في ذلك مصنفات ، كان يختار ولا يقلد ، توفي سنة خمسين وثلاثمائة ، وله تسعون سنة . انظر سير أعلام النبلاء (١٥/٥٤٤) ، وشذرات الذهب (٣/٢) .

(٢) معجم الأدباء (١٨/٤٨) .

(٣) هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ظهر على طبرستان سنة خمسين ومائتين ، واستولى على جرجان سنة سبع وخمسين ومائتين ، كان عالماً فقيهاً متواضعاً ، وتوفي سنة سبعين ومائتين ، وكانت ولايته قرابة عشرين سنة . انظر الكامل (٥/٣١٦و٣٦٣) و(٦/٥٥) .

(٤) هو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، تولى بعد أخيه سنة سبعين ومائتين ، وكان فاضلاً أديباً شاعراً حسن السيرة ، وقتل سنة سبع وثمانين ومائتين . انظر الكامل (٦/٥٥و٩٦٩٧) .

(٥) انظر مجلة المؤرخ العربي ،عدد (٣٧)،صفحة (١٤١)،بحث أحمد عبد الباقي –عضو اتحاد المؤرخين العرب– بغداد.

مدارسُ الحديثِ...ودُونتِ السيرةُ والتاريخُ .(١)

وإن كانت حالةُ الدولةِ الإسلاميةِ الانقسامَ السياسيَّ ، إلا أنه لم يؤثّر على النهضةِ العلميةِ بالسَّلبِ ؛ بل كان أصحابُ الإماراتِ يُكرمون العلماءَ ، ويُهْدون لهم الجوائزَ على بحوثهم ، فهو عصرٌ من أزْهى العصورِ تقدّماً وإنتاجاً .(٢)

– ٢ – نشأته :

قال ابن جريرٍ لتلميذه ابن كامل : حفظتُ القرآن وليَ سبعُ سنين ، وصلّيتُ بالناسِ وأنا ابن ثماني سنين ، وكتبتُ الحديثَ وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لي أبي في النوم ، أنني بين يدي رسول الله – ﷺ – وكان معي مخلاةً مملوءةً حجارةً وأنا أرمي بين يديه ، فقال له المعبِّر : إنه إن كَبُرَ : نَصحَ في دينه، وذبَّ عن شريعته ؛ فحرصَ أبي على معونتي على طلب العلم ، وأنا حينئذٍ صبيٌّ صغيرٌ .(٣)

فكان منْذُ نعومةِ أظفاره شغوفاً للعلم ، فحفظَ القرآنَ ، وكتبَ الحديثَ ، وكانت رؤيا والده مشجِّعةً له على تفريغه من كل شغلٍ ، إلا العلم الشرعي ، وما انفكّ يُرسلُ إليه بالنفقةِ والكسوةِ ؛ رجاءَ تحقيقِ رؤياه التي يفرح بها كلّ مسلمٍ .

وقال ابن كامل : فأوّل ما كتب الحديث ببلدة الرّيّ وما جاورها ، وأكثرَ الشيوخ حتى حصلَ على كثيرٍ من العلم...(٤)

وقال الفرغاني (٥) : رحلَ ابن جرير من مدينة "آمل" لما ترعْرعَ ، وسمحَ له أبوه بالسفر ، وكان طول حياته يُنفذُ إليه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان ، فسمعته يقول : أبطأت عنّي نفقة والدي ؛

---

(١) الطبري ومنهجه في التفسير صفحة (٤٣) ، للدكتور محمود بن الشريف .

(٢) انظر كتاب "الإمام الطبري" صفحة (٧–٨) ، لعبد الله آل شاكر .

(٣) معجم الأدباء (١٨/٤٩) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/٤٩) .

(٥) هو أبو محمد ، عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني التركي ، ألّف كتاب الصلة لوصل تاريخ ابن جرير ، حدّث بدمشق ، توفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة . انظر معجم الأدباء (١٨/٤٤) ، وسير أعلام النبلاء (١٦/١٣٢) .

واضْطُرِرْتُ إلى أن فتقْت كمَّي القميصِ فبعتهما .[١]

ومع حرص والده على إرسال النفقة ، إلا أنّها قد تتأخّر أحياناً ، ولكنّ الإمام أشدّ حرصاً على العلم ، وصبراً على التحصيل ، والتضحية من أجله ، فيبيع شيئاً من لباسه ؛ لينفق على نفسه في طلب العلم ، وذلك الحرص وقت رَيْعان شبابه ، فما بالك بما بعده .

– ٣ – رحلاته العلمية :

رحل أبو جعفر –رحمه الله – رحلات كثيرة : منها :

– إلى بغداد ؛ ليسمع من أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، فلم يتّفق ذلك ؛ لموته قبيل دخوله إليها ، فأقام أبو جعفر بمدينة السلام –بغداد– ، وكتب عن شيوخها فأكثر .

– ثم انحدر إلى البصرة ، وكتب في طريقه عن شيوخه الواسطيين .

– ثم صار إلى الكوفة .

– ثم عاد إلى بغداد ، فكتب بها ولزم المقام بها مدّةً وتفقّه بها ، وأخذ في علوم القرآن .

– ثم غرّب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ : بأجناد الشام ، والسواحل ، والثّغور ، وأكثر منها .

– ثم صار إلى الفسطاط [٢]، سنة ثلاث وخمسين ومائتين للهجرة ، – وعمره تسع وعشرون سنة – وكان بها بقيّة من الشّيوخ وأهل العلم ، فأكثر عنهم الكتبة .

– ثم عاد إلى الشام .

– ثم رجع ثانية إلى مصر ، سنة ست وخمسين ومائتين للهجرة .

– ثم رجع إلى بغداد .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٧٦/١٤-٢٧٧) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢٥/٣) للسبكي . والكُمُّ : مدخل اليد ومخرجها من الثوب ، ترتيب القاموس ، مادّة : ك م م (٨٢/٤) .

(٢) مدينة بناها عمرو بن العاص –رضي الله عنه – بمصر .

- ثم إلى طَبَرِسْتان : وهي المرة الأولى ، ثم الثانية : سنة تسعين ومائتين .

- ثم رجع إلى بغداد ، فنـــزل في قنطرة البردان ، واشتهر اسمه في العلم ، وشـــاع خـــبره في الفهـــم والتقدم(١).

قال مسلمة بن قاسم (٢):"...رحل من بلده في طلب العلم ، وهو ابن ثنتي عشرة سنة – سنةَ ست وثلاثين –، فلم يزل طالباً للعلم ، مولعاً به إلى أن مات ." (٣)

وهكذا ترى الإمام رحّالة من قُطْر إلى قُطْر ، في جمع العلم ومدارسته ، وظهرت ثمرة ذلـــك الجهد والجَلَد ، في المصنّفات التي تركها للأمّة الإسلامية .

- ٤ – شيوخه ، وتلاميذه :

- أ – شيوخه :

كان للإمام ابن جرير – رحمه الله – : من الهمّةِ العاليةِ ، والصبرِ على المشقّةِ ، ما يعجبُ له طلاب العلم في ذلك الوقت ، وقصّته في إملاء كتاب التفسير والتاريخ شاهدةٌ على ذلك — وستأتي في الحديث عن كتابه جامع البيان —؛ ولتلك الهمّة العالية ، والصبر على تحصيل العلم ، فقد رحـــل إلى أماكن كثيرة ، وأخذ عن مشايخ كُثُر ، أذكر أشهرهم ، على حسب العلم الذي أخذه عنهم ابن جرير – قدر المستطاع –.

- شيوخه في القراءات : قرأ القرآن على :

- ١ – أحمد بن يوسف التّغلبي ، المتوفى سنة إحدى وخمسين ومائتين .

---

(١) معجم الأدباء (١٨/٥٠-٥٦) باختصار وتصرف .

(٢) هو مسلمة بن القاسم بن إبراهيم بن عبد الله بن حاتم الأندلسي القرطبي ، ولد سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، مؤرخ محدث ، له التاريخ الكبير ، وتاريخ في الرجال ، توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٦/١١٠) ، ولســـان الميزان (٦/١٤١) ، والأعلام (٨/١٢٢) .

(٣) لسان الميزان (٥/١٠٢) .

- ٢ - وسليمان بن عبد الرحمن الطّلحي -صاحب خلاّد -، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ٣ - والعبّاس بن الوليد بن مزيد ، ببيـــروت ، المتوفى سنة ثمان وخمسين ومائتين .
- ٤ - وأبو كريب محمد بن العلاء الهمذاني ، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين .
- ٥ - وقرأ على يونس بن عبد الأعلى الصّدفي ،بمصر ،المتوفى سنة:أربع وستين ومائتين . [١]

- شيوخه في الفقه :

درس كتاب الأم : ببغداد على :

- ٦ - الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ، المتوفى سنة : ستين ومائتين .
- ٧ - وأبي سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري ، وكان أصغر سنّاً منه ، ولد سنة أربـــع وأربعـــين ومائتين ، وتوفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة . [٢]
- ٨ - وأخذ فقه الشافعي بمصر ، عن الرّبيع بن سليمان الأزدي ، المتوفى سنة سبعين ومائتين .
- ٩ - ودرس بمصر مذهب مالك على سعد ، وعبد الرحمن ، ومحمد بني عبد الله بن عبد الحكيم .
- ١٠ - ودرس مذهب أبي حنيفة بالرّيّ ، على أبي مقاتل .
- ١١ - ودرس على داود بن علي الظاهري - المتوفى سنة سبعين ومائتين- مذهبه . [٣]

- شيوخه في الحديث والتفسير بالمأثور :

- ١٢ - محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي ،المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين .
- ١٣ - وإسحاق بن إسرائيل المروزي ، المتوفى سنة أربع وخمسين ومائتين .

---

(١) انظر معرفة القراء الكبار (٢٦٤/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢١/٣) ، وغاية النهاية (١٠٧/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٠٧/٢و١١٠) .

(٢) انظر معجم الأدباء (٥٣/١٨) ، وطبقات الشافعية (١٩٣/٢) .

(٣) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) .

- ١٤ - وأحمد بن منيع البغوي ، المتوفى سنة أربع وأربعين ومائتين .
- ١٥ - ومحمد بن حميد الرّازي ، المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائتين .
- ١٦ - وأبي همّام الوليد بن شجاع ، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .
- ١٧ - ويعقوب بن إبراهيم الدّورقي ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ١٨ - وهنّاد بن السّري ، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .
- ١٩ - وعمرو بن علي ، المتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين .
- ٢٠ -ومحمد بن بشّار ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين .
- ٢١ -ومحمد بن المثنّى ، المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين.
- ٢٢ - وعبّاد بن يعقوب ، المتوفى سنة خمسين ومائتين .
- ٢٣ - وعبد الله بن إسماعيل الهبَّاري ، المتوفى سنة خمسين ومائتين .
- ٢٤ - وبشر بن معاذ العقديّ ، المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين .
- ٢٥ - وأبو كريب محمد بن العلاء ، - شيخه في القراءة - قال ياقوت : أخذ عنه أكثر من مائة ألف حديث [١].
- ٢٦ - وعمران بن موسى القزّاز ، المتوفى سنة خمس وثلاثمائة .[٢] .

- أما في النحو والأدب واللغة والشعر :

-٢٧ - فأحمد بن يحيى ، الملقّب بثعلب ، إمام نحاة الكوفة ، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، فقد قال : " قرأ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء ، قبل أن يكثر الناس عندي بمدّة طويلة."[٣].

هذا ولو كان المقصود حصر مشايخ الإمام لطال عدّهم في هذا المقام ، ولكن هؤلاء أشهرهم ، - غفر الله للجميع - .

---

(١) معجم الأدباء (١٨/٥١-٥٢) .

(٢) انظر الفهرست صفحة (٢٩١) ، وتاريخ بغداد (٢/١٦٢) ، والمنتظم (٦/١٧٠) ، وكتاب الإمام الطبري صفحة (٢١-٢٢) لعبد الله آل شاكر ، بتصرف واختصار .

(٣) معجم الأدباء (١٨/٥٣) .

– ب – تلامذته :

لقد كان لمنـــزلة ابن جرير – رحمه الله – العلمية ، وسعتها للعلوم الشرعية واللغوية الأثـــر الكبير في كثرة التلاميذ ، مما يعيق حصرهم ، وما لا يدرك كله لا يترك جله ، فأذكر أشهرهم .

– تلاميذه في القراءات :

روى عنه الحروف – القراءات – :

-١- أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد – مؤلف كتاب السّبعة في القراءات – المتوفى ســـنة أربـــع وعشرين وثلاثمائة ، غير أنه دلّس اسمه ، فقال : حدثني محمد بن عبد الله [١].

-٢- وعبد الله بن أحمد الفرغاني ، المتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وقد روى بعض تفسير جامع البيان [٢] .

-٣- وعبد الواحد بن عمر ، المتوفى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة .

-٤- ومحمد بن أحمد الدّاجوني ، المتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة [٣].

ومن تلاميذه في غير القراءات :

-٥- أبو بكر محمد بن داود بن سليمان البغدادي الفقيه ، المتوفى سنة ست وثلاثين وستمائة وقـــد روى بعض التفسير .[٤]

-٦- وأبو بكر أحمد بن كامل القاضي ، المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة ، وقد ترجم لشيخه الطبري .

-٧- وأبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي .

---

(١) أنكر بعض المعاصرين تدليس الاسم هذا من ابن مجاهد ، وحجتهم : أن الإمام ابن الجزري ذكر من تلاميـــذ يـــونس بـــن عبد الأعلى : محمد بن عبد الله الفقيه ، ولعله الذي ذكره ابن مجاهد ، وابن مجاهد كان معظماً لابن جرير ، و قـــد روى الإمام الدارقطني وغيره من كبار المحدثين عن ابن مجاهد . انظر مقدمة شوقي ضيف على كتاب السبعة لابن مجاهد صـــفحة (٢٦-٢٧) ، وكتاب دفاع عن القراءات للدكتور : لبيب السعيد ، هامش صفحة (١١) .

(٢) انظر جامع البيان بتحقيق شاكر (٤٩٦/٦) .

(٣) انظر غاية النهاية (١٠٧/٢) لابن الجزري ، وطبقات المفسرين (١١٠/٢) للداوودي .

(٤) انظر جامع البيان بتحقيق شاكر (٤٩٦/٦) .

-٨- ومَخْلد بن جعفر البَاقَرْحي ، المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة [١].

-٩- وأبو شعيب عبد الله بن الحسن بن أحمد الحرّاني،المتوفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .

-١٠- وأبو عمرو محمد بن أحمد النيسابوري ، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة .

-١١- وعلي بن الحسن بن علاّن الحافظ ، المتوفى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة .

- ١٢ - وأبو الطيب عبد الغفار بن عبد الله السري الحُضَيني المقرئ الواسطي ، المتوفى سنة سبع وستين وثلاثمائة .

- ١٣ - وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، صاحب المعاجم الثلاثة ، المتوفى سنة ستين وثلاثمائة[٢].

- ١٤ - وأبو الفرج الأصفهاني ، صاحب كتاب الأغاني ، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة [٣].

- ١٥ - وأبو أحمد عبد الله بن عُديّ بن القطّان الجرجاني ، صاحب كتاب الكامل ، المتوفى سنة خمس وستين وثلاثمائة .

- ١٦ - والقاضي محمد بن زُبَر ، المتوفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة .

- ١٧ - وأحمد بن القاسم الخشّاب ، المتوفى سنة أربع وستين وثلاثمائة [٤].

وغير هؤلاء كثير كثير - غفر الله للجميع -.

- ٥ - علومه :

لقد جمع الإمام ابن جرير من العلوم ما لم يجتمع لغيره ، وإليك أقوال العلماء في ذكر علومه:

- قال أبو بكر محمد بن خزيمة -رحمه الله- [٥] - لما استعار التّفسير من ابن

---

(١) انظر تاريخ بغداد (١٦٢/٢) .

(٢) انظر طبقات المفسرين للداوودي (١٠٧/٢) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (٣٩٨/١١) ، ومعجم الأدباء (٨٧/١٨) .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء (٢٦٩/١٤) .

(٥) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ، ولد سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، محدث كبير ، شديد التحرّي في الحديث ، وله استخراج دقيق للنكت من الأحاديث ، من مؤلفاته : صحيح ابن خزيمة ، وهو يتلو صحيح مسلم على ما =

بالويه [(١)] وردّه بعد سنين – : " نظرتُ فيه من أوّله إلى آخره ، وما أعلمُ على ظهرِ الأرضِ أعلمَ مـــنِ ابنِ جرير." [(٢)].

– وقال الذهبي –رحمه الله– [(٣)] : " الإمامُ العَلَمُ المجتهدُ ، عالمُ العصر ،...وكان مـــن أفـــراد الدهرِ: علماً ، وذكاءً ، وكثرةَ تصانيفٍ ، قلّ أن ترى العيونُ مثلَه " [(٤)].

– أما في حسن قراءته خاصة :

– فقد قال أبو علي الطوماريّ [(٥)] : " كنت أحملُ القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد [(٦)] إلى المسجد ؛ لصلاة التراويح ، فخرج ليلةً من ليالي العشر الأواخر من داره ، واجتاز علـــى مسجده فلم يدخله –وأنا معه –، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَشِ ، فوقف بباب مسجدِ محمدِ

=

ذكره السيوطي في ألفيته ، توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (١٠٩/٣)، وشذرات الذهب (٢٦٢/٢) ، والرسالة المستطرفة للكتاني صفحة (٢٠و٢٣) .

(١) هو أبو بكر ، محمد بن أحمد بن بالويه الجلاّب النيسابوري ، من كبراء بلده ، إمام كتب عن الأئمة ، توفي ســـنة أربعـــين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (٤١٩/١٥) .

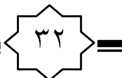
(٢) معجم الأدباء (٤٢/١٨-٤٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) .

(٣) هو شمس الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، التركماني ، الشافعي ، مؤرخ الإسلام، ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، إمام في القراءات ، آية في نقد الرجال ، عمدة في الجرح والتعديل ، له مصنفات كثيرة منـــها : تاريخ الإسلام الكبير ، واختصاره : سير أعلام النبلاء ، توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . انظر طبقات الشافعية الكـــبرى لتلميذه السبكي (١٠٠/٩) ، وشذرات الذهب (١٥٣/٦) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٦٧/١٤) .

(٥) هو عيسى بن محمد بن أحمد الجريجي الطوماري البغدادي ، من ذرية فقيه مكة ابن جريج ، ولد سنة اثنتين وستين ومائتين ، صحب ابن طومار الهاشمي فنسب إليه ، توفي سنة ستين وثلاثمائة . انظر تاريخ بغداد (١٧٦/١١) ، والأنساب (٨٢/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٦٤/١٦) .

(٦) هو أبو بكر ، أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ، ولد سنة خمس وأربعين ومائتين ، شـــيخ القـــراء في وقته، شافعي عابد ، ألف : كتاب السبعة في القراءات ، توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة . انظر معرفة القـــراء الكبـــار (٢٦٩/١) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٥٧/٣) ، وغاية النهاية (١٣٩/١) .



بن جرير ، ومحمدٌ يقرأُ سورةَ الرحمن ، فاستمع قراءته طويلاً ، ثم انصرفَ ، فقلت له : يـا أسـتاذ : تركتَ الناس ينتظرونكَ ، وجئتَ تسمعُ قراءةَ هذا ؟ ، فقال : يا أبا عليّ ، دع هذا عنكَ ، ما ظننتُ أنّ اللهَ – تعالى – خلقَ بشراً يُحسِنُ يقرأُ هذه القراءة ، أو كما قال ." [١].

فهذا القولُ من عالِم القراءات : أبي بكر ابن مجاهد ، له ميزانه وقدره .

-أما مَنْ ذَكَرَ عامّةَ علومه :- فمنهم ابنُ النّديمِ [٢] فقد قال : " كانَ متَفَنِّناً في جميع العلـوم : علمِ القرآنِ ، والنحوِ ، والشعرِ ، واللغةِ ، والفقهِ ، كثير الحفظ . وقال : ورأيتُ أنا بخطّهِ شيئاً كثيراً : من كتبِ اللّغةِ ، والنحوِ ، والشعرِ ، والقبائلِ " [٣].

– و الخطيبُ البغداديّ [٤] –رحمه الله– حيث يقول : " وكان أحدَ أئمةِ العلمـاءِ ، يُحْكَـمُ بقوله، ويُرجع إلى رأيهِ ؛ لمعرفته وفضْله ، وكان قد جَمَعَ من العلومِ ما لم يشاركْهُ فيه أحدٌ من أهـل عصره ، وكان حافظاً لكتابِ الله ، عارفاً بالقراءاتِ ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآنِ ، عالماً بالسننِ وطرقِها ، وصحيحِها وسقيمِها ، وناسخِها ومنسوخِها ، عارفاً بأقوالِ الصحابةِ والتابعينَ ، ومن بعدَهم من الخالفين ، في الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناسِ وأخبـارِهم ، ولـه الكتابُ المشهورُ ، في تاريخ الأمم والملوك ، وكتابٌ في التفسير ، لم يصنِّف أحدٌ مثلُه ، وكتاب سمّاه : تهذيبَ الآثار ، لم أرَ سواهُ في معناه ، إلا أنّه لم يتمّه ، وله في أصول الفقه وفروعه كتـبٌ كـثيرةٌ ،

---

(١) انظر تاريخ بغداد (١٦٤/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢٤/٣) .

(٢) هو أبو الفرج ، محمد بن إسحاق النديم الوراق ، ولد سنة سبع وتسعين ومائتين ، وهو شيعي إمامي معتزلي ، له أقدم كتاب في التراجم : "الفهرست" ، وله التشبيهات ، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلـك. انظـر لسـان الميـزان (٧٢/٥) ، والأعلام (٢٥٣/٦) .

(٣) الفهرست صفحة (٢٩١) .

(٤) هو أبو بكر ، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب ، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، مقرئ محدث فقيـه شـافعي مؤرخ أديب ، صنف قريباً من مائة مصنف ، منها : تاريخ بغداد ، والفقيه والمتفقه ، وشرف أصحاب الحـديث، تـوفي ببغداد سنة ثلاث وستين وأربعمائة . انظر سير أعلام النـبلاء (٢٧٠/١٨) ، وطبقـات الشـافعية الكـبرى (٢٩/٤) ، وشذرات الذهب (٣٠٢/٢) .

واختيارٌ من أقاويلِ العلماءِ، وتفرّدٌ بمسائلَ حُفِظتْ عنه " [١].

– ومنهم الذهبي –رحمه الله– الذي يقول : " كان ثقةً ، صادقاً ، حافظاً ، رأساً في التفسير ، إماماً في الفقهِ ، والاجتماعِ ، والاختلافِ ، علاّمةً في التاريخ وأيّام الناس ، عارفاً بالقراءات وباللغة ، وغير ذلك " [٢].

– وقال فيه أبو علي الحسن بن علي الأهوازي المقرئ –رحمه الله– [٣] : " كان أبو جعفر الطبري عالماً بالفقه ، والحديث ، والنحو ، واللغة ، والعروض ، له في جميع ذلك تصانيف ، فاقَ بها على سائر المصنِّفين ، وله في القراءات كتابٌ جليلٌ كبيرٌ..." [٤].

– وقال هارون بن عبد العزيز –رحمه الله– [٥] :" قال أبو جعفر :لّما دخلتُ مصرَ ، لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلا لقِيَني وامتحنني في العلم الذي يتحقّق به ؛ فجاءني يوماً رجل ، فسألني عن شيءٍ من العروض ، و لم أكن نشطتُ له قبلُ ذلك ، فقلتُ له : عليّ قولٌ ألا أتكلّم اليومَ في شيءٍ من العروض ؛ فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليّ ، وطلبتُ من صديقٍ لي العروضَ ، للخليل بن أحمد [٦] ، فجاءَ

---

(١) تاريخ بغداد (١٦٣/٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٦٩/١٤) .

(٣) هو أبو علي ، الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي ، ولد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، محدث مقرئ مصنف في القراءات ، وله فيها غرائب ، متّهم في روايته في القراءات ، والخطيب البغدادي يتهمه فيها وفي الحديث جميعا ، أي : في تركيب الإسناد وادّعاء اللقاء ، وليس وضع الحروف والمتون ، توفي سنة ست وأربعين وأربعمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٣/١٨) ، وشذرات الذهب (٢٧٤/٣) .

(٤) انظر معجم الأدباء (٤٥/١٨) .

(٥) هو أحد تلامذة ابن جرير الطبري ، لم أجد له ترجمة ، روى عن الطبري ، وروى عنه الفرغاني صاحب صلة تاريخ ابن جرير . ورد في سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) عند ترجمة ابن جرير الطبري .

(٦) هو أبو عبد الرحمن ، الخليل بن أحمد بن تميم الأزدي الفراهيدي ، وفراهيد بطن من الأزد ، ولد سنة مائة ، لم يسم أحد بعد نبينا –ﷺ – أحمد قبل أبي الخليل هذا ، إمام النحو ومنشئ علم العروض والعربية ، شيخ سيبويه ، له كتاب العين و لم يتمه، وله كتاب في العروض وآخر في الشواهد ، توفي بالبصرة سنة سبعين ومائة وقيل غير ذلك . انظر المعارف صفحة (٥٤١) ، وإنباه الرواة (٣٤١/١) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١٧٧/١) ، وسير أعلام النبلاء (٤٢٩/٧) ، وطبقات =

به ، فنظرتُ فيه ليلتي ، فأمسيتُ غير عروضيٍّ ، وأصبحتُ عروضياً..." (١)

– وقال عبد العزيز بن محمد –رحمه الله– (٢) :"...وكان أبو جعفر قد نَظَر في المنطق ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، وكثير من فنون أبواب الحساب ، وفي الطّبِّ ، وأخذنا منه قسطاً وافراً؛ يدلّ عليه كلامه في الوصايا...وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القراءة ، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه ، وكالنّحوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات ، جامعاً للعلوم " (٣).

– وقال أيضا : " كان أبو جعفر من الفضل ، والعلم ، والذكاء ، والحفظ ، على ما لا يجهله أحد عرفه ؛ لجمعه من علوم الإسلام ، ما لم نَعْلمه اجتمع لأحدٍ من هذه الأمّة ، وقد بَانَ فضله في علم اللغة ، والنحو ، على ما ذكره في كتاب التفسير ، وكتاب التهذيب ، مخبراً عن حاله فيه ، وقد كان له قَدَمٌ في علم الجَدَل ؛ يدلّ على ذلك مناقضاته في كتبه على المعارضين لمعاني ما أتى به " (٤).

– وقال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد –رحمه الله– (٥) : "سمعت ثعلباً (٦) يقول : قرأ عليّ أبو

=

النحويين واللغويين صفحة (٤٧) ، ونور القبس صفحة (٥٦) .

(١) انظر معجم الأدباء (١٨/٥٦) .

(٢) هو أحد تلامذة ابن جرير ، لم أجد له ترجمة ، وقد ألف ترجمة لشيخه ابن جرير ، نقل عنها ياقوت في معجمه كثيراً عند ترجمة الطبري . انظر معجم الأدباء (١٨/٩٤) .

(٣) معجم الأدباء (١٨/٦٠-٦١) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/٥٩-٦٠) .

(٥) هو أبو عمر ، محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، ولد سنة إحدى وستين ومائتين ، لازم ثعلباً فأكثر عنه ، له جزء فيه فضائل معاوية ، لا يقرأ عليه أحد إلا ويبدأ بهذا ، عالم بالعربية وبعض أهل العربية لا يوثقونه ، وهو موثق في الحديث ، توفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٥/٥٠٨) ، وبغية الوعاة (١/١٦٤) .

(٦) هو أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي ، ولد سنة مائتين ، قال الخطيب : ثقة حجة دين صالح مشهور بالحفظ ، له كتاب اختلاف النحويين وكتاب القراءات وكتاب معاني القرآن ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين . انظر إنباه الرواة (٣/١٧١) ، وسير أعلام النبلاء (١٤/٥) .

جعفر الطبري، شِعرَ الشعراءِ ، قبل أن يكثر الناس عندي بمدةٍ طويلةٍ "[١].

– وكان بالإضافة إلى دراسته للشعر شاعراً ، فمن شعره :

إذا أعسرتُ لم يعلَمْ رَفيقِي ... وأَسْتغني فيَسْتغني صَديقِي .
حيائي حافظٌ لي ماءَ وجْهــي ... ورِفْقــي في مُطالبتي رَفيقِي .
ولَو أني سَمَحْت ببذْلِ وجهي ... لكنتُ إلى الغِنى سهل الطّريقِ .

وقال أيضاً :

خُلُقَانِ لا أرضَى طريقَهما ... بَطَرُ الغِــنى ومذلّةُ الفقْــرِ .
فإذا غَنَيتَ فلا تكُن بَطراً ... وإذا افتقَرْتَ فَتِهْ على الدّهرِ .

ولما كتب إليه أحمد بن عيسى العلوي [٢] من البلد :

ألا إن إخوان الثّقـــــاتِ قليلٌ ... وهل لي إلى ذاك القليل سبيلُ .
سَلِ الناس تعرف غثَّهم من سمينهــم ... فكـــلٌّ عليه شاهدٌ ودلــيـلُ .

قال أبو جعفر : فأجبته :

يُسيءُ أميري الظنَّ في جهدِ جاهدٍ ... فهلْ لي بحُسن الظنّ منه سبيلُ.
تأمّــلْ أميــري مــا ظننتُ وقلتُه ... فإنّ جميلَ الظنّ منكَ جميلُ [٣].

وهذه العلوم التي جمعها الإمام ابن جرير ، جعلت من مؤلفاته عامةً ، ذاتَ قيمةٍ علمية متميزة، وصار تفسيره جامع البيان –على وجه الخصوص – أوضح هذه المؤلفات، وكلٌّ يَنْهَلُ منه على مَرّ الأجيال ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) معجم الأدباء (٦٠/١٨) .

(٢) لم أجد له ترجمة ، وهو من أهل آمل بطبرستان بلد الطبري ، راسل الطبري بهذه الأبيات ، وقصّ ابن جرير قصته هذه على طلابه . انظر تاريخ بغداد (١٦٥/٢-١٦٦) .

(٣) تاريخ بغداد (١٦٥/٢-١٦٦) .

- ٦ - تدريسه ، وتأليفه :

أ – تدريسه : كان يصلي الظهر في بيته ، ويكتب تصانيفه إلى العصر ، فيخرج فيصلي ، ثم يجلس للناس يُقرِئ ويُقرَأُ عليه إلى المغرب، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى عشاء الآخرة ، فيدخل منـــزله (١).

فكانت أوقات التدريس والجلوس للإقراء : من بعد صلاة العصر إلى العشاء .

ب – تأليفه : اشتهر ابن جرير بكثرة التأليف والكتابة،فقد حكى السمســماني (٢): أن ابــن جرير مكث أربعين سنةً ، يكتب في كل يوم : أربعين ورقة .

وحسب بعض تلامذة ابن جرير : مدة بلوغه إلى وفاته ، ثم قسموا المدة على أوراق مصنفاته ؛ فصار لكل يوم : أربع عشرة .

- قال السبكي –رحمه الله- (٣) :" وهذا لا ينافي كلام السمسماني ؛لأنه منذ بلغ ، لا بــدّ أن يكون مضت له سنون في الطلب ، لا يصنف فيها " (٤) .

- وقال ابن النديم : " ورأيت أنا بخطّه شيئاً كثيراً : من كتب اللغة ، والنحــو ، والشــعر ، والقبائل " (٥).

وتأمّل حرصه على التأليف والتصنيف ؛ لدرجة أنه يمنع أي أحد من الدخول عليــه وقــت

---

(١) انظر معجم الأدباء (٩٢/١٨) .

(٢) هو أبو الحسن ، علي بن عبد الله –وقيل عبيد الله – بن عبد الغفار ، اللغوي ، المعروف بالسمسماني ، أو السمسمي ،توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٢/٣) ، وبغية الوعاة (١٧٨/٢) .

(٣) هو أبو نصر ، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الشافعي ، ولد بالقاهرة ، سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، فقيه أصولي لغوي ، له تصانيف كثيرة منها : رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ، وطبقات الفقهــاء الشــافعية الكــبرى والوسطى والصغرى ، توفي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٣٩/٣) ، وشذرات الذهب (٢٢١/٦) ، والبدر الطالع (٤١٠/١) .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٣) .

(٥) الفهرست صفحة (٢٩١) .

التصنيف : كان أبو جعفر إذا دخل بيته لا يكاد يدخل إليه أحد ؛ لتشاغله بالتصنيف إلا في أمر مهم[١].

والذي يظهر مما سبق : أن التصنيف عند الإمام ابن جرير في وقتين : بعد الظهر إلى العصر ، وبعد العشاء الآخرة .

وقد كان مقسّماً ليله ونهاره في مصلحة نفسه ، ودينه ، والخلق ،كما وفقه الله –عز وجل– [٢] .

وقد كثرت مصنفات الإمام ابن جرير – رحمه الله – ومنها ما يلي :

– في علم القراءات :

كتاب القراءات ، أو العدد والتنزيل ، وسمي بكتاب الفصل بين القراءات [٣] ، قال فيه ياقوت الحموي : " ذكر فيه جميع القراءات ، من المشهور والشواذ ، وعلّل ذلك ، وشَرَحه ، واختارَ منها قراءة لم يخرج فيها عن المشهور " [٤].

وقال ابن كامل –رحمه الله– : " قال لنا أبو بكر بن مجاهد – وقد ذكر فضل كتابه في القراءات – وقال : إلا أنّي وجدتُ فيه غلطاً ، وذكره لي ، وعجبتُ من ذلك مع قراءته لحمزة وتجويده لها ، ثمّ قال : والعلّة في ذلك أبو عُبيد القاسم بن سلاّم ؛ لأنه بنى كتابه على كتاب أبي عُبيد فأَغفل أبو عُبيدٍ هذا الحرف فنقل أبو جعفر على ذلك " [٥].

(١) معجم الأدباء (١٨/٨٨) .

(٢) انظر معجم الأدباء (١٨/٩٢) .

(٣) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، ومعجم الأدباء (١٨/٦٥) ، وطبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢١) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/٤٥) .

(٥) معجم الأدباء (١٨/٦٧) .

-في علم التفسير :

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، وهو الاسم الصحيح ؛ لتسميته له في تاريخه[١]، وسمي جامع البيان في تأويل القرآن [٢] ، وهو الكتاب الذي ظهرت فيه علوم ابن جرير ظهوراً واضحاً ؛ فصار مرجعاً في العلوم الشرعية ، واللغوية ، وغيرها ، وسيأتي مزيد بيان عنه بعد قليل -إن شاء الله- .

- في علم العقيدة :

التبصير في أصول الدين ، وهو رسالة إلى طَبَرِسْتَان ، يشرح ما تقلده من أصول الدين .[٣]

- صريح السنة .

- في علم الفقه :

١ - اختلاف علماء الأمصار ، أو اختلاف الفقهاء . [٤] وهناك مخطوطة لاختلاف الفقهاء في أربعة أجزاء ، في مكتبة برلين ، ورقة : (٤١٥٥) .[٥]

٢ - كتاب لطيف القول ، في أحكام شرائع الإسلام . [٦]

٣ - كتاب الخفيف ، اختصار لكتاب اللطيف .[٧]

٤ - وكتاب تبسيط القول ، في أحكام شرائع الإسلام ، أو البسيط في الفقه و لم يتمّه .[٨]

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (٦٢/١)، وانظر معجم الأدباء (١٨/٤٤-٦١)،والطبري ومنهجه في التفسير صفحة(٦٥).

(٢) معجم المؤلفين (١٤٩/٩) ، لعمر رضا كحالة .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤)،وطبقات الشافعية الكبرى (١٢١/٣)، وطبقات المفسرين للداودي (١١١/٢) .

(٤) الفهرست صفحة (٢٩١) ، ومعجم الأدباء (٤٥/١٨) ، ومعجم المؤلفين (١٤٩/٩) .

(٥) تاريخ الأدب العربي (٤٩/٣) لبروكلمان .

(٦) معجم الأدباء (٤٥/١٨) .

(٧) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، ومعجم الأدباء (٧٤/١٨) .

(٨) انظر الفهرست صفحة (٢٩١)،ومعجم الأدباء (٧٣/١٨)،وطبقات الشافعية لابن السبكي (١٢١/٣-١٢٢) .

- **في علم الحديث :**

١ - كتاب تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله -ﷺ- من الأخبار قال الخطيب البغدادي : " لم أر سواه في معناه ، إلا أنه لم يتمّه " [(١)] ، وقال ياقوت : " وهو كتاب يتعذّر على العلماء عمل مثله ، ويصعب عليهم تتمّته " [(٢)].

وقد خرجت أجزاء من تهذيب الآثار : وهي بقية من مسند عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ،وعبد الله بن عباس -رضي الله عنهم-، بتحقيق الأستاذ : محمود شاكر -رحمه الله - ، وقد أسهمت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في إخراجه وطبعه .

وهناك أيضاً تحقيق له : للدكتور ناصر بن سعد الرشيد ، وعبد القيوم عبد رب النبي، عن مخطوطة كوبرلي .

٢ - تاريخ الرجال : ذكر فيه من الصحابة ، والتابعين ، إلى شيوخه الذين لقيهم .[(٣)]

٣ - كتاب الفضائل : عن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وتكلم عن حديث "غَديرِ خُمٍّ" [(٤)]، واحتج لتصحيحه ، و لم يتمّ الكتاب .[(٥)]

---

(١) تاريخ بغداد (١٦٣/٢) .

(٢) معجم الأدباء (٧٥/١٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) .

(٤) قال ياقوت : وغدير خم : بين مكة والمدينة ، بينه وبين الجحفة ميلان . انظر معجم البلدان (١٨٨/٤) ، وضبط: خُمّ بضم الخاء وتشديد الميم . انظر ترتيب القاموس (١١١/٢) . والحديث له روايات متقاربة منها : "من كنت مولاه فعلي مولاه" رواه أحمد (٨٤/١) برقم (٦٤١) ، وفي لفظ : "اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه " رواه أحمد في المسند (١١٨/١) برقم (٩٥٠) وغيره ، قال ابن حجر : وهو كثير الطرق جدّاً...وكثير من أسانيدها صحاح وحسان . فتح الباري (٧٤/٧) ، وقال أحمد شاكر في إسناد أحمد ضعيف ؛ لجهالة بعض رواته ، وأما متن الحديث فقد ورد بطرق كثيرة ، قال المناوي في شرح الجامع الصغير : نقلاً عن السيوطي : "حديث متواتر " ، وطرقه أو أكثرها في مجمع الزوائد (١٠٣/٩-١٠٩) . انظر مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر (٦٤١/٢) ، وشرح الجامع الصغير (٢١٨/٦) حديث (٩٠٠٠) .

(٥) طبقات المفسرين للداودي (١١٣/٢) .



- **في علم التاريخ :**

تاريخ الأمم والملوك .[١] وهو عمدة في التاريخ ، وآخر ما أُمِلَّ منه إلى سنة اثنتين وثلاثمائة .[٢]

- في تزكية النفس والأخلاق :

كتاب الآداب النفيْسة والأخلاق الحميدة ، أو أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة ، وربما سمّاه : بأدب النفس الشرعية والأخلاق الحميدة ، وهو آخر كتبه ؛ ابتدأه في سنة عشر وثلاثمائة ، ومات و لم يتمّه .[٣]

وممن توسّع في ذِكْر مؤلفات ابن جرير ووَصْفِها : ياقوتُ الحمويُّ في معجمه .[٤] ولاشك أن القارئ لبعض مؤلفات ابن جرير ؛ يوقن بمكانة هذا الإمام في الفنون التي بحثها ، فكيف لو اطلع عليها كلها !.

ومع أنّه كتب في العلوم المختلفة : من قراءات ، وتفسير ، وعقيدة ، وحديث ، وفقه ، وتاريخ، وأشبع هذه الكتب من علومه المختلفة ، فإنه لم يكتف بذلك ، بل كتب في تزكية الأخلاق والسلوك ، وهذه الشمولية ؛ تدل على العالم الرباني ، الذي يعتني بتكميل النفس البشرية ، وتطهيرها من الأخلاق الفاسدة ، كما يهتم بتطهيرها من جهلها بالعلوم الشرعية .

لقد كانت هذه المؤلفات في شتى العلوم والمعارف ، شاهد صدق على غزارة علم الإمام : محمد بن جرير الطبري-رحمه الله - ، وتبوئه المكانة العالية بين العلماء ، وأكبر برهانٍ على ذلك ، ما سطّره في كتابه جامع البيان ، من حيث : جَمْعه للمأثور ، ونَظَره فيها بالنَّظر الثّاقب ، والترجيح بينها في الغالب ، وغير ذلك من الفرائد .

---

(١) طبقات المفسرين للدوادي (١٠٩/٢) ، ومعجم المؤلفين (١٤٩/٩) .

(٢) الفهرست صفحة (٢٩١) وقد ألف تلميذه الفرغاني المتوفى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة : كتاب الصلة لوصل تاريخ الأمم والملوك . انظر طبقات المفسرين للداوودي (١١١/٢) .

(٣) معجم الأدباء (٧٦/١٨-٧٧) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١١٢/٢) .

(٤) معجم الأدباء (٤٠/١٨-٩٤) .

٧- مذهبه العقدي :

كان أبو جعفر إماماً من الأئمة ، معتقداً لما ذهب إليه الصحابة والتابعون ، لا يبغي عنهم بدلاً، عرف ذلك عنه العلماء ، وشهد به القراء في كتبه المشتهرة ، ولا يخفى ذلك على كل ذي عينين ، وقلب سليم .

وخاصة في تفسيره : جامع البيان ؛ فإنه يُعنى فيه بالمسائل العقدية ، التي حصل فيها خلاف بين الفرق ، كمسألة القضاء والقدر ، ورؤية الله في الآخرة ، والشفاعة ، واعتقاده على طريقة السلف ، وكتابه المسمّى : صريح السنة ، الذي ذكر فيه عقيدته ، برهان على مذهبه المتبع للكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة .

قال عبد العزيز بن محمد الطبري : " كان أبو جعفر يذهب في جلّ مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف ، وطريق أهل العلم المتمسّكين بالسنن ، شديداً عليه مخالفتهم ، ماضياً على مناهجهم ، لا تأخذه في ذلك ولا في شيء لومة لائم ." [١]

ومع هذا الوضوح في اتجاه ابن جرير العقدي وسلامته ، إلا أنه لا زال هناك بعض الشبه والتّهم، ومرجعها إلى سببين : إما معلومات خاطئة ، وإما تعصبات مذهبية وحسد .

- أما السبب الأول : فالمعلومات الخاطئة :

حيث تعدّدت هذه الأخطاء ، ولكنها منصبّة على تهمة التشيّع ، ومنها :

أ - ما زعم أنه يقول : بالمسح على القدمين : ولكنّ ابن كثير -رحمه الله-[٢] يقول : "والذي عوّل عليه كلامه في التفسير ، أنه يوجب غسل القدمين ، ويوجب مع الغسل دلكهما ولكن عبّر عن الدّلك

---

(١) معجم الأدباء (٨١/١٨-٨٢) .

(٢) هو أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي ، البصري ثم الدمشقي الشافعي ، ولد تقريباً سنة السبعمائة ، تتلمذ على الإمام المزي ، وأخذ عنه ، وتزوج ابنته ، وأخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأكثر منه ، له مصنفات منها : البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم ، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٣٩٩/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١١٠/١) ، وشذرات الذهب (٢٣١/٦) .

بالمسح ؛ فلم يفهم كثير من الناس مراده ، ومن فهم مراده نقلوا عنه أنه يوجب الغسل والمسح ، وهو الدّلك .-والله أعلم- ." (١)

وقال الذهبي –رحمه الله- : " وكان ابن جرير من رجال الكمال ، وشنّع عليه بيسير تشيّع ، وما رأينا إلا الخير ، وبعضهم ينقل عنه : أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء ، و لم نَــرَ ذلــك في كتبه" (٢).

ب – الاشتباه في الأسماء بين شخص وآخر :

قال ابن حجر –رحمه الله- (٣) : " أقذع أحمد بن على السليماني الحافظ (٤)، فقال: كان يضع للروافض - كذا قال السليماني - ، وهذا رجمٌ بالظنّ الكاذب ؛ بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين ، وما ندّعي عصمته من الخطأ ، ولا يحلّ لنا أن نؤذيَه بالباطل والهوى ، فإنّ كلام العلمـاء بعضهم في بعض ، ينبغي أن يُتأنّى فيه ، ولا سيّما في مثل إمامٍ كبيرٍ ، فلعــلّ الســليمانيّ أراد الآتي . انتهى(٥) .[يعني محمد بن جرير بن رستم(٦)] ؛ قال [: ابن حجر] :ولو حلفت على أنّ السليمانيّ مــا

(١) البداية والنهاية (٦/ ١٤٦-١٤٧) ، وانظر قوله في تفسير آية الوضوء من المائــدة (٦) جــامع البيــان (٤/٤١٧-٤٧٢) ، وتحقيق شاكر (١٠/٦٢-٦٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٧) .

(٣) هو أبو الفضل ، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ثم المصري ، وابن حجر لقب لبعض أبنائه ، الشافعي الحافظ الكبير الإمام بمعرفة الحديث وعلله ورجاله ، ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، طلب الأدب والشعر ثم تفرغ للحديث وبرع فيــه ، وأخذ كثيراً عن الحافظ العراقي ، له مصنفات قيمة منها : فتح الباري ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وتهذيب التهــذيب ، والدرر الكامنة ، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة . انظر حسن المحاضرة للسيوطي (١/٣٦٣) ، والضوء اللامع للسخاوي (٢/٣٦) ، والبدر الطالع (١/٨٧) ، ودرة الحجال (١/٦٤) .

(٤) هو محدث ما وراء النهر ، أبو الفضل ، أحمد بن علي بن عمر بن حمْد بن إبراهيم السليماني الحافظ ، ولد سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، قال الذهبي : رأيت للسليماني كتاباً فيه حطٌّ على كبارٍ [أي : جرح لحفاظ كبار] فلا يُسَمع منه ما شذّ فيــه ، توفي سنة أربع وأربعمائة ، وله ثلاث وتسعون سنة . انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٢٠٠) .

(٥) أي : انتهى كلام أبي الفضل بن الحسين من كتاب له ذيله على الميزان . انظر مقدمة لسان الميزان (١/٤) .

(٦) هو أبو جعفر ، محمد بن جرير بن رستم الطبري الآملي ، رافضي من علماء الإمامية ، صاحب كتاب الإيضــاح وكتــاب =

أراد إلا الآتي لبررت ،والسليماني حافظ متقن، كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل."(١)

ونقل الحافظ ابن حجر عن الخطيب قوله : " وإنما ضرّه الاشتراكُ : في اسمه ، واسم أبيه ، ونسبه ، وكنيته ، ومعاصرته ، وكثرة تصانيفه..." (٢).

وفعلاً مثلُ هذا التطابق ، وأقلّ منه ؛ يوصل إلى هذا اللبس ولا شكّ ، والواجب في مثل هذا التحرِّي ، ودقّة الملاحظة .

وقد ذكرتِ الرافضة هذا الاشتباه ، ونبّهت عليه ، وبيّنت وجهَ الحقِّ فيه :

قال صاحب روضات الجنات (٣) : " محمد بن جرير الطبري رجلان : أحدهما ابن جرير الطبري ، الذي هو شافعيّ المذهب ، ومدحه النووي الشافعي(٤) في كتاب تهذيب الأسماء ، وهو صاحب التاريخ والتفسير المشهورين ، والآخر محمد بن جرير بن رستم الطبري : صاحب كتاب المسترشد ، وكتاب الإيضاح ،ولا شبهة في كونه من الشيعة (٥).

وقال في موضع : " ابن جرير بن رستم الطبري ، يكنى أبا جعفر ، ديّن فاضلٌ، وليس هو

=

المسترشد في الإمامة ، وغيرهما ، توفي ببغداد . انظر ميزان الاعتدال (٤٩٩/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) ، ولسان الميزان (١٠٣/٥) ، وروح المعاني (١١٥/٦) ، وروضات الجنات صفحة (٦٧٣) .

(١) لسان الميزان (١٠٠/٦-١٠١) .

(٢) انظر لسان الميزان (١٠٠/٦-١٠١) ، ولم أجد كلام الخطيب عند ترجمة الطبري في تاريخ بغداد .

(٣) هو محمد بن باقر الموسوي الأصبهاني الخوانساري ، توفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف ، وعنوان كتابه : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، وموضوعه تراجم الشيعة .

(٤) هو محيي الدين ، أبو زكريا ، يحيى بن شرف النووي الشافعي ، ولد بنوى ، سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، له مصنفات كثيرة منها : رياض الصالحين ، والمجموع شرح المذهب في الفقه الشافعي ، وشرح صحيح مسلم ، وتهذيب الأسماء واللغات ، والتبيان في بيان آداب حملة القرآن ، توفي سنة ست وسبعين وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٩٥/٨) ، والنجوم الزاهرة للأتابكي (٢٧٨/٧) ، والفتح المبين للمراغي (٨١/٢) .

(٥) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، صفحة (٦٧٣-٦٧٤) .

صاحبُ التاريخ ، الذي هو عامّيُّ المذهبِ ." [١] وقال أيضاً : " ذاك عامّيٌّ وهذا إماميٌّ ." [٢].

وهذه تزكيّةٌ من الرافضة له ، ولو شمَّ الرافضة منه رائحة التشيع ؛ لوضعوا له التبجيل ، ولأخذ المدحَ من غير كيلٍ ولا وزنٍ ، ولوُضعَت له التَّراجم الواسعة ، فذاك طريق يَدَّعون به تصحيح مذهبهم.

ج – ومن أسباب التهمة بالتشيع : أنه صحح حديث " غَديرَ خُمٍّ " : [٣].

فقد ألّف كتاباً كبيراً ، قال الذهبي –رحمه الله-: " جمع فيه طرق حديث " غَديرَ خُمٍّ " ، في أربعة أجزاء ، رأيتُ شطره ، فبهَرني بسعة رواياته ، وجزمتُ بوقوع ذلك ، وقد نفى الذهبيّ عنه التشيع بقوله : وشنّع عليه بيسير تشيع ، وما رأينا إلا الخير " .[٤]

والمحقّقُ : أنّ التّصحيح لأيِّ حديثٍ إذا كان بحثاً عن الحقِ ، فليس عيباً ولا تشيّعاً ، بل هو الدّين الحقّ ، الذي يجب على المسلم عمله .

ويدل على أن قصده الحقَّ لا البدعةَ والرفْضَ ، السببُ الذي من أجله جَمَع روايات حديث " غَديرَ خُمٍّ " ، ودَرَسَ أسانيدها :

فالسبب : أنه سمع من بعض مشايخ بغداد تكذيب هذا الحديث [٥]، وأن علياً –رضي الله عنه– كان باليمن ، في الوقت الذي كان فيه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في غدير خم ، ووضع رَجَزاً [٦] بهذا المعنى ؛ فألّف في حديث : "غدير خم" ، وفضائل علي ، فكثر الناس واجتمع إليه قوم من الروافض ، ممن بسط لسانه بما لا يصلح في الصحابة – رضي الله عنهم – فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما –.[٧]

---

(١) عامي المذهب عند الرافضة هم أهل السنة ، وهذا قدح عندهم لا مدح ، والممدوح عندهم من كان إمامي المذهب : أي يؤمن بأئمة آل البيت ، ويبغض بقية الصحابة،وخاصة الشيخين : أبا بكر وعمر –رضي الله عنهما – .

(٢) المرجع نفسه ، وانظر دراسة الطبري للمعنى صفحة (١٩٤) ، للأستاذ محمد المالكي .

(٣) لسان الميزان (١٠٠/٥) ، وانظر معجم الأدباء (٨٤/١٨) ، انظر نص الحديث هامش صفحة (٣٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/١٤) .

(٥) قيل تكلم في الحديث أبو بكر بن داود السجستاني . انظر طبقات المفسرين للداوودي (١١٣/٢) .

(٦) الرَّجَزُ : ضرب من الشعر ، وزنه مستفعلن ست مرات . انظر ترتيب القاموس (٣٠٦/٢) .

(٧) انظر معجم الأدباء (٨٤/١٨-٨٥) ، ونسبه لأبي بكر من كامل التلميذ الذي ترجم لشيخه الإمام الطبري .

وأسباب التأليف الماضية : توضح أنه لم يكن قصده نصر أهل الرفض ، وإنما أراد الدفاع عن مذهب أهل السنة ، وتصحيح الأخطاء العلمية ، والرد على المخطئ ، ولو كان من أهل السنة وقصده الخير ، وانظر إلى تغييره مسار الدرس من فضائل علي -رضي الله عنه- إلى فضائل أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما - لما تجمّع أهل الرفض عليه ، ولو كان منهم لما غيّر ما يحبّون إلى ما يكرهون .

بل إنه في مجتمعٍ كثر فيه الرفض ، يَجْهر بفضائل الخليفتين الراشدين : أبي بكر وعمر، فلما رجع إلى طَبَرِسْتَان ؛ وَجَدَ الرفض قد ظهر ، وسبُّ أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيْنَ أهلها قد انتشر ، أملى فضائل أبي بكر وعمر ، حتى خاف أن يجري عليه ما يكرهه ؛ فخرج منها من أجل ذلك[١].

ومعلوم موقف الرافضة من الشيخين ، وما يتوقع منهم من الأذى ؛ إلا أن الجهر بالحق والتزام منهج السلف هو منهج إمامنا — رحمه الله — والله أعلم.

- ومما يدل على عدم تشيعه : أقواله في مذهب الرافضة ، المخالف للكتاب والسنة ، ورأيه فيهم :

قال محمد بن علي [٢] : " سمعت أبا جعفر الطبري — وجرى ذكر علي – ، فقال أبو جعفر : من قال إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى ، أيش هو ؟ فقال له ابن صالح الأعلم[٣] : مبتدع ، فقال له الطبري : منكراً عليه : مبتدع !! مبتدع !! ، هذا يقتل ، من قال : إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى ، يقتل !! يقتل !! ." [٤]

فهذا الحكم الواضح الصريح الصارم يدل على براءته من التشيع ، كبراءة الذئب من دم يوسف — عليه السلام – .

---

(١) معجم الأدباء (١٨/٨٥) .

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن سهل ابن الإمام – صاحب بن جرير —لم أجد له ترجمة،وهو من تلامذة ابن جرير.

(٣) لم أجد له ترجمة ، وأظنه من تلامذة ابن جرير أيضاً .

(٤) لسان الميزان (٥/١٠١) ، وانظر سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٥) .

- أما السبب الثاني لاتهامه بالرفض : فالتعصب والحسد :

ففي زمانه اتهم بالرفض وأحياناً بالإلحاد ، من بعض عوام الحنابلة ورعاعهم - وحاشاه من ذلك - بل كان أحد أئمة الإسلام ، علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، وإنما تقلّدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري [١]؛ حيث كان يتكلم فيه ، ويرميه بالعظائم ، وبالرفض .[٢]

وقيل : لما ألّف في اختلاف الفقهاء ، و لم يذكر أحمد بن حنبل معهم فقيل له في ذلك ، فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ؛ فاشتدّ ذلك على الحنابلة ، وكانوا ببغداد لا يُحصَون كثرةً [٣].

وقال الذّهبي -رحمه الله- : " وقد وقع بين ابن جرير وبين أبي داود ، وكان كل منهما لا ينصف الآخر ، وكانت الحنابلة حزب أبي بكر بن أبي داود ؛ فكثروا وشغبوا على ابن جرير ، وناله أذى ولزم بيته ، - نعوذ بالله من الهوى - " [٤].

-٨ - مذهبه الفقهي :

سبق الحديث عن شيوخ الطبري في الفقه [٥]، ويتبين من ذكر أشهرهم ، أن الإمام الطبري -رحمه الله- تعلم الفقه على أغلب المذاهب الفقهية في عصره وهي :

المذهب الشافعي [٦] قال أبو جعفر الطبري : " أظهرت مذهب الشافعي واقتديت به ببغداد

---

(١) هو أبو بكر ، محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري ، أبوه صاحب المذهب الظاهري ، فقيه أديب مناظر ، له: كتاب الزهرة في الآداب والشعر ، وآخر في الفرائض ، وغيرها ، وله بصر تام في الحديث ، وبأقوال الصحابة ، مجتهد لا يقلّد أحداً ،توفي سنة سبع وتسعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (٢٥٦/٥) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٩/١٣).

(٢) انظر البداية والنهاية (١٤٦/٦-١٤٧) لابن كثير .

(٣) انظر الكامل (١٧١/٦) لابن الأثير .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/١٤) .

(٥) انظر صفحة (١٦) .

(٦) انظر معجم الأدباء (٥٣/١٨) ، وقد نسبه أبو عاصم العيادي الشافعي إلى أنه من أفراد علمائهم . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٧٩/١) .

عشر سنين ، وتلقاه مني ابن بشار الأحول [١] – أستاذ ابن سريج –" [٢].

وكذا درس المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الظاهري على داود صاحب المذهب [٣].

ومن بعد تلك الدراسات الواسعة للمذاهب الفقهية ، اختار الإمام ابن جرير لنفسه، مذهباً في الفقه [٤] ، نُسِبَ إليه وعُرِفَ بَعْدُ بالمذهب الجريري .

قال هارون : " فلما اتّسع علمه أداه اجتهاده وبحثه ، إلى ما اختار في كتبه ." [٥]

وقد اشتهر أبو الفرج المعافى بن زكريا ، المتوفى سنة تسعين وثلاثمائة هجرية ، بتمذهبه على كتب الطبري وحفظها .[٦]

وممن تمذهب على المذهب الجريري أيضاً : علي بن عبد العزيز بن محمد الدولابي ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن أبي الثلج الكاتب ، وأبو القاسم بن العرّاد ، وأبو الحسن أحمد بن يحيى بن علي

---

(١) هو تلميذه عثمان بن بشار الأنماطي ، شيخ الشافعية ، المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائتين . انظر سير أعلام النبلاء (٤٢٩/١٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٣/٣) . وابن سريج هو : أبو العباس ، أحمد بن عمر ابن سريج البغدادي القاضي ، له مصنفات منها : شرح المذهب ، والرد على ابن داود في إبطال القياس ، ولد سنة بضع وأربعين ومائتين ، وتفقه على ابن بشار الأنماطي ، الذي أخذ فقه الشافعي عن ابن جرير الطبري ، توفي سنة ست وثلاثمائة، وقيل غير ذلك . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢٥١/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠١/١٤) ، والمنتظم (١٤٩/٦) ، والفتح المبين (١٦٥/١) .

(٣) هو أبو سليمان ، داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، الظاهري البغدادي ، قيل : ولد بالكوفة سنة مائتين ، وكان بصيراً بالفقه عالماً بالقرآن حافظاً للأثر ، وصنف التصانيف ، وتوفي ببغداد سنة سبعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (٣٦٩/٨) ، وسير أعلام النبلاء (٩٧/١٣) .

(٤) انظر طبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٨٣) ، وانظر معجم المؤلفين (١٤٩/٩) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) .

(٦) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) ، هو المعافى بن زكريا بن يحيى بن طرارا أو طرار ، الجريري النهرواني القاضي ، ولد سنة ثلاث أو خمس وثلاثمائة ، وتمذهب على كتب الطبري وحفظها ، وله مصنفات منها : تفسير في ست مجلدات ، والجليس والأنيس . انظر وفيات الأعيان (٢٢٣/٥) ، وبغية الوعاة (٢٩٣/٢) ، والأعلام (١٦٩/٨) .

المنجّم، وقد ألف كتباً في نصرة مذهب الطبري ، وأبو إسحاق إبراهيم بن حبيب السقطي ، وغيرهم[(١)].

ولكن لم يكتب لهذا المذهب البقاء ؛ ولا شك أن للتلاميذ دوراً كبيراً في نشر مذهب شيخهم، كما قال الشافعي –رحمه الله– : " الليث [(٢)] أفقه من مالك ، إلا أنه ضيّعه أصحابه " [(٣)] ، وفي رواية عنه : " إلا أن أصحابه لم يقوموا به "[(٤)] .

قال الذهبي –رحمه الله– : " اشتهر مذهب الأوزاعي [(٥)] مدّةً ، وتلاشى أصحابه وتفانوا ، وكذلك مذهب سفيان[(٦)] وغيره...وانقطع أتباع أبي ثور [(٧)]بعد الثلاثمائة ، وأصحاب داود إلا القليل ، وبقي مذهب ابن جرير إلى ما بعد الأربعمائة " [(٨)] . – والله أعلم وأحكم – .

---

(١) انظر الفهرست صفحة (٢٩٢) بتصرف .

(٢) هو أبو الحارث ، الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم المصري ، ولد بمصر ، سنة أربع وتسعين ، الإمام البارع من تابعي التابعين ، كان فقيه مصر ورئيسها وكل يرجع إليه ، أجمع العلماء على جلالته وعلو مرتبته في الفقه والحديث ، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٧٤/٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٣٦/٨)، وتهذيب التهذيب (٤٨١/٣) ، وحسن المحاضرة (٣٠١/١) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٧٤/٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء (١٥٦/٨) .

(٥) هو أبو عمرو ، عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد الأوزاعي الحافظ ، والأوزاع محلة بدمشق ، ولد سنة ثمان وثمانين كان له مذهب مستقلّ ، عمل به فقهاء الشام والأندلس فترة ثم فني ، توفي ببيروت مرابطاً ، سنة سبع وخمسين ومائة ، وقيل غير ذلك. انظر سير أعلام النبلاء (١٠٧/٧) ، وتهذيب التهذيب (٥٣٧/٢) .

(٦) هو أبو عبد الله ، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، ولد سنة سبع وتسعين ، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وعلمه ، له تفسير مشهور رواه عنه أبو حذيفة النهدي ، وتوفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة . انظر تهذيب التهذيب (٥٦/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٢٩/٧) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٨٦/١) .

(٧) هو أبو ثور ، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي ، ولد في حدود سبعين ومائة ، إمام مجتهد ، كان من أهل الرأي ، ثم رجع إلى الحديث لمّا حضر إلى الشافعي ، له كتاب : أحكام القرآن ، وتوفي ببغداد سنة أربعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (٦٥/٦) ، وسير أعلام النبلاء (٧٢/١٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٧/١) .

(٨) سير أعلام النبلاء (٩٢/٨) .

٩- صفاته الخِلْقية والخُلُقية :

أ – من صفاته الخِلْقية :

أنه كان أسمر مائلاً إلى الأدمة ، أعين نحيف الجسم ، مديد القامة ، كبير اللحية ، لم يغير شيبه، وكان السواد في رأسه ولحيته كثيراً (١).

ب – ومن صفاته الخُلُقية ما يلي :

الزهد ، والقناعة ، والصبر على الأذى في الدعوة :

قال الفرغاني –رحمه الله– : " كان محمد ابن جرير لا تأخذه في الله لومة لائم ، مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات ، من جاهل ، وحاسد ، وملحد ، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه ، وزهده في الدنيا ، ورفضه لها ، وقناعته بما كان يرد عليه من حصة خلفها له أبوه بطَبَرِسْتان يسيرة ." (٢) .

وقال أيضا : " وكان عالماً زاهداً ورعاً فاضلاً..." (٣).

وقال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري –رحمه الله– : " وكان فيه من الزهد ، والورع ، والخشوع ، والأمانة ، وتصفية الأعمال ، وصدق النية ، وحقائق الأفعال ، ما دلّ عليه كتابُه في آداب النفوس " (٤).

وقال ابن كثير –رحمه الله– : " وكان من العبادة ، والزهد ، والورع ، والقيام في الحق ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم " (٥).

وكان لا يسأل ولو احتاج : قال أبو جعفر : " أبطأت عني نفقة والدي ، واضطررت إلى أن

---

(١) تاريخ بغداد (١٦٦/٢) ، وطبقات الشافعية الكبرى (١٢٦/٣) ، وانظر معجم الأدباء (٩١/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) ، وانظر طبقات الشافعية الكبرى (١٢٥/٣) .

(٣) طبقات المفسرين للداوودي (١١٤/٢) .

(٤) معجم الأدباء (٦٠/١٨) .

(٥) البداية والنهاية (١٤٦/٦) .

فتقْت كُمَّي القميص فبعتهما ." [١]

وممّا يدلّ على بعده عن السلاطين : أنه لما تقلّد الخاقانيُّ [٢] الوزارةَ ، وجّه إليه بمالٍ كـثيرٍ ، فأبى أن يقبله ، فعرض عليه القضاء فامتنع ، فعاتبه أصحابه ؛ وقالوا له : لك في هذا ثواب ، وتحيي سنّة قد درست ، وطمعوا أن يقبل ولاية المظالم ، فانتهرهم ، وقال : قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه ، فانصرفوا خجلين [٣] .

الأخلاق العالية والجدّ في جميع الأحوال : قال ياقوت :"وكان متوقِّفاً عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ، ولا يؤثرها إلى أن مات ، وكان يحب الجدّ في جميع أحواله "[٤].

حسن المظهر وطيب العشرة : قال عبد العزيز بن محمد : " وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره ، نظيفاً في باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقِّداً لأحوال أصحابه ، مهذَّباً في جميع أحواله، جميل الأدب في مأكله وملبسه ، وما يخصّه في أحوال نفسه،منبسطاً مع إخوانه، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وربما جيء بين يديه بشيء من الفاكهة ، فيجري في ذلك المعنى ، ما لا يخرج من العلم والفقه والمسائل، حتى يكون كأجدِّ جدٍّ ، وأحسنِ علم "[٥].

العزوف عن الزواج : وإن لم يكن محمدة – إذ الزواج سنة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[الرعد: ٣٨] –، بل ذكرت عزوفه عن الزواج ؛ قصداً لمعرفة أحوال الإمام ، فقد قال عن نفسه : " وما حللت سراويلي على حرام ولا حلال قطّ[٦] .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١٢٥/٣) .

(٢) هو أبو علي ، محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، تولى الوزارة زمن المقتدر سنة تسع وتسعين ومائتين، وعزل سنة ثلاثمائة . انظر الكامل (١٣٩/٦و١٤١) .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢٧٥/١٤) .

(٤) معجم الأدباء (١٨/ ٧٨-٧٩) .

(٥) معجم الأدباء (٨٦/١٨) .

(٦) معجم الأدباء (٥٥/١٨) .

وقال مسلمة بن قاسم : " كان حصوراً [١] لا يقرب النساء ." [٢]

-١٠ – وفاته ، ورثاؤه :

أ – وفاته : توفي على الأشهر : لأربع بقين ، أو ليومين بقيا من شوال ، سنة عشر وثلاثمائة[٣]+

وقيل : مات ببغداد سنة عشر وثلاثمائة ، أو إحدى عشرة ، أو ست عشرة .[٤]

وقال ابن كثير : وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين .[٥] وقال الذهبي : وله ست وثمانون وثمانون سنة [٦].

ب – رثاؤه : رثاه خلق كثير من أهل الدين ، والأدب ،كما هو حال مشاعر المسلمين ، عند فقد علمائهم الأفذاذ ، الذين وهبوا أرواحهم ومهجهم ، في تعليم المسلمين ونصحهم :

ومن ذلك قول ابن الأعرابي [٧]، في مرثية له طويلة :

حَدَثٌ مُفظِعٌ وخَطْبٌ جليْل ... دَقَّ عن مثله اصطبار الصّبورِ

قَـــام ناعي العلومِ أجمعوا لّما ... قـــام ناعي محمدِ بنِ جريرِ .

---

(١) الحصور : هو من لا يأتي النساء وهو قادر ، أو من لا يشتهيهن ، أو منع منهن ، أو هو مجبوب . انظر ترتيـــب القـــاموس المحيط (٦٥٣/١) .

(٢) لسان الميزان (١٠٢/٥) .

(٣) تاريخ بغداد (٢/ ١٦٦) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٤) .

(٤) انظر معجم الأدباء (٩٤/١٨) .

(٥) انظر البداية والنهاية (١٤٦/٦) .

(٦) انظر دول الإسلام (١٣٧/١) .

(٧) هو أبو سعيد ، أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي ، ولد سنة نيِّف وأربعين ومائتين ، محدث حافظ عابد صوفي ، صـــحب الجنيد ، صدوق له أوهام ، له : طبقات النساك ، وتاريخ البصرة ، توفي سنة أربعين وثلاثمائة ، وله أربع وتسعون ســـنة . انظر سير أعلام النبلاء (٤٠٧/١٥) ، ولسان الميزان (٣٠٨/١) ، وشذرات الذهب (٣٥٤/٢) .

وقال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد [١] في قصيدة طويلة :

لا يأمنُ العجزَ والتقصيرَ مادحُه ولا يَخافُ على الإطنابِ تكذيبَا .

ودّتْ بقاعُ بلاد الله لو جُعِلتْ قبراً له فحبَاها جسمُـــــه طيبَا .

كنتَ المقوّم من زيغٍ ومن ظلعٍ[٢] وفاكَ نصحاً وتسديداً وتأديبَا .

وكنتَ جامعَ أخلاقٍ مطهّرةٍ مهذّباً من قرافِ الجهلِ تهذيبا .[٣]

رحم الله الإمام محمد بن جرير الطبري ، وأسكنه فسيح جناته ، ونفعنا بعلومه ومؤلفاته . آمين .

الثاني : التعريف بتفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن :

إنّ الدخول إلى علم التفسير ، ليس بالأمر السهل الهيّن ؛ لأنه إرادة وقصد توضيح مـــراد الله – عز وجل – من كلامه ، فالمفسر بحاجة إلى جهد كبير في الوصول إلى المراد ، خاصة إذا أراد تفسير القرآن كاملاً ، ولكن الله – عز وجل – حبا الإمام ابن جرير من عطائه ، ما جعله قدوة وعمدة لمـــن بعده ، في ميزاته التي امتاز بها عن غيره .

وسيكون الحديث عن جامع البيان هنا ، منقسماً باعتبار الزمن إلى زمنين :

١- ما قبل خروج جامع البيان ، إلى الانتهاء منه .

٢- ما بعد خروج جامع البيان ، إلى وصوله المطابع .

---

(١) هو أبو بكر ، محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي ، ولد سنة ثلاث وعشرين ومـــائتين ، إمـــام في الأدب والنحـــو واللغة، من مصنفاته : الجمهرة في اللغة ، وأدب الكاتب ، عاش ثمان وتسعين سنة ، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . انظر إنباه الرواة للقفطي (٩٢/٣) ، وشذرات الذهب (٢٨٩/٢) .

(٢) الظالع : المتهم . انظر ترتيب القاموس المحيط (١٢٤/٣) .

(٣) انظر تاريخ بغداد (١٦٦/٢-١٦٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٠/١٤-٢٨٢) ، وديوان ابن دريـــد (٣٨-٤٠) والأبيـــات مختارة من المرثية على الترتيب .

-١- ما قبل خروج جامع البيان ، إلى الانتهاء منه :

أ – التفكير في التفسير منذ الصغر:

ليحصل الإبداع والإتقان لشيء ما ، فلابد من وجود رغبة وميل إليه ، وكذلك الميل إلى هذا الفن أو ذاك ؛ لقد كانت رغبة وميل ابن جرير إلى تفسير القرآن قديمة ، يدل عليها قوله : " حدثتني به نفسي وأنا صغير " (١).

ب – الشعور بضرورة التفسير الملحة :

ويؤكد هذه الرغبة العارمة والإرادة المحببة إليه : معرفته بثمرة القرآن والمقصود من إنـــزاله ، وهو التدبّر ، -قال تعالى- : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩] فأبو جعفر يقول : " إني لأعجب ممن قرأ القرآن و لم يعلم تأويله ، كيف يلتذّ بقرائته ؟ ! " (٢).

ج–الاستخارة قبل الإقدام :

من سنن الرسول – ﷺ – الاستخارة ، حال الهمِّ بالأمر أياً كان ، وقد كان الـــنبي – ﷺ – يعلم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن ، فما بالك بأمر التفسير، قال أبو جعفر : " استخرت الله – تعالى – في عمل كتاب التفسير ، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين ، قبـــل أن أعمله فأعانني " (٣).

د – الشورى مع أهل الشأن :

ومن تربية أبي جعفر لتلاميذه على تطبيق الشورى ، أنه قال لهم : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبـــل تمامـــه ، فأخذوه في نحو ثلاثة آلاف ورقة . -ومثل ذلك حصل في كتاب التاريخ- ؛ فقال : إنّا لله ! ماتـــت

---

(١) معجم الأدباء (١٨/٦٢) .

(٢) معجم الأدباء (١٨/٦٣) .

(٣) معجم الأدباء (١٨/٦٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٤) .

الهمم!!.[(١)]

وفي هذا فائدة للمعلِّم : أن يراعي حال طلابه ، فيعرف ما يناسبهم ، وما تسمح به قدرتهم ؛ وإن كان مرغوبهم أدنى منـــزلة ، ويبيِّن لهم خطأهم .

وقوله : إنّا لله !ماتت الهمم ! ! .أصبحت عبارة مشهورة عن الإمام — رحمه الله- ولا أدري ما حال هِمَمِنا إذن في هذا الزمن ، الذي كثرت فيه الملهيات والمغريات ، إلا إن تكون الهمم قد دفنت إلا من رحم الله ، وقليل ما هم .— والله المستعان – .

هـــ- مراحل كتابة تفسير جامع البيان :

لقد كانت دروس تفسير جامع البيان كلّها إملاءً في فترتين :

الفترة الأولى : ذكرها أبو بكر بن كامل فقال : أملى علينا من كتاب التفسير ، مائة وخمسين آية — الجزء الأول من القرآن ، وقد حواه حالياً المجلد الأول من الكتاب – ، ثم خرج بعد ذلـــك إلى آخر القرآن ، فقرأه علينا ، وذلك سنة سبعين ومائتين .[(٢)]

والفترة الثانية : ذكرها ابن بالويه ، لما سأله أبو بكر بن خزيمة فقال : بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير ؟ قال : نعم ، كتبنا التفسير عنه إملاء ، قال : كله ؟ قال: نعم ، قال : في أي سنة؟ قال : من سنة ثلاث وثمانين ، إلى سنة تسعين ومائتين.[(٣)] وهذه الفترة استغرقت سبع سنين .

ثم بعد الإملاء كانت القراءة مما أملي ، ففي أول جامع البيان قرئ على أبي جعفر محمد بـــن جرير الطبري في سنة ست وثلاثمائة .[(٤)]

وقد تبيّن من مخطوطات التفسير : أنه كان رواية عن بعض تلامذة الإمام الطبري —رحمه الله،

(١) انظر معجم الأدباء (٤٢/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٤/١٤) .
(٢) معجم الأدباء (٦٢/١٨) .
(٣) انظر تاريخ بغداد (١٦٤/٢) ، ومعجم الأدباء (٤٢/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) ، والطبري ومنهجه في التفسير صفحة (٦٦) للدكتور محمد بن الشريف .
(٤) انظر جامع البيان (٢٥/١) ، وتحقيق شاكر (٣/١) .

فقد كان أوله رواية عن أبي محمد الفرغاني ، وذلك مذكور أول مرة عند الآية الخامسة والعشرين بعد المائتين من البقرة [١]، وفي أول آل عمران وجد نص ، أخبرنا أبو جعفر...[٢] فيبدو أنه من قول الفرغاني ، ثم جاءت رواية تلميذ آخر هو : أبو بكر محمد بن داود بن سليمان ، وذلك عند الآية الثامنة والستين من آل عمران [٣] و لم يجئ بعد ذلك في تحقيق أحمد ومحمود شاكر غير هذين –والله أعلم– .

–٢ – ما بعد خروج جامع البيان :

أ – وقع كتاب تفسير ابن جرير –رحمه الله– من قلوب العلماء موقعه ، فقالوا فيه المديح ، والثناء ، ومنه :

قول أبي بكر محمد بن خزيمة : " لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره ، وما أعلم على ظهر الأرض أعلم من ابن جرير ." [٤]

وقال الفرغاني في تاريخه : " فتمّ من كتب ابن جرير كتاب : تفسير القرآن ، وجوّده وبين فيه أحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله وغريبه ، ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، وإعراب حروفه ، والكلام على الملحدين فيه ، والقصص وأخبار الأمة ، والقيامة ، وغير ذلك ، مما حواه من الحكم والعجائب ، كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة وإلى أبي جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب ، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد ، عجيب ، مستقصى ، لفعل ." [٥]

وقال ابن النديم : " كتاب التفسير لم يعمل أحسن منه ." [٦]

---

(١) انظر تحقيق شاكر في جامع البيان (٤٥٢/٤) ، وتكرّر في (٤٩٥/٤و٥٣٩) ، و(٩٥/٥و٢٤٠و٣٢٣) .

(٢) جامع البيان تحقيق شاكر (١٤٩/٦) .

(٣) انظر جامع البيان (٤٩٦/٦) و(٢٣/٧و١٥٤و٢٨١و٣٨٤).

(٤) انظر تاريخ بغداد (١٦٤/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٣/١٤) ، ومعجم الأدباء (٤٢/١٨-٤٣) .

(٥) طبقات المفسرين للداوودي (١١١/٢) .

(٦) الفهرست صفحة (٢٩٢) .

وقال أبو حامد الإسفراييني –رحمه الله– [١] : " لو سافر رجل إلى الصين ، حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير ، لم يكن ذلك كثيراً ." [٢]

وقال ابن عطية –رحمه الله– [٣] : " إن محمد ابن جرير الطبري –رحمه الله– جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرّب البعيد ، وشفى في الإسناد ".[٤]

وقال ابن تيمية –رحمه الله– [٥] : " وأما التفاسير التي في أيدي الناس ، فأصحها : تفسير ابن جرير الطبري ؛ فإنه يذكر مقالات السلف ، بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين" [٦].

وقال أيضاً : " وهو من أجلِّ التفاسير المأثورة ، وأعظمها قدراً " [٧].

---

(١) هو أبو حامد ، أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني ، نسبة لبلد بخراسان ، ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وهو شيخ الشافعية ببغداد ، من مصنفاته : تعليق على شرح المزني في نحو خمسين مجلداً ، وكتاب في أصول الفقه ، توفي ببغداد سنة ست وأربعمائة . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢٠٨/٢) ، ووفيات الأعيان (٧٢/١) ، وسير أعلام النبلاء (١٩٣/١٧) ، والفتح المبين (٢٢٤/١) .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢٧٢/١٤) ، ومعجم الأدباء (٤٢/١٨) .

(٣) هو أبو محمد ، عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي القاضي ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، كان فقيهاً عارفاً بالتفسير والحديث واللغة والنحو والأدب ، له : تفسير المحرر الوجيز ، وكتاب جمع فيه مروياته وأسماء شيوخه، وتوفي بالرقة سنة ست وأربعين وخمسمائة ، وقيل غير ذلك . انظر الديباج المذهب (٥٧/٢) وشجرة النور الزكية (١٢٩)، وبغية الوعاة (٧٣/٢) .

(٤) المحرر الوجيز (٤٢/١) .

(٥) هو شيخ الإسلام ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ثم الدمشقي ، ولد سنة إحدى وستين وستمائة ، إمام أهل السنة في زمانه ، مقارع أهل الكتاب والزنادقة والمبتدعة ، مجاهد التتار ، شيخ الإسلام حقا ، مجدِّد في علوم الدين، مجتهد مطلق ، له مصنفات كثيرة منها : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ومنهاج السنة ، وفتاوى ورسائل كثيرة ، توفي بسجن القلعة بدمشق ، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة . انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٣٨١/٢) ، والبداية والنهاية (١٤١/١٤) ، وكتاب المقفّى الكبير للمقريزي (٤٥٤/١) ، وشذرات الذهب(٨٠/٦) .

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٨٥) جمع : الشيخ عبد الرحمن بن قاسم –رحمه الله – .

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٦١/١٣) .

وقال ابن كثير –رحمه الله–: وله التفسير الكامل ، الذي لا يوجد له نظير [(١)].

وقال السيوطي –رحمه الله– [(٢)] : " وله التصانيف العظيمة منها تفسير القرآن ، وهو أجلّ التفاسير ، لم يؤلف مثله ؛ كما ذكره العلماء قاطبة منهم النووي في تهذيبه ؛ لأنه جمع فيه بين الرواية والدراية ، و لم يشاركه في ذلك أحد ، لا قبله ولا بعده " [(٣)].

ب – منهج الإمام ابن جرير في تفسيره جامع البيان :

يعتبر تفسير جامع البيان من أشهر التفاسير ، وأعظمها ، وأقدمها ، وأقومها ؛ امتاز تفسير جامع البيان عن غيره بأوليتين :

الأولى : الأولية الزمانية ؛ لأنه أقدم تفسير شامل للقرآن يصل إلينا [(٤)].

والثانية : الأولية الفنية الصناعية ؛ في تميّز وحسن العرض ، والترتيب [(٥)].

وقد أُلّفت في منهج هذا التفسير مؤلفات ، منها :

---

(١) البداية والنهاية (١٤٥/٦) .

(٢) هو جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن الكمال الخضيري –نسبة لمحلة في بغداد –السيوطي –بلد أسيوط بمصر– الشافعي ، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وكان يلقب بابن الكتب ، مفسر محدث فقيه نحوي لغوي وله شعر، بلغت مؤلفاته قريباً من ألف ، منها : الإتقان ، والدر المنثور ، وفسّر من الفاتحة إلى الكهف ، مكملاً تفسير جلال الدين المحلي ؛ فسمِّي تفسير الجلالين ، تفرغ بعد الأربعين للعبادة والتأليف ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة. انظر حسن المحاضرة له (٣٣٥/١) ، وطبقات الداوودي (٨٠/٢)،والضوء اللامع (٦٥/٤)،والبدر الطالع (٣٢٨/١) .

(٣) طبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٨٢) ، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٨٧/١) .

(٤) ذكر الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور : أن يحيى بن سلام التميمي البصري الأفريقي المتوفى سنة مائتين ، ألف تفسيراً جمع فيه الآثار ، ونقدها ، واختار منها ، واهتم فيه باللغة ، والإعراب ، وذكر القراءات ، وهو في ثلاث مجلدات ضخام ، ويعتبر الحلقة المفقودة في مراحل تدوين التفسير بين : القرن الأول والثالث ، وأن ابن الجزري ، وأبا عمرو الداني شهدا بأنه: لم يتقدمه مثله ، واعتذر ابن عاشور لمن أهمل ذكره بالأقدمية بذكر جامع البيان ، أنه لا يوجد إلا نسخة واحدة من التفسير ؛ ولكن أخبر عنها بما يقرب من سبعين سنة . انظر التفسير ورجاله (٤١–٤٤). ولو قيل إن جامع البيان أقدم ؛ لأنه أوسع التفاسير الواصلة إلينا لكان له وجه –والله أعلم– .

(٥) انظر التفسير والمفسرون (٢٠٩/١–٢١٠) .

- كتاب الطبري ومنهجه في التفسير ، للدكتور : محمود بن الشريف .
- وكتاب ابن جرير الطبري ، ومنهجه في التفسير ، للدكتور : محمد بكر إسماعيل .
- وبحث الإمام الطبري ، لعبد الله آل شاكر ، بإشراف الأستاذ : مناع القطان –رحمه الله–، وغيرها .

ولكن أذكر معالم مختصرة من منهجه :

- المقدّمة : لقد قدّم الإمام ابن جرير للتفسير ، بمسائل من علوم القرآن ، وسار على هذه الطريقة كثير من المفسرين ، وكان فيها :
- وجه كون القرآن معجزاً ، والحكمة من كونه عربياً .
- وهل في القرآن لفظ أعجمي ؟ .
- وما اللغة التي نـــزل بها القرآن من لغات العرب ؟ .
- ومعنى الأحرف السّبعة ، التي نـــزل بها القرآن . وما يتعلّق بها .
- ومن أي طريقٍ نصل إلى التأويل .
- وذكر الخلاف في جواز التفسير بالرأي .
- ذكر بعض الآثار في الحض على تعلم التفسير ، ومن كان يفسره من الصحابة .
- وذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن .
- ثم ذكر من مُدِح بالتفسير ومن ذُمَّ .
- وختم المقدمة : بمعنى القرآن ، والسورة ، والآية .[1]
- أما طريقته في تفسير القرآن ، فإن له نهجاً متميّزاً في جامع البيان ، ومن ذلك :
- أنه يبدأ تفسيره للآية بقوله : القول في تأويل –قوله تعالى– :....ويعني بالتأويل التفسير .
- ثم يفسر الآية تفسيراً إجمالياً .
- وهو يعتمد على السياق "ويفصح ببيانه عن المعنى المراد معتمداً ربط السياق والعود بمراجع الكلام إلى

(١) مقدمة جامع البيان (٢٥-٧٣) ، وتحقيق شاكر (١/٣-١٦٠) ، ومحتويات المقدمة مذكورة بمعناها على الترتيب .

معاقدها الواردة في مواضيع أخرى من القرآن الكريم"[(١)].

- ثم يستشهد على ذلك برواياته المسندة إلى الصحابة والتابعين .

- وإذا تعددت الأقوال في الآية : فإنه يعرض القول الأول ، ويذكر قائليه ، ثم الأقوال الأخرى كذلك، ولا يسكت عنها غالباً ، بل يوجهها ويرجح بينها ، بالحجج الشرعية ، واللغوية ، والعقلية .

- وقد يذكر المذاهب الفقهية ، وأدلتها ، وقد تصل إلى بعض مذهبه من خلال تفسيره .

- وكان معتنياً بأقوال السلف ، من الصحابة والتابعين ، وراداًّ على من خالفهم .

- وقد كان لابن جرير مذهب في الإجماع ، يوجب الرجوع إليه ، وينكر على مخالفه [(٢)].

- وكذلك كان له مذهب في الترجيح بين القراءات ، ووصف بعضها بالشذوذ ، سيأتي بحث شيء منه - إن شاء الله - ، وقد كان من كبار علماء القراءات ، وألف فيها كتاباً .

- وكان في تفسيره يذكر الأخبار الإسرائيلية ، ويفصِّل في ذكرها ، وقد ينقدها أحياناً في سندها أو متنها .

- وإذا كان التفصيل لا فائدة منه في تأويل الآية ، يذكر الروايات التي عنده ، ثم يعقب عليها : بأنه غير نافع العلم بها ، ولا ضارٌّ الجهل بها...[(٣)].

- وكان يجمع بين علم الرواية والدراية [(٤)].

- ويذكر الأقوال بأسانيدها ، ويرتّبها مع الأقوال المماثلة لها ، ثم يقارن ويرجِّح .

- الاعتناء بالدليل النقلي ، والعقلي ، في الترجيح والتضعيف .

- العناية بالمفردات اللغوية الأصلية ، والمعاني المنقولة إليها ، مع بيان مناسبة النقل ، ويذكر الشعر الذي

---

(١) التفسير ورجاله صفحة (٥١) للأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور .

(٢) ومنهجه في الإجماع : عدم الاعتداد بمخالفة الواحد والاثنين ، وليس الإجماع بعناه الاصطلاحي المشهور عند الأصوليين . انظر الإجماع في التفسير صفحة (١٣٩-١٤١) ، رسالة ماجستير في جامعة الإمام ، للشيخ : محمد بن عبد العزيز الخضيري ، ١٤١٦هـ .

(٣) انظر تفسير الآية (١١٤) من المائدة : ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ .

(٤) انظر في ذلك قول السيوطي -رحمه الله- ، صفحة (٥٧) .

يدل على استعمال اللفظة في المعنى الذي حمله عليه .

- يذكر ما يتعلق بالآية من إعراب يقرّب إلى التأويل ، وقد يفصِّل في الإعراب عند مدرستي البصرة والكوفة ؛ مما جعله مرجعاً مهمّاً له مكانته المرموقة .

- نصره مذهب السلف ، والدفاع عنه ، والرد على المبتدعة ،في كل موضع من كتابه .[١]

- أما أسلوب ابن جرير في تفسيره : فيحتاج إلى صبر وأناة لفهمه ، وتتبع دقيق لمعانيه ؛ ليسهل بعد ذلك فهمه ، يقول الأستاذ محمود شاكر في مقدمته : " كان يستوقفني في القراءة كثرة الفصول في عبارته ، وتباعد أطراف الجمل ، فلا يسلم لي المعنى ، حتى أعيد قراءة الفقرة منه ، مرتين أو ثلاثاً...ثم يقول : ولما راجعت كتب التفسير ، وجدت بعضهم ينقل عنه ، فينسب إليه ما لا أجده في كتابه ، فتبيّن لي أن سبب ذلك هو هذه الجمل ، التي شقّت علي قراءها ، يقرؤها القارئ ، فربما أخطأ مراد أبي جعفر ، وربما أصاب..." [٢].

ولنختم هذا العرض المختصر لمنهج ابن جرير ، بوصف الفرغاني في تاريخه ، يقول: "فتمّ من كتب ابن جرير ، كتاب تفسير القرآن ، وجوّده ، وبيَّن فيه أحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله ، وغريبه ، ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، وإعراب حروفه ، والكلام على الملحدين فيه ، والقصص ، وأخبار الأمة ، والقيامة ، وغير ذلك ، مما حواه من الحكم والعجائب ، كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة ، وإلى أبي جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم ، مفرد ، عجيب ، مستقصى ، لفعل"[٣].

لفعل"[٣].

ج – وصول الكتاب إلى المطابع الحديثة :

كان هذا التفسير يسمع ويقرأ عنه ، و لم يكن له الوجود ، إلا من زمن قريب ؛ حين وجد عند

(١) انظر التفسير والمفسرون (١/٢١٠-٢٢٠) ، والإمام الطبري ، لعبد الله آل شاكر صفحة (٥٩-٧٤) .

(٢) مقدمة تحقيق شاكر لجامع البيان صفحة (١١) الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

(٣) طبقات المفسرين للداوودي (٢/١١١) .

أمير حائل [١] ، وكانت نسخة كاملة ، وطبع أول مرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، ثم طبع طبعة مصححة سنة اثنتين وعشرين ، في ثلاثين جزءا . [٢]

ثم تتالت الطبعات فمنها : المطبعة الأميرية ببولاق ، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة، والطبعة الحلبية ، بعناية الأستاذ مصطفى السقا ، سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ثم طبع بدار المعارف ، بتحقيق الشيخين أحمد ومحمود شاكر ، في ستة عشر مجلداً ، من أول التفسير ، إلى الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم ، وذلك من سنة ١٣٧٤- ١٣٨٨هـ ، وهي متقنة النقول ، محسَّنة التخريج .

ثم طبع بدار الكتب العلمية ، سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وألف ، وهذه الطبعة والتي حققها الشيخان أحمد ومحمود شاكر ، كان عليهما العزو للمواضع المنقولة من تفسير ابن جرير -رحمه الله- .

فكم جمع هذا الكتاب من محاسن ! ، وكم حوى من أثر ! ، وكم طوى من فن ، رحم الله الإمام الفذ ، والعالم البارع ، ونفعنا بعلومه . آمين .

كانت هذه الوريقات نبذة مختصرة ، عن الإمام ابن جرير وتفسيره ، عسى أن تكون مرغّبة لاستزادة القارئ الكريم ، من التراجم الموسعة له . -والله الموفق- .

الثالث : دلالات الألفاظ على المعاني عند الأصوليين :

من الأمور المهمة جداً والتي لها تعلق بدلالة السياق ما يتعلق بدلالات الألفاظ ، ومرتبط كثيراً بأصول الفقه ؛ لأنهم أوسع من تكلموا عن هذه الدلالات ، وسأذكرها على وجه الاختصار [٣].

(١) وهو :حمود بن الرشيد . انظر مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٧٤) لشيخنا مناع القطّان -رحمه الله- .

(٢) انظر مذاهب التفسير الإسلامي صفحة (٨٦) ، للمستشرق : جولد تسيهر ، ترجمة علي حسن عبد القادر .

(٣) من بعض كتب أصول الفقه ، وانظر أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي ص ٢١٤- ٤٠٥ فقد عرضته باختصار شديد ، وتصرف يسير ، وقد أحلقت هذه الدلالات بالبحث بعد الانتهاء منه لأهميتها ، وقد أشار بها علي فضيلة الدكتور سعيد بن جمعة الفلاح وفقه الله في مناقشة الرسالة .

ولتصور الدلالات من البدايات : " اعلم أن الأمور منقسمة إلى : ما يدل على غيره وما لا يدل .

فأما ما يدل فينقسم إلى : ما يدل بذاته : كالأدلة العقلية ...

وما يدل بالوضع : وهو ينقسم : إلى صوت وغير صوت : كالإشارة والرمز.

والصوت ينقسم في دلالته إلى : مفيد وغير مفيد .

والمفيد كقولك : زيد قائم ، وزيد خرج راكباً .

وغير المفيد كقولك : زيد لا وعمرو في ، فإن هذا لا يحصل منه معنى ، وإن كان آحاد كلماته موضوعة للدلالة .

وقد اختلف في تسمية هذا كلاما : فمنهم من قال : هو كمقلوب رجل وزيد لجر وديز ، ومنهم من سماه كلاما ؛ لأن آحاده وضعت للإفادة .

والمفيد من الكلام ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف -كما في علم النحو- .

وهذا لا يكون مفيدا حتى يشتمل على :

اسمين أسند أحدهما إلى الآخر ، نحو : زيد أخوك ، والله ربك .

أو اسم أسند إلى فعل : نحو قولك : ضرب زيد ، وقام عمرو .

وأما الاسم والحرف : كقولك : زيد من وعمرو في ، فلا يفيد حتى تقول : من مضر ، وفي الدار .

وكذلك : ضرب قام ، لا يفيد ؛ إذ لم يتخلله اسم ، وكذلك : من في قد على .

والمركب من الاسم والفعل والحرف تركيبا مفيدا ينقسم إلى : مستقل بالإفادة من كل وجه ، وإلى ما لا يستقل بالإفادة إلا بقرينة ، وإلى ما يستقل بالإفادة من وجه دون وجه .

مثال الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[الإسراء: ٣٢] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] ، وذلك يسمى نصا ؛ لظهوره . والنص في السير هو الظهور فيه...

والنص ضربان : ضرب هو نص بلفظه ومنظومه كما ذكرناه ، وضرب هو نص بفحواه ومفهومه نحو قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء: ٧٧]

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ [الزلزلة: ٧] ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ ﴾ [آل عمران: ٧٥] فقد اتفق أهل اللغة على أن فهم ما فوق التأفيف من الضرب والشتم ، وما وراء الفتيل والذرة من المقدار الكثير ، أسبق إلى الفهم منه من نفس الذرة والفتيل والتأفيف .

ومن قال : إن هذا معلوم بالقياس ، فإن أراد أن المسكوت عنه عرف بالمنطوق فهو حق ، وإن أراد به أنه يحتاج فيه إلى تأمل أو يتطرق إليه احتمال فهو غلط .

وأما الذي لا يستقل إلا بقرينة فكقوله تعالى : ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[البقرة: ٢٣٧] وقوله : ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾[البقرة: ٢٢٨] وكل لفظ مشترك ومبهم ، كقوله : رأيت أسدا وحمارا وثورا،إذا أرد شجاعا وبليدا ، فإنه لا يستقل بالدلالة على مقصوده إلا بقرينة .

وأما الذي يستقل بوجه دون وجه فكقوله تعالى : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٤١] وكقوله : ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] فإن الإيتاء ويوم الحصاد معلوم ، ومقدار ما يؤتى غير معلوم ، والقتال وأهل الكتاب معلوم ، وقدر الجزية مجهول ، فخرج من هذا : أن اللفظ المفيد بالإضافة إلى مدلوله : إما أن لا يتطرق إليه احتمال فيسمى نصا ، أو يتعارض فيه الاحتمالان من غير ترجيح فيسمى مجملا ومبهما ، أو يترجح أحد احتمالاته على الآخر فيسمى بالإضافة إلى الاحتمال الأرجح ظاهرا ، وبالإضافة إلى الاحتمال البعيد مؤولا ، فاللفظ المفيد إما نص أو ظاهر أو مؤول."[(١)] وإليك بيان دلالات الألفاظ على وجه مبسّط :

لقد اهتم علماء الأصول بالألفاظ ، من جهتين :

من حيث تقسيماتها وأنواعها . ومن حيث دلالتها على المعاني . [(٢)]

---

(١) المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي ومعه كتاب فواتح الرحموت لعبد العلي الأنصاري ، تقديم وضبط الشيخ إبراهيم رمضان ، طبع دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت (١/٦٧١-٦٧٤).

(٢) ذكر الدكتور نور الدين الخادمي أن الدلالات على ثلاثة أنواع :١-باعتبار وضعها لمعانيها : عام وخاص وأمر ونهي ومطلق ومقيد ومشترك ، ٢-وباعتبار وضوحها وخفائها : حقيقة ومجاز وواضح وخفي ، ٣-وباعتبار كيفيتها : منطوق ومفهوم. انظر تعليم علم الأصول ص ٣٣٢ .

وسبب ذلك : أن استنباط الأحكام الشرعية إنما يكون استفادتها من دلالات الألفاظ ، واستخراج هذه الدلالات من طريق الدلالة المباشرة ، أو الإشارة والإيماء .

ويذكر الأصوليون أن علماء أصول الفقه أحاطوا بما قرره علماء اللغة والنحو والتصريف ، وأضافوا عليه تفاصيل لا توجد عند غيرهم ، حتى من أهل اللغة أنفسهم ، حتى مع تعدد المؤلفات اللغوية ووفرتها .

فمن الموضوعات التي لها تعلق بدلالات ألفاظ الشرع : الأمر والنهي ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمنطوق والمفهوم ، والنص والظاهر والمجمل والمبين .

فتكلم الأصوليون عن هذه الدلالات حسب أهميتها :

فاهتم الأصوليون بالأمر والنهي : وهو أساس التكليف ، سواء أكان من باب الصراحة أو ما يدل عليها : فذكروا ألفاظ الأمر ، وما يصدق عليه من الألفاظ ، وبينوا المراد بالأمر ، وصيغه، وما يقتضيه من الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة ، وهل هو على الفور أو التكرار ، وإذا ما ذهب وقته فهل يسقط ؟ ، ونحو ذلك من التفاصيل وغيرها .

وتحدثوا عن النهي وتعريفه ، وصيغه وأساليبه ، وهل يقتضي التحريم أم الكراهة ؟، وهل يقتضي الفورية والاستمرار ، وهل النهي عن الشيء أمر بضده ، وحكم النهي بعد الأمر ، وهل يقتضي النهي الفساد ، وغير ذلك .

وتطرق الأصوليون للعام والخاص :فعرفوا العام ، وفرقوا بينه وبين المطلق ، وذكروا أقسام العام من حيث معرفة عمومه إلى عام لغة وعام عقلا ، وعام عرفا . وغير ذلك ، ثم يذكرون صيغ العموم ، وتحدثوا عن النكرة في سياق النفي هل هي عموم أم لا؟، وفصلوا في قوة دلالة العام هل هي قطعية أم ظنية ، وما العمل مع العام بعد تخصيصه هل هو حجة فيما بقي ؟

ثم عرف علماء الأصول الخاص بعد ذكر العام ، وما هو التخصيص ؟ وفرقوا بين التخصيص ونسخ حكم بعض أفراد العام ، وأركان التخصيص وشروطه ، وبينوا المخصصات المتصلة والمنفصلة ، فمن المتصلة الاستثناء والشرط والصفة والغاية والبدل ، وذكروا قواعد متعلقة بهذه المخصصات المتصلة في كل نوع ، ودرسوا المخصصات المنفصلة ومنها الحس والعقل والنص والقياس والإجماع والمفهوم

وغير ذلك ، ثم تحدثوا كذلك عن المطلق والمقيد ، وكذلك تحدثوا عن المنطوق والمفهوم ، وقد جرى علماء الأصول إلى تقسيم الدلالة إلى قسمين : دلالة منطوق ودلالة مفهوم ، ومنهم من قسمها إلى منظوم وغير منظوم:

فمن قسمها إلى منطوق ومفهوم :فقد عرفوا المنطوق بأنه المعنى المستفاد من صريح اللفظ ، أو : ما دل عليه اللفظ في محل النطق.

والمفهوم بعكسه : فهو ما دل عيه اللفظ في غير محل النطق أي : في مقدر خارج عن المنطوق به ، ومثال ذلك : دلالة قوله تعالى :﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تحريم الضرب والشتم، ودلالة قوله تعالى :﴿ مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾[النساء: ٢٥] على أن الأمة غير المؤمنة لا يصح نكاحها لمن لم يجد مهر الحرة .

ومن قسم الدلالات إلى منظوم وغير منظوم :

فكل دلالة يكون الدال فيها دل بالوضع اللغوي ، وهي تشتمل على دلالة المطابقة ودلالة التضمن.

والثانية : غير المنظوم : وهي دلالة الالتزام ، وهي دلالة اللفظ لا بصريح صيغته ووضعه ، ويشمل دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة ودلالة الإيماء ودلالة المفهوم :

١ – فدلالة الاقتضاء : هي دلالة اللفظ على معنى مسكوت عنه يجب تقديره لصدق الكلام أو لصحته شرعا أو عقلا ، والمعنى المدلول عليه بالاقتضاء يسمى المقتضَى[اسم مفعول] وهو ثلاثة أنواع، واضحة في التعريف . فمما يجب تقديره لصحة الكلام شرعا قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[البقرة: ١٨٤] فها هنا محذوف حتى يصبح الكلام شرعا وهو عبارة :"فأفطر" للاتفاق على أن من كان مريضا أو على سفر و لم يفطر فلا قضاء عليه ، ولو لم نقدر العبارة السابقة لوجب القضاء على المريض والمسافر حتى لو صاما ، و لم ينقل هذا إلا عن بعض الظاهرية ، وهذه الدلالة قد تسمى عند بعض الأصوليين دلالة الإضمار ، والمعنى المقدر يسمى المضمر أو المقتضَى .

واختلفوا في عموم المقتضى أو هو لا عموم له :

ففي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ [المائدة: ٣] قال الأولون : نقدر الانتفاع حتى يكون أعم ، وقال الآخرون : نقدر الأكل .

والأقرب أن يقدر ما دل عليه العرف هنا ، ففي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] فيحمل على ما دل عليه العرف : وهو تحريم الوطء ودواعيه من عقد أو غيره ، ولا يحمل على النظر واللمس بلا شهوة .

٢-ودلالة الإشارة : وهي المعنى اللازم من الكلام الذي لم يسق الكلام لبيانه ، مثل فهم جواز أن يصبح المسلم جنبا في رمضان ، من قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فإذا جاز له الجماع طوال الليل إلى الفجر ، جاز أن يطلع عليه الفجر وهو جنب ولا يفسد صومه بذلك .

٣-الإيماء : وهو فهم التعليل من ترتيب الحكم على الوصف المناسب ، مثاله قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] ، فهذا يدل على أن العلة السرقة ، لأن الله رتب الحكم بالفاء على وصف مناسب وهو السرقة ، وهذا يومئ إلى العلة وينبه عليها ؛ ولذا سماه بعضهم الإيماء أو التنبيه إلى العلة .

٤- المفهوم : وهو نوعان : مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة :

الأول : مفهوم الموافقة : وهو المعنى الثابت للمسكوت عنه الموافق لما ثبت للمنطوق؛ لكون المسكوت أولى بالحكم من المنطوق أو مساويا له .

ومثال المفهوم الأولى قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإنه يدل بطريق الأولى على تحريم الضرب والشتم .

ومثال المفهوم المساوي : قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا ﴾[النساء: ١٠] فإنه يدل على تحريم الأكل بمنطوقه ، وعلى تحريم كل ما فيه تفويت لمال اليتيم بمفهوم الموافقة المساوي ، فلا يجوز التصدق بمال اليتيم ولا إنفاقه في الجهاد ونحوه .

ومفهوم الموافقة حجة عند جميع الأئمة ، وخالف فيه الظاهرية ولا يلتفت إلى خلافهم .

ودلالة مفهوم الموافقة منه ما هو قطعي الدلالة ومنه ما هو ظني ، فالقطعي كما في المثالين آنفا، وقد يكون مظنونا أو ضعيفا :

فمثال المظنون : كما في قولهم :"إذا ردت شهادة الفاسق فالكافر من باب أولى"، وهذا مندرج تحت قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦] فهذا المفهوم ظني؛ لأنه لا يبعد أن ترد شهادة الفاسق لأنه متهم بالكذب، ولا ترد شهادة الكافر لأنه يحترز من الكذب ، والراجح رد شهادة الكافر .

ومثال الضعيف : قول الشافعية : تجب الكفارة في قتل العمد ؛ لوجوبها في قتل الخطأ من باب أولى ، وذلك لأن الكفارة وجبت في تقل الخطأ لقلة الجرم ، وأما القتل العمد فإن الكفارة لا تكفره ؛ لكونه جرما عظيما لا يكفره إلا القود .

الثاني : مفهوم المخالفة : ويسمى :"دليل الخطاب ":

وهو الاستدلال بتخصيص الشيء بالذكر على نفي الحكم المذكور في المنطوق عما عداه .

وسمي مخالفة ؛ لأن الحكم الذي يثبت للمسكوت نقيض للحكم المنطوق به مختلف عنه .

ومفهوم المخالفة ستة أنواع :

١-مفهوم الصفة : ويشمل ما هو أعم من النعت عند النحاة ، فيشمل النعت والحال والجار والمجرور والظرف والتمييز . مثاله : قوله – ﷺ- : " في سائمة الغنم إذا كانت أربعين ففيها شاة".[1]، فتخصيص السائمة بالذكر يدل على أن المعلوفة لا زكاة فيها .[2]

٢- مفهوم الشرط : مثاله حديث :"أعلى المرأة من غسل –يا رسول الله- إذا هي احتلمت؟

---

(١) رواه أبو داود حديث ١٥٦٧ ، وهو من كتاب أبي بكر رضي الله عنه لأنس رضي الله عنه ، وعليه خاتم النبي – ﷺ- ، وبنحوه في البخاري ١٤٥٤ .

(٢) هذا إذا لم تكن الغنم عروض تجارة ، وإنما هي للدر والنسل فقط ، فيشترط في زكاتها السوم أكثر السنة .

قال :"نعم إذا رأت الماء "[١]. فيفهم من هذا أنها إذا لم تر الماء فلا غسل عليها .

٣- مفهوم العدد : وهو ما يفهم من تخصيص العدد بالذكر ، أو ما يفهم من تعليق الحكم على عدد مخصوص . مثاله قوله تعالى :﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤] دل بمنطوقه على الثمانين، وبمفهومه على عدم إجزاء ما نقص عنها ، وعلى المنع من الزيادة عليها.والذي يظهر أن هذا النوع داخل في مفهوم الصفة ؛ لأن المقدار أحد صفات الشيء .

٤- مفهوم الغاية : وهو ما يفهم من مد الحكم إلى غاية بإحدى أدوات الغاية وهي (إلى ، وحتى واللام). مثاله قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾[البقرة: ١٨٧] منطوقه دال على وجوب استمرار الصيام من طلوع الفجر إلى الليل ، ومفهومه يدل على أن الليل لا يجوز صيامه ، فيبطل الوصال ، كما لو قال : لا تصوموا الليل .

٥- مفهوم التقسيم : وهو ما يفهم من تقسيم المحكوم عليه قسمين فأكثر ، وتخصيص كل منهما بحكم . مثاله قوله – ﷺ- :"الثيب أحق بنفسها ، والبكر تستأذن"[٢]. فمنطوقه واضح ، ومفهومه أن كل قسم يختص بحكمه ، ولا يشارك الآخر في حكمه ، فالثيب أحق بنفسها فتكون البكر ليست أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن يدل على أن الثيب لا تستأذن ؛ لأن الإذن منها لا يكفي بل لا بد من التصريح . والذي يظهر أيضا أن هذا النوع داخل في مفهوم الصفة (وقد سبق).

٦-مفهوم اللقب : وهو ما يفهم من تخصيص الاسم المجرد بالحكم من نفي الحكم عما عداه ، وسواء كان الاسم لإنسان أو حيوان ، اسم علم أم اسم جنس .مثاله قوله – ﷺ- :"لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل"[٣] . منطوقه ظاهر ، ومفهوم اللقب أن ما ليس ذهباً يجوز بيعه بمثله أو غيره من غير مماثلة.

حجية مفهوم المخالفة : بأنواعه الخمسة المتقدمة –دون السادس- حجة عند الجمهور ، مع

---

(١) البخاري ١٣٠ ، ومسلم ٣١٣ ، من حديث أم سليم رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم حديث ١٤٢١ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه البخاري ٢١٧٧ ، ومسلم ١٥٨٤ ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

اختلافهم في كل نوع من أنواعه.

واستدلوا على ذلك بأدلة منها : ١-قوله - ﷺ- : بعد نــزول قوله تعالى :﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[التوبة: ٨٠] : "لأزيدن على السبعين". أخرجه البخاري بنحو هذا اللفظ [١]. وجه الدلالة : أن النبي - ﷺ- فهم من النص على السبعين أن ما زاد عنها قد يكون حكمه مختلفا عن المقتصر على هذا العدد ، فوعد بالزيادة على السبعين ، لكنه نهي نهيا صريحا عن الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم .

٢-أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا من تخصيص الوصف بالذكر انتفاء الحكم عما خلا عنه ويدل لذلك وقائع ، منها :أ-ما روى يعلى بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب : ألم يقــل الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾[النساء: ١٠١] فقد أمن الناس؟ فقال : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله- ﷺ- فقال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فــاقبلوا صدقته". [٢]

ب-لما قال النبي - ﷺ-:"يقطع الصلاة الكلب الأسود"، قال عبد الله بن الصامت لأبي ذر : ما بال الأسود من الأحمر من الأصفر ؟ فقال : سألت رسول الله - ﷺ- كما سألتني فقال :"الكلب الأسود شيطان". [٣]

فهؤلاء من فصحاء العرب الذين نــزل القرآن بلغتهم وقد فهموا من تخصيص الحكم بوصف انتفاؤه عما لم يوجد فيه ذلك الوصف .

٣-أن النبي - ﷺ- سئل عما يلبس المحرم ، فأجاب بذكر ما لا يلبسه المحرم ، فقــال :"لا يلبس القميص ولا السراويلات ولا البرانس" [٤] .وجه الدلالة : أنه لولا أن تخصيص الممنوع بالــذكر

---

(١) انظر البخاري ٤٦٧٠ ، ولفظه : "وسأزيدن على السبعين" .

(٢) أخرجه مسلم ٦٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم ٥١٠ .

(٤) البخاري برقم ٣٤ ، ومسلم برقم ١١٧٧ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

يدل على إباحة ما عداه لما كان قول الرسول – ﷺ– جوابا لسؤالهم ؛ لأنهم سألوه عما يجوز لبسه أو يجب ، فأجاب بذكر ما لا يجوز لبسه ، فدل على أن ما عداه يجوز لبسه .

٤ – أن تخصيص الشيء بالذكر لا بد له من فائدة ، فإذا لم نعلم فائدة غير انتفاء الحكم عما عداه جعلنا التخصيص دالا على ذلك .

وذهب أكثر الحنفية إلى عدم حجية مفهوم المخالفة مطلقا ، واستدلوا بأدلة ، أهمها :

الأول : أن القرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بالنصوص التي فيها تعليق الحكم على وصف أو عدد أو غاية ، ولا سكون نفي الحكم عما سوى المذكور مرادا باتفاق الصحابة . ومن ذلك :

أ–قوله تعالى : ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ [النساء: ٢٣] ولا خلاف في تحريم الربيبة إن لم تكن في الحجر .

ب–قوله تعالى :﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[النساء: ١٠١] ولا خلاف في جواز القصر للمسافر وإن لم يكن خائفاً .

ج–قوله تعالى : ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾[النساء: ٢٠] ولا خلاف في أنه لو رغب طلاق المرأة و لم يرد الزواج بغيرها أنه داخل في النهي عن أخذ شيء من المهر ، ولو كان المفهوم حجة لما كان ذلك إلا لمن رغب الاستبدال بها .

د–قوله تعالى :﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] و لم يدل هذا على خروج حليلة الابن من الرضاعة ، مع أنها ليست من الصلب .

الثاني : أن الله قد نص على المفهوم المخالف حين يريد نفي الحكم عنه في آيات كثيرة ولو كان المسكوت عنه كافيا لما كانت هناك حاجة إلى النص عليه . ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

الثالث : أن ما سوى المنطوق مسكوت عنه والمسكوت عنه ليس له حكم يؤخذ من اللفظ

فليطلب حكمه من دليل آخر .

والراجح هو قول الجمهور ،أن مفهوم المخالفة بأنواعه كلها سوى مفهوم اللقب .

وقول الأحناف : إن في القرآن والسنة كثيرا من مفاهيم المخالفة المتفق على عدم حجيتها ، يجاب بأن تلك المواضع لم تتوافر فيها شروط الاحتجاج الآتي ذكرها .

وقولهم : إن الله قد نص على المفهوم حيث أراده يجاب بأن ما نص فيه على المفهوم قصد تأكيده ولا يدل على أن غيره ليس بحجة .

وأما مفهوم اللقب فليس بحجة على الصحيح عند جماهير العلماء ؛ لأنه لو كان حجة لكان الثناء على الرسول - ﷺ- ووصفه بالرسالة وقدحا في بقية الرسل وإنكارا لرسالتهم .

ولأن الرسم لا يشعر بالتعليل ؛ ولهذا لا يدل ذكره على نفي الحكم عن غيره .

ولأن الاحتكام في ذلك إلى لغة العرب واللغة لا تدل على أن ذكر الاسم والنص على حكمه دليل على نفي الحكم عن غيره .

شروط العمل بمفهوم المخالفة : للعمل بالمفهوم شروط ، أهمها :

١-أن لا يكون تخصيص المذكور بالذكر جرى مجرى الغالب ، فإن كان كذلك فلا يحتج به ، ومثاله قوله تعالى :﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ﴾ [النساء: ٢٣] فوصف الربائب بكونهن في الحجور جرى مجرى الغالب ، إذ الغالب أن تكون بنت الزوجة معها عند زوجها الثاني .

٢-وإنما اشترطوا ذلك لأن ما جرى مجرى الغالب يكون حاضرا في الذهن عند المتكلم فيذكره في كلامه ولا يقصد نفي الحكم عنه .

٣-أن لا يكون حكم المذكور جاء لكونه مسئولا عنه ، أو بيانا لحكم واقعة ، فإن سئل عنه فرتب الحكم عليه أو كان أمرا واقعا جاء بيان حكمه على صفته التي هو عليها، لم يدل ذلك على نفي الحكم عما عداه ، ومثلوه بقوله تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾[آل عمران: ١٣٠] ، فإنه لا يدل على جواز أكل الربا إذا كان قليلاً ؛ لأن الآية بيان لحم أمر واقع .

٣-أن لا يكون المذكور في اللفظ سبق ذكره حتى يكون معهودا ، فإن كان معهودا فلا يدل ذكره على قصر الحكم عما عداه ، وهو أعم من الذي قبله ؛ لأن المسئول عنه معهود ؛ لسبق ذكره .

٤- أن لا يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المذكور فإن كان كذلك فإنه يكون من مفهوم الموافقة ويثبت للمسكوت حكم المنطوق من باب أولى .

ومثله بعضهم بقوله تعالى : ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] قالوا : فإن قتله عمدا وجبت الكفارة من باب أولى . وهذا ليس صحيحاً عند الأكثر ؛ لأن الكفارة تطهير للمكلف ، والقتل العمد لا تكفره الكفارة؛ لأنه جرم عظيم لا يطهره إلا القود ، ولذا لم تجب فيه كفارة .

وأظهر منه قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾[الإسراء: ٣١] حيث لا يفهم منه جواز قتلهم دون خشية الفقر ؛ لأنه إذا حرم قتلهم مع خوف الفقر والعجز عن نفقاقم فتحريم قتلهم مع القدرة على نفقاقم أولى بالتحريم .

ويجمع هذه الشروط السابقة التي ذكروها أنها ترجع إلى شرط واحد ، وهو أن لا يظهر لتخصيص المذكور بالذكر فائدة سوى اختصاصه بالحكم عما لم يشاركه في الصفة المذكورة .

ولهذا الخلاف أثر في مسائل كثيرة منها :هل يجوز نكاح الأمة لمن لم يجد مهر الحرة ؟وهل يشترط لمن أراد نكاح الأمة أن تكون مؤمنة ؟

ففي المسألة الأولى : اختلفوا في قوله تعالى :﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾[النساء: ٢٥] وخلافهم ينبني على خلافهم في الاستدلال بمفهوم الشرط :

فالجمهور قالوا : الآية تدل بمفهوم المخالفة في قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ على أن المستطيع لمهر الحرة القادر على نكاحها ليس له أن ينكح أمة.

والحنفية قالوا : الآية بينت حكم من لم يستطع مهر الحرة وسكتت عن المستطيع ، فيطلب حكم نكاحه من دليل آخر ، وقد وجدنا الدليل في عموم قوله تعالى :﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] والأمة من النساء .

وفي المسألة الثانية : اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ [النساء/٢٥]

وخلافهم ينبني على خلافهم في الاستدلال بمفهوم الصفة :

فذهب الجمهور إلى اشتراط إيمان الأمة أخذا بمفهوم الصفة المتقدم ، فقوله :﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ ﴾ يدل بمفهوم المخالفة أن غير المؤمنة لا يجوز نكاحها .

وذهب الحنفية إلى جواز نكاح الأمة الكتابية ، وقالوا : النص على المؤمنة لا يدل على نفي الحكم عما عداها ، وإنما يدل على أن ما عداها يطلب حكمها من دليل آخر ، وقد وجدنا الدليل يدل على التفريق بين الكتابيات وغيرهن من الكافرات في قوله : ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [المائدة: ٥] فالكتابية يجوز نكاحها سواء أكانت حرة أم أمة بخلاف بقية الكفار .

منهج الحنفية في تقسيم كيفية الدلالة :

سبق ذكر الدلالة عند الجمهور وأنها على نوعين : منطوق ومفهوم ، أو منظوم وغير منظوم .

وأما الحنفية فإنهم يجعلون الدلالة أربعة أقسام :

الأولى : دلالة العبارة (عبارة النص): وهي دلالة اللفظ على المعنى المتبادر فهمه من الصيغة.

مثالها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فعبارة النص تدل على تحريم متروك التسمية ، وهي تقابل دلالة المنطوق عند الجمهور .

الثانية : دلالة الإشارة (إشارة النص):وهي دلالة اللفظ على معنى غير مقصود بسياق الكلام ، ولكنه لازم للمعنى إلى سيق له الكلام .مثالها : قوله تعالى : ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ [الحشر: ٨] قالوا : هذه الآية تدل بطريق الإشارة على أن الكفار إذا استولوا على أموال المسلمين يملكونها ؛ لأن الله سماهم فقراء مع أن أموالهم تحت أيدي الكفار .

ومثلها الأمثلة السابقة في دلالة الإشارة عند الجمهور ، فإن مصطلح الفريقين متقارب في الدلالة .

الثالثة : دلالة الاقتضاء: (اقتضاء النص): وهي زيادة على المنصوص يشترط تقديرها ليصير المنظوم مفيدا أو موجبا للحكم ، وبدونها لا يمكن إعمال المنظوم وتصحيحه . ومثالها قوله تعالى :

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣] لا بد من تقدير محذوف وهو أكل الميتة ، قوله : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] يقتضي تقدير محذوف وهو الوطء ودواعيه .

ومصطلحهم في هذه كمصطلح الجمهور ، وإنما وقع الخلاف في عموم المقتضى أو المقدر .

الرابعة : دلالة النص : وهي دلالة المنطوق على أن حكمه ثابت للمسكوت ؛ لكونه أولى منه. وهي التي يسميها الجمهور مفهوم الموافقة ، وأمثلتها تقدمت .

وأما مفهوم المخالفة فيسميه الحنفية دلالة المخصوص بالذكر على نفي الحكم عما عداه ، وهو عندهم ليس بحجة .

دلالة اللفظ من حيث الظهور والخفاء :

جرى جمهور الأصوليين على تقسيم اللفظ من حيث ظهور دلالته وخفاءها إلى ثلاثة أقسام هي : النص والظاهر والمجمل :

أولا النص : وهو ما دل على معناه دلالة لا تحتمل التأويل .

مثل دلالة قوله تعالى : ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ [النور: ٤]على مقدار الجلد .

وقيل ما دل على معناه و لم يحتمل غيره احتمالا ناشئا عن دليل .

وعلى هذا فالاحتمال الذي لا دليل عليه لا ينقض قوة الدلالة ، ولا يجعل اللفظ ظاهرا بل يبقى في مرتبة النص .

ويطلق النص في مقابل الدليل العقلي أو الدليل من المعنى فيكون المقصود به النقل ، سواء أكان نصا صريحا أم ظاهرا أم محتملا ، كقول الفقهاء في مسألة:دليلنا النص والقياس .

ثانيا : الظاهر : وهو ما احتمل معنيين هو في احدهما أظهر .وهذا يدل على أن الظاهر صفة للفظ ، لأن اللفظ هو الذي احتمل معنيين .

وقد يطلقون لفظ الظاهر على المعنى الراجح الذي دل عليه اللفظ مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا ، فيقولون : هو الاحتمال الراجح .

ومثاله : دلالة الأمر على الوجوب مع احتمال الندب ، ودلالة النهي على التحريم مع احتمال الكراهة : كقوله تعالى في الأمر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .

وكقوله تعالى في النهي حكاية عن نبينا محمد – ﷺ- : ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠].

وهكذا كل حقيقة احتملت المجاز و لم تقم قرينة قوية على ذلك فهي ظاهرة في المعنى الحقيقي.

وقد يعرفون الظاهر بما كانت دلالته على المعنى دلالة ظنية لا قطعية ؛ تفريقا بينه وبين النص ، وقد وقع للشافعي تسمية الظاهر نصا كما نقل ذلك الإمام الجويني وغيره .

المؤول : إذا ذكر الظاهر ذكر المؤوّل ، وهو اصطلاحا : اللفظ المحمول على الاحتمال المرجوح بدليل ، سمي بذلك ؛ لأن المؤول يرجع معنى اللفظ إلى المعنى البعيد الذي لم يكن موضوعا له لدليل يذكره .

والتأويل : حمل اللفظ على الاحتمال المرجوح بدليل .

وهذا يشمل التأويل الصحيح والتأويل الفاسد .

فالتأويل الصحيح:حمل اللفظ على الاحتمال غير المتبادر بدليل قوي يقتضي ذلك .

والتأويل الفاسد : حمل اللفظ على الاحتمال غير المتبادر بدليل ضعيف لا يقوى على صرف اللفظ عن ظاهره .

والمؤول هو اللفظ عن ظاهره بدليل ، فإن كان الدليل قويا يقتضي رجحان الاحتمال الذي كان مرجوحا لولاه فهو تأويل صحيح وإلا كان باطلا.

مثال التأويل الصحيح : تخصيص العام بدليل خاص ، مثل تخصيص قوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] بالأحاديث الدالة على تحريم البيع على بيع أخيه ، والبيع مع النجش، وبيع الحصاة ، ونحوه من بيوع الغرر .

فحينئذ تكون الآية مصروفة عن عمومها الذي كانت هو المتبادر من اللفظ، والصارف لها الأدلة السابقة .

ومثله : تأويل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨] على أن المراد : إذا أردت قراءة القرآن ، وليس المراد إذا فرغت من قراءته كما يفيده ظاهر اللفظ من حيث الوضع .

ومثله : تأويل قوله تعالى :﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] فإنها مؤولة عن ظاهرها ، والمقصود : إذا أردتم القيام إلى الصلاة ؛ لأن الوضوء يسبق القيام إلى الصلاة .

ومثال التأويل الباطل : تأويل الحنفية حديث غيلان عندما أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي – ﷺ- :"أمسك منهن أربعا وفارق سائرهن". [1] على أن المراد : أمسك الأربع الأول منهن أو على أن المراد ابتدئ نكاح أربع منهن .

ومما يبطل هذا التأويل أن الشبهة التي استندوا إليها لا تقوى على ترجيح ما ذكروه من احتمال بعيد ؛ لأنهم قالوا : إن المتأخرات نكاحهن باطل فلا يجوز أن يختار منهن أحدا إلا بعقد جديد. والجواب عن هذا : أن الرجل الذي جاء الحديث في شأنه حديث الإسلام ولا يعرف شروط النكاح وأركانه ولو أراد النبي – ﷺ- اشترط أن تكون الأربع هن المتقدم نكاحهن لبين له ذلك، ولما سكت النبي – ﷺ- عن بيان ذلك عرفانا أن الأمر متروك لاختيار الزوج .

ثم إن النبي – ﷺ- قد أقر الكفار الذين أسلموا على أنكحتهم و لم يغيرها و لم يأمر بتجديدها مما يدل على أن الفرقة لم تحصل بمجرد الإسلام ؛ إذ لو حصلت لم يخير .

وكذلك تأويلهم حديث :"أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ".[2] بأن المراد به الصغيرة أو الأمة أو المكاتبة ولا يخفى بعد هذا الاحتمال .

وشروط التأويل الصحيح شرطان :

---

(١) رواه أحمد ٤٦٠٩ ، والدارقطني ٤٧٥٦ ، وابن حبان ٣٦٨٤ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال محقق المسند : حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده وبعمل الأئمة المتبوعين به ٨/٢٢١-٢٢٥ .

(٢) رواه أحمد ٢٥٣٢٦ ، وأبو داود ٢٠٨٣ ، والنسائي في الكبرى بنحوه ٥٣٩٤ ، وابن ماجه ١٨٧٩ ، وقال محقق المسند : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن ...، وهو في مصنف عبد الرزاق ١٠٤٧٢ ، والدارقطني في السنن ٣/٢٢١ ، والحاكم في المستدرك ٢/١٦٨ .

الأول : أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذي يراد صرفه إليه في لغة العرب أو في عرف الاستعمال ، وهذا يعرف بمعرفة وضع اللفظ في اللغة أو معرفة عرف الاستعمال عند أهل اللغة أو عرف الشرع وعادته .

الثاني : أن يقوم على التأويل دليل صحيح ، إما من السياق الذي جاء فيه اللفظ أو من دليل آخر لا يمكن الجمع بينه وبين هذا الدليل إلا بتأويل أحدهما .

مثال ما دليل تأويله السياق : قوله تعالى :﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فلفظ الناس الوارد أولا يجب تأويله عن ظاهره ؛ ليكون المراد به فئة قليلة من الناس ، بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ ﴾[آل عمران : ١٧٣] وبدليل قوله في صدر الآية : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾[آل عمران : ١٧٣] فالسياق يدل على أن هناك قائلا ومقولا له ومخبرا ومخبرا عنه بالإضافة إلى دلالة الحس ، على أن أكثر الناس في أقطارهم لا علاقة لهم بالواقعة .

ومثله حمل اللفظ على المجاز لقيام القرينة ، كقولك : رأيت أسدا متقلدا سيفا.

ومثال ما كان دليل التأويل فيه مستقلا : التخصيص بالمخصصات المنفصلة ، وحمل المطلق الوارد في موضع على المقيد الوارد في موضع آخر .

ثالثا : المجمل : والمجمل اصطلاحاً : ما دل على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه . فهذا الإجمال موجود بالنظر إلى النص ذاته .

مثال المجمل الذي قد بين : قوله تعالى : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤١] فقد قام الدليل على أن الحق الواجب في المال هو الزكاة ومقاديرها معلومة ، وذهب بعض العلماء إلى أمن المقصود بالحق هنا : الصدقة المطلقة منه في يوم الحصاد بما تجود به نفس المالك من غير تحديد .

ومثال المجمل الباقي على إجماله ؛ لكونه لم يتعلق به تكليف : الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، كقوله : ﴿الٓمٓ ﴾ [البقرة: ١] ، و ﴿كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم: ١] ونحوهما .

وقد خص بعض العلماء هذا النوع من المجمل باسم خاص هو المتشابه . وعلى ذلك فلا يكون هناك مجمل لم يبين ، ولكن يوجد متشابه استأثر الله بعلمه أو علمه الراسخون في العلم دون غيرهم

كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران ٧] وقد اختلف القراء في الوقف أين يكون ؟

فمن وقف عند لفظ الجلالة : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قال : إن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، مثل له بحقائق ما يقع يوم القيامة : من وزن الأعمال ونصب الصراط والعبور ليه ونحو ذلك ، وبكيفيات صفات الله تعالى .

ومن وقف عند لفظ العلم في قوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ قال : إن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه ، وفسر المتشابه بما غمض معناه حتى لا يعرفه إلا الراسخون في العلم. ولكل من الفريقين حجج ، والآية محتملة للأمرين.

وللإجمال أسباب ، منها ثلاثة :

١- الاشتراك اللفظي : وهو تردد اللفظ بين معنيين فأكثر ، ولا يكون هناك ما يدل على المراد من المعنيين صراحة ، مثاله قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فالقرء يحتمل الطهر والحيض ، ولا يوجد في السياق ما يدل صراحة على المراد منهما ، وإن كان كل من المختلفين استظهر من النص ما يؤيد قوله .

٢- اشتهار المجاز وكثرة استعماله : فإذا اشتهر المجاز وشاع حتى ساوى الحقيقة في استعمال صار الدليل محتملا للمعنيين على السواء ، مثل لفظ العين الباصرة حقيقة ، ويطلق على الجاسوس مجازا.

ومثله لفظ النكاح ، فإنه في أصل اللغة للوطء ، ثم أطلق على العقد مجازا ، واشتهر حتى ساوى الحقيقة ، فإذا ورد لفظ النكاح في الدليل الشرعي احتمل المعنيين فصار مجملا ما لم يصحبه بيان، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فلفظ: ﴿تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ يحتمل الاكتفاء بالعقد ويحتمل لزوم الوطء بعد العقد .

ولولا بيان الرسول – ﷺ – بقوله :"حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك" –[1] لكان مجملاً.

٣–الإطلاق أو التعميم في موضع لا يمكن العمل فيه بالمعنى الظاهر من اللفظ لافتقاره إلى التحديد: ومثاله قوله تعالى : ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] فالحق مطلق من غير محدود ولا معروف المقدار، وكذلك الأمر بالصلاة قبل بيان صفتها .

الفرق بين المجمل والمشترك : أن المجمل بالنسبة إلى فهم الشخص ، والمشترك بالنسبة لوضع اللفظ واستعماله ، وأيضا فالإجمال في الأدلة الشرعية قد بين ، و لم يبق لفظ مجمل لا بيان له على الأرجح من قولي العلماء، أما الاشتراك فلا أحد يدعي انتهاءه من اللغة العربية ؛ ولذلك فالإجمال أصل في أصول الفقه ، والمشترك بحث لغوي ليس في منزلة المجمل من علم الأصول .

تقسيم الحنفية دلالة اللفظ من حيث الوضوح والخفاء :

يقسم الحنفية اللفظ إلى قسمين : واضح الدلالة ، وخفي الدلالة .

وقسموا واضح الدلالة إلى أربعة أقسام من الأدنى ظهورا إلى الأعلى فقالوا : الظاهر ، والنص، والمفسَّر ، المحكم .

وقسموا خفي الدلالة إلى أربعة أقسام من الأدنى خفاء إلى الأعلى فقالوا : الخفي ، والمشكل ، والمجمل ، والمتشابه . وإليك التعريف بها مع التمثيل :

أقسام واضح الدلالة : الظاهر : ما ظهر المراد به للسامع بصيغته ، مثاله قوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فالآية ظاهرة في إباحة البيع الخالي من الربا وتحريم الربا . وعندهم أن الظهر يقبل التأويل والتخصيص والنسخ .

١ –النص : وهو ما زاد وضوحا على الظاهر بمعنى لا في نفس الصيغة ، مثاله قوله تعالى : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] فالآية نص في جواز نكاح الأربع فما دون . وفرق بعض الحنفية بين النص والظاهر : بأن النص هو الدال على معنى سيق الكلام للدلالة عليه ،

(١) رواه البخاري برقم ٥٣١٧ ، ومسلم برقم ١٤٣٣ ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

والظاهر هو ما دل على معنى لم يسق الكلام للدلالة عليه ، واعترض عليه .

٢ -المفسَّر : وهو ما ازداد وضوحا على النص بمعنى في النص أو بغيره ، أي : سواء كان وضـــوحه لأجل قرينة في النص أو لدليل خارجي أخرجه من الإجمال إلى الوضوح أو من التأويل إلى عـــدم احتماله . مثاله قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجــر ٣٠، وص٧٣] فهذا مفسر لكونه أكد فيه العموم على وجه يمنع احتمال التأويل والتخصيص .

والمفسر عند الحنفية لا يقبل التأويل ولا التخصيص ، ولكنه يحتمل النسخ في عهد الرسالة .

٣ -المحكم : وهو ما ازداد قوة وأحكم المراد به عن احتمال النسخ والتبديل .مثاله قوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ونحوها من الآيات التي تقرر حكما كليا أساسا في الإســـلام ، ولا يمكن أن يتطرق إليه التأويل أو التخصيص أو النسخ .

أقسام خفي الدلالة أربعة : الخفي : وهو ما اشتبه معناه وخفي المراد منه بعارض في الصيغة يمنــع نيل المراد بها إلا بالطلب . والمعنى أن الخفي لم يظهر المارد منه ، والسبب في خفائه راجع إلى عــارض عرض للصيغة ، فجعلها ليست ظاهرة الدلالة عليه . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨] في دلالته على النباش الذي ينبش القبور فيأخذ أكفان الموتى ، فإن دلالة الآية على قطع النباش دلالة خفية ، والسبب في خفائها أن النباش اختص بالسم يخصه ، فقد يكون إطلاق هذا الاسم عليه لا يخل بمعنى السرقة الذي علق عليه القطع ، وإنما هو لبيان سبب السرقة ، وقد يكون اختصاصه بهذا الاسم؛لبيان اختلاف حاله عنه حال السارق ، كما نقل عن أبي حنيفة:أن السارق يأخذ المال خفية وهو يسارق عين مالكه أو حارسه ، أما النباش فلا يسارق عين صاحب الكفن ؛ أنه ميت .

وأيضا فالسارق أخذ ما لا يستفيد منه صاحبه لو لم يسرق ، وأما النباش فإنه آخذ مالا آيلا للتلف ، ولهذا ذهب أكثر الحنفية إلى عدم قطع النباش ، و لم يأخذوا بالدلالة الخفية الموجودة في الآية . والواجب على المجتهد زيادة الطلب حتى يتبين له المراد من اللفظ .

٢- المشكل : وهو ما اشتبه المراد منه بدخوله في أشكاله على وجه لا يعــرف المــراد إلا بدليل يتميز به من بين سائر الأشكال ، وهو عندهم ضد النص ، وهو قريب من المجمل ، ويختلف عنه بأنه يعرف المراد منه بزيادة التأمل . مثاله قوله تعالى : ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فيحتمل

أنه يدل على إتيان المرأة في دبرها ، ودلالته على المنع من ذلك دلالة خفية تتبين بالنظر إلى فائدة الحرث وهو الإنتاج ، ومعلوم أن الوطء في الدبر لا ينتج الولد فيكون غير داخل في مقصود الشارع بالآيـــة ، وحكمه اعتقاد أنه حق والتأمل فيه إلى تبين المراد .

٣-المجمل : وهو اللفظ الذي لا يعرف المراد منه إلا باستفسار المجمل وبيان من جهته يعرف به المراد . ومثاله قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن الربا في اللغة الزيادة، وليس ذلـــك المعنى مرادا ،؛ لأن البيع ما شرع إلا للاسترباح وطلب الزيادة ، ولذا فإن لفظ الربا كان مجملا حـــتى جاء بيانه من قبل الشارع نفسه ، ولا يمكن أن يعرف المراد منه في الآية إلا ببيان من جهة الشارع .

وهذا هو الفرق بين المجمل والمشكل ؛فإن المشكل قد يعرف المراد منه بالتأمـــل والنظـــر في القرائن المصاحبة ونحو ذلك ، وأما المجمل فبخلاف ذلك فلا يمكن معرفة المراد منه إلا ببيان من المتكلم نفسه . وحكمه اعتقاد أنه حق ، والتوقف فيه إلى الوقوف على البيان من قبل الشارع .

٤-المتشابه : وهو ما انقطع رجاء المعرفة به لمن اشتبه فيه . مثاله : الحروف المقطعـــة في أوائـــل السور، وكيفيات صفات الله تعالى ، فإنها من المتشابه مع أن أصل الصفات معلومة وإنما التشـــابه في كيفياتها .

وحكمه : اعتقاد أنه حق ، والإيمان به على مراد الله سبحانه ومراد رسوله – ﷺ– .

وتبين مما تقدم أن الأقسام الثلاثة الأولى يدخلها الجمهور في المجمل عندهم ، ولكـــن بينـــها تفاوت في درجة الإجمال ، فبعضها يزول بالتأمل اليسير وبعضها يحتاج إلى مزيد من التأمل ، وبعضها لا لابد فيه من البحث في أدلة الشرع الأخرى ؛ لمعرفة المراد.

وأما القسم الرابع المتشابه : فهو الذي انقطع الأمل في بيانه ويطلق عليه الجمهـــور الاســـم نفسه[1].

(١) انظر أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله للدكتور عياض بن نامي السلمي ص ٢١٤- ٤٠٥ .

الباب الأول

دلالة السياق القـــــرآني ، وطريقة تناول ابن جرير لها :

وينقسم إلى فصلين :

الفصل الأول : دلالة السياق القرآني .

الفصل الثاني : طريقة تناول ابن جرير لدلالة السياق القرآني .

الفصل الأول

دلالة السياق القرآني ، وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف السياق القرآني ، وأنواعه ، مع التمثيل .

المبحث الثاني : أهمية دلالة السياق القرآني في التفسير .

المبحث الثالث : أسباب الاعتماد على دلالة السياق القرآني .

المبحث الرابع : دلالة السياق القرآني ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن .

المبحث الأول : تعريف السياق القرآني ، وأنواعه ، مع التمثيل :

وينقسم إلى ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف السياق لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : أنواع السياق القرآني .

المطلب الثالث : الأمثلة على السياق القرآني .

– المطلب الأول : تعريف السياق لغة واصطلاحاً : [(١)].

أ – تعريف السياق في معاجم اللغة :

قال ابن دريد –رحمه الله– : " والسُّوْق معروفةٌ...وأصل اشتقاقها من سَوْقِ النـاسِ إليها بضائعَهم ." [(٢)]

وقال ابن فارس –رحمه الله– [(٣)] : " السِّين والواو والقاف أصلٌ واحدٌ ، وهو حَدْوُ الشيءِ . يقال : سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقاً ، والسَّيِّقةُ ما استِيْقَ من الدَّوَابِّ ، ويقال : سُقْتُ إلى امرأتي صَداقَها وأَسَقْتُهُ ،

---

(١) قبل تعريف السياق أذكر معنى الدلالة في اللغة والاصطلاح :

ففي اللغة : قال الجوهري :"دلل : الدَليلُ: ما يُستَدَلُّ به،والدَليلُ: الدالُّ. وقد دَلَّهُ على الطريق يَدُلُّهُ دَلالَةً ودِلالَةً ودُلولَـةً، والفتح أعلى "كتاب الصحاح ، مادة دلل . فهو المرشد والكاشف ، من دللت على الشيء ودللت إليه". الموسوعة الفقهية الكويتية مادة دليل ٢٢/٢١.

وفي الاصطلاح : ما يتوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبري ولو ظناً ، وقد يخصه بعضهم بالقطعي .الموسـوعة الفقهية الكويتية ، مادة دليل ٢٢/٢١ ، وانظر مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي ص ٦٢.

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد (٣/٤٣–٤٤) ، الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ لمكتبة المثنى ببغداد .

(٣) هو أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المالكي ، المعروف بالرازي ، مفسر لغوي محدث ، من أهل السنة ، على مذهب أهل الحديث ، مؤلفاته قيّمة منها : معجم مقاييس اللغة ، والمجمل في اللغة ، وجامع التأويـل في تفسـير القـرآن مفقود، توفي بالري سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك . انظر إنباه الرواة (٩٢/١) ، ومعجم الأدباء (٨٠/٤)، ووفيات الأعيان (٣٥/١) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٣/١٧) وبغية الوعاة (٣٥٢/١) .

والسُّوْقُ مشتقَّةٌ من هذا لما يُسَاقُ إليها من كلِّ شيءٍ ، والجمع أسواق ، والسَّاقُ للإنسان وغيره ، والجمع سُوق إنما سُمِّيَتْ بذلك ؛ لأنَّ الماشي يَنْسَاقُ عليها ." (١)

وقال الراغب الأصفهاني –رحمه الله– (٢): " سَوْقُ الإبلِ جَلْبُهَا وطَرْدُهَا ، يُقَالُ : سُقْتُهُ فانْسَاقَ...والسُّوقُ : الموضع الذي يُجْلَبُ إليه المتاعُ للبيع ، والسَّويق سمِّي بذلك ؛ لانْسِياقِهِ في الحَلْق من غير مَضْغٍ ." (٣)

وقال ابن منظور –رحمه الله– (٤) : " وقد انْسَاقت الإبل تَسَاوُقاً إذا تتابعت ، وكذلك تَقَاوَدَتْ فهي مُتَقَاوِدَة ومُتَسَاوِقَة...والمُسَاوقة المتابعة ،كأنَّ بعضَها يَسُوقُ بعضاً...والسِّيَاقُ المهر ، قيل للمهر سَوْقٌ ؛ لأنَّ العرب كانوا إذا تزوجوا سَاقوا الإبل والغنم مَهْراً...والسِّيَاق نَزْعُ الروح...وهو في السَّوْقِ ، أي النَّزْعِ ، كأنَّ رُوحَه تُسَاق ؛ لتَخْرُجَ من بدنه." (٥)

وقال الفيروز آبادي –رحمه الله– (٦) : " تقول العرب : ولدْتُ ثلاثةَ بنينٍ على سَاقٍ ، أي : متتابعة لا جارية بينهم...وسَاق الماشية سَوقاً وسِيَاقَةً ومَسَاقاً ، واسْتَاقَهَا فهو سَائقٌ وسَوَّاقٌ وساق إلى

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١١٧/٣) ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة دار الجيل .

(٢) هو أبو القاسم ، الحسين بن محمد بن المفضل ، وقيل المفضل بن محمد ، وقيل غير ذلك ، أهم مؤلفاته : مفردات ألفاظ القرآن ، وجامع التفسير ، طبعت منه المقدمة وسورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة ، ليس معتزليّاً كما قد يتوهّم ، توفي حدود سنة خمس وعشرين وأربعمائة . انظر بغية الوعاة (٢٩٧/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٣٢٩/٢) ، ومقدمة محقق مفردات ألفاظ القرآن صفوان داوودي ، صفحة (١–٢٧) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٤٣٦) .

(٤) هو أبو الفضل ، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور الأنصاري الأفريقي ، ولد سنة ثلاثين وستمائة ، القاضي بطرابلس ، له لسان العرب وغيره ، قال الذهبي فيه : عنده تشيّع بلا رفض ، توفي سنة إحدى عشر وسبعمائة ، وله اثنتان وثمانون سنة . انظر الدرر الكامنة (٣١/٥) ، وشذرات الذهب (٢٦/٦) .

(٥) لسان العرب (١٦٦/٤٠–١٦٧) طبعة دار صادر .

(٦) هو أبو طاهر ، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي ، ولد بفارس ، سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، لغوي أديب ، له القاموس المحيط ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، وتوفي باليمن ، سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة وثمانمائة . انظر بغية الوعاة (٢٧٣/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٧٤/٢) .

المرأة مهرها : أرسله كأساقه ،والسِّياق ككتاب : المهر ، والسُّوْقَةُ بالضم الرَّعِيَّة سُمُّو بـذلك ؛ لأن الملوك يَسُوقُونَهُم فَيَنْسَاقُونَ لهم ، والْمُنْسَاقُ : التَّابِعُ والقريب، وتَسَاوَقَتِ الإبلُ : تَتَابَعَتْ وتَقَاوَدَتْ "[١].

وقال الزبيدي –رحمه الله–[٢] : " وأصل السِّيَاقِ سِوَاقٌ ، قُلِبَتِ الواوُ ياءً لكسرةِ السِّيْنِ...ومن المجاز : هو يَسُوْقُ الحديث أحسنَ سِيَاقٍ ، وإليك يُسَاقُ الحديث ، وكلام مَسَاقُهُ إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سَوْقِهِ : على سَرْدِهِ ." [٣]

ب – تعريف السياق اصطلاحاً عند أهل اللغة ، وهم في ذلك على قسمين :

الفئة الأولى : أهل اللغة البيانيين[٤] : حيث عرفوه بما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى ، وقد يكون التوضيح بما ترد فيه اللفظة من الاستعمال ، وقد يكون ما يصاحب اللفظ من غير الكلام مفسراً للكلام .[٥]

وهذا يدل على أن السياق عند هؤلاء على نوعين :

– **النوع الأول : السياق اللغوي** : وهو سابق الكلام ولاحقه . فالكلام حين يُراعَى سياقه ؛ يُتوصل

---

(١) انظر ترتيب القاموس المحيط (٦٤٩/٢–٦٥٠) للفيروز آبادي ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي . ونحو هذا في لسان العرب (١٦٩/٤٠–١٧٠) ، وتاج العروس (٣٨٦/٦–٣٨٩) للزبيدي ، والمحكم والمحيط (٣٢٥/٦) لابن سيده .

(٢) هو أبو الفيض ، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق ، الملقب بمرتضى ، الحسيني الواسطي الزبيدي –بلد أو قبيلة باليمن، الحنفي ، ولد سنة خمس وأربعين ومائة وألف ، علامة في الحديث واللغة والأدب والأنساب ، نزل مصر، له تاج العروس ، وإتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ، وتوفي بالطاعون ، سنة خمس ومائتين وألف . انظر كتاباً بعنوان: الزبيدي وكتابه تاج العروس ، للدكتور هاشم طه شلاش ، والأعلام (٢٩٧/٧) .

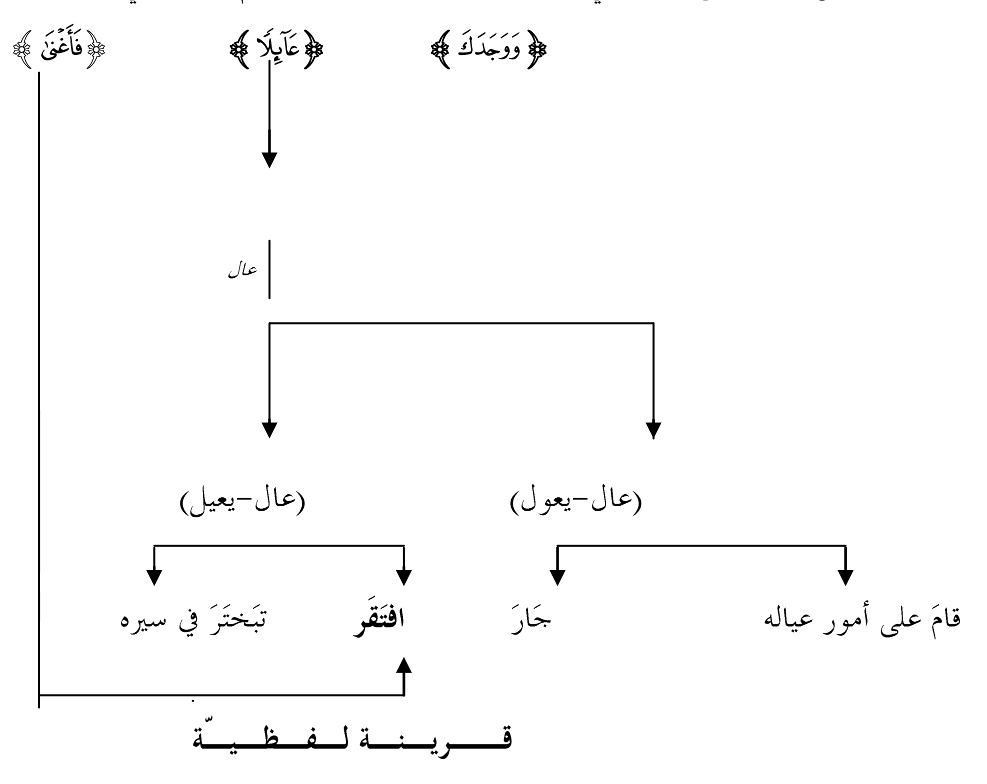
(٣) تاج العروس (٣٨٧/٦و٣٨٩) .

(٤) علم البيان : هو الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، والمقصود بالطرق تراكيب الكلام، والوضوح في المعنى بحسب وضوح القرينة المنصوبة وخفائها ، وموضوع علم البيان اللفظ البليغ من حيث إنه يستفاد منه المعنى الزائد على أصل المعنى . انظر موسوعة كشاف اصطلاح الفنون والعلوم ، للتهانوي (٢٦/١–٢٧) ، وكتاب التبيان في علم المعاني والبديع والبيان صفحة (١٧٩) للدكتور هادي الهلالي .

(٥) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث صفحة (١١٦) ، لمحمد أحمد أبو الفرج .

إلى تعيين المقصود وتحديد المراد ، ويُعبَّرُ عنه أحياناً بقولهم : وهو هاهنا...[١] أو قولهم : المعنى هنـــا في هـــذا الموضع...وتحديد دلالة اللفظ ، يجيء وفقاً لمعطيات السياق اللغوي ، المتمثلة في القرينة اللفظية.[٢] ويمثّل على ذلك بقوله –تعالى–:﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضـــحى: ٨] فالعائل في اللغة يحتمل أن يكون واوي العين ، أو يائيها ، وكل أصلٍ له معنيان : فاليائي : عال – يعيل : يحمل على الافتقار ، أو على التبختر في المشـــي . والواويّ : عال – يعول : يحمل على الجور والميل ، ومنه قوله –تعالى–:﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النســـاء: ٣] أو يحمل على قيام الرجل على أمور عياله .

فاسم الفاعل : "عائل" يطلق على أحد المعاني السابقة ، ولكن ورود القرينة اللفظية : ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ إلى جواره ؛ جعل دلالته على الفقير هي الدلالة المقصودة . كما في الرسم التوضيحي :



(١) انظر في علم الدلالة صفحة (٦٣) ، للدكتور عبد الكريم محمد حسن جبل ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م .

(٢) في علم الدلالة صفحة (٧٠) .

– **النوع الثاني : السياق الاجتماعي ، أو المقام ، أو سياق الحال :** وهو مجموع العناصر الاجتماعية ، والثقافية ، المتصلة بالنص الكلامي ، والتي تؤثر في فهمه ، وذلك يكون في أمرين :

١– ذكر مناسبة النص ، كسبب للكلام ، وهو في التفسير سبب النزول .

٢– ذكر عادات وتقاليد تضمّنها النص ، واعتبارها في توجيه الدلالات .[(١)]

ولا تزال الاحتمالات الدلالية ، تتوارد على ذهن القارئ ، وما زال بعضها يعالج بعضاً ، حتى يحدث (الانفراج الدلالي) بذكر مقام النص ، فتتضح الرؤية ، ويتبدد الغموض، وتتحدّد الدلالات[(٢)].

فإذا كانت الكلمة لها معان متعددة ، فهي معان محتملة ، ويتحدد المعنى ضمن السياق المعين ، فالكلمة لها : معنى أساسي ، ومعنى سياقي ، يحدد معنى الجمل ، وتصبح الكلمة في كل سياق لها معنى مفهوم .[(٣)]

الفئة الثانية من أهل اللغة : من قسمت السياق اللغوي إلى قسمين :

الأول : السياق النحوي : أو البنية النحوية التي ترد فيها الكلمة ، فالكلمات لا تؤثر في الجملة على نحو عشوائي ، بل تخضع لقواعد التركيب النحوي في اللغة ، والتغيير في البنية النحوية يغيّر المعنى ، ولو لم تتغير الكلمات ، فالذي يفرّق بين الجملتين :

عارضَ عليٌّ خالداً ، وعارضَ خالدٌ عليّاً ، هو السياق النحوي .

الثاني : السياق المعجمي : وهو العلاقة بين المفردات في الجملة ، بوصف المفردات وحدات معجمية دلالية ، تأمَّل :

جملة : أسعفَ الطبيبُ الحجَرَ .

وجملة : لَمْ عَادَ بُكاءٌ يُسْعِف .

فالجملة الأولى : أسعفَ الطبيبُ الحجَرَ ، تصحّ بالنسبة للسياق النحوي ، ولكن ورائها المدقق

---

(١) انظر "في علم الدلالة" صفحة (٧٤-٧٥) .

(٢) في علم الدلالة صفحة (٨١) بتصرف .

(٣) انظر علم الدلالة صفحة (٥٦) لبييرجيرو ، ترجمه عن الفرنسية : الدكتور منذر عياشي .

الآخر : وهو السياق المعجمي ، فهي شاذة في بنية الدلالة المعجمية ، أي : شاذة من الناحية الدلالية ، فبين كلمة الحجر ، وما يسبقها شذوذ ؛ إذ نتوقع في العادة أن يكون الإسعاف للإنسان أو لكائن حي على الأقل .

أما الجملة الثانية : لَمْ عَادَ بُكاءٍ يُسْعِف ، فهي شاذة ؛ بسبب اختلال العلاقات النحوية التركيبية بين الكلمات . (١)

وعُرِّف السياق في المعجم الأدبي بأنه : من الكلام أسلوبه الذي يجري عليه .(٢)

هذه لمحة عن السياق عند اللغويين : من أهل المعاجم ، والمهتمين بدلالات الألفاظ، وشرّاح النصوص اللغوية .

– **أما تعريف السياق عند علماء الشريعة** : من الأصوليين ، والمفسرين، والمحدثين، والفقهاء : فلم أجد لديهم تعريفاً محدّداً ، إلا أنهم يسمُّونه بهذا الاسم ، ويمكن تعريفه من خلال بعض تعبيراتهم ومنها :

– **تبويب الشافعي – رحمه الله – باباً في كتابه الرسالة فقال** :" باب الصنف الذي يبين سياقه معناه : قال الله – تبارك وتعالى –: ﴿ **وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾** ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فابتدأ –جل ثناؤه– ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال : ﴿ **إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ** ﴾ الآية ، دلَّ على أنه إنما أراد أهل القرية؛ لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره ، وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون ، وقال: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾** ﴾ [الأنبياء: ١١ – ١٢] وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها ، فَذَكَر قصمَ القرية ، فلمّا ذكر أنّها ظالمة ؛ بَانَ للسّامع أن الظالم إنّما هم أهلها دون منازلها التي لا تظلم ، ولّما ذكر القومَ المنشئين بعدها ، وذكر

---

(١) انظر التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ، صفحة (٧٥–٧٧) بتصرف ، لعودة خليل .

(٢) المعجم الأدبي صفحة (١٤٣) ، تأليف : جبور عبد النور ، الطبعة الأولى لدار العلم للملايين ١٩٧٩م .

إحساسهم البأس عند القصم أحاط العلم أنّه إنّما أحسّ بالبأس من يعرف البأس من الآدميّين.

[وقال] : الصنف الذي يدل لفظه على باطنه دون ظاهره : قال الله – تبارك وتعالى– وهو يحكي قول إخوة يوسف لأبيهم : ﴿وَمَا شَهِدْنَآ [(١)] إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨١ – ٨٢] فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها ، لا تختلف عند أهل العلم باللسان : أهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة أهل القرية وأهل العير ؛ لأن القرية والعير لا ينبئان عن صدقهم ." [(٢)]

وقال أيضاً : فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها اتّساع لسانها ، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامّاً ظاهراً ، يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا عن آخره ، وعامّاً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ، وعامّاً ظاهراً يراد به الخاص ، وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود علمه ، في أول الكلام أو وسطه أو آخره ." [(٣)]

– **وقال ابن قتيبة – رحمه الله –** [(٤)]: في تفسير غريب القرآن : " وكتابنا هذا مستنبط من

---

(١) قوله : {مَا شَهِدْنَآ} نصّ الآية بالواو : ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ ، ولكنّ بعض العلماء قد يكتفي بذكر موضع الشاهد من الآية فلا يذكر حرف العطف كالواو والفاء عند الاستدلال ، ومن هؤلاء : الإمام الشافعي في الرسالة ، كما نبّه على ذلك الشيخ أحمد محمد شاكر في الرسالة فقرة (٦٤٣و٩٧٤و٩٧٥) ، ومقاتل بن سليمان في كتابه الأشباه والنظائر في أكثر من اثني عشر موضعاً ، والجاحظ في الحيوان ، بل وقع مثل ذلك في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً ثم تلا آية (١٨٠) من آل عمران : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بترك الواو . صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة ، صفحة (٢٧٨)حديث (١٤٠٣) . وانظر تحقيق النصوص ونشرها صفحة (٥١–٥٢) لعبد السلام هارون ، وتحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل صفحة (١٨٢) ، للدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان .

(٢) الرسالة صفحة (٦٢–٦٤) ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر –رحمه الله– .

(٣) الرسالة صفحة (٥١–٥٢) .

(٤) هو أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري القاضي الكاتب ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين ، العلامة ذو الفنون ، عالم بالعربية والأخبار ، من مؤلفاته : تأويل مشكل القرآن ، وإعراب القرآن ، وتفسير غريب القرآن، والمعارف ، توفي سنة ست وسبعين ومائتين . انظر تاريخ بغداد (١٠/١٧٠) ، وسير أعلام النبلاء (١٣/٢٩٦) ، وشذرات الذهب (٢/١٦٩) .

كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة وأشبهها بقصة الآية ." (١)

وعلى ما سبق فيمكن تعريف السياق عموماً بأنه : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده.

ويمكن تعريف دلالة السياق بأنها : فهم النص بمراعاة ما قبله ، وما بعده .

ويمكن تعريف دلالة السياق في التفسير : بأنها بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرجها عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له . كما سيأتي تفصيله في القواعد – إن شاء الله –.

فيُفهم كلام الله – عز وجل – من السياق ، بمراعاة أمرين :

١ – النظر إلى ما قبل النص المفسَّر : سواء كان أكثر من آية ، أو أقل من جملة .

٢ –وكذلك بالنظر إلى ما بعد النص المفسّر:سواء كان أكثر من آية،أو أقل من جملة.

وهكذا حين نراعي : تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده ، في التوصل إلى المعنى المراد منه، نكون قد طبّقنا دلالة السياق .

العلاقة بين المعنى اللغوي للسياق ، وبين الاستعمال الاصطلاحي : بعد التعريف للسياق في اللغة ، والاصطلاح ، يتضح ترابط مصطلح السياق ، مع الأصل اللغوي لكلمة "سياق" ، التي تعني :

- **التتابع** في قولهم : تساوقت الإبل ، إذا تتابعت .
- **وتعني الاتصال وعدم الانفصال** ، في قولهم : ولدت ثلاثة بنين على ساق ، أي : لا جارية بينهم .

وقد بين الزبيدي : أن سوق الحديث مجاز (٢)، فكأن المجاز في المعنوي : كسوق الكلام ، والحديث ، والقصة ، والحقيقة في الحسي ، كسوق الإبل ، وسوق المهر ، وسوق البضاعة .

وكأن السياق عند علماء الشريعة : الأصوليين والمفسرين والمحدثين والفقهاء ، يختص بالنص دون ما وراءه ، فلا يعدّون من السياق أسباب النزول ، ومناسبة الحديث، ومقام الكلام ، مع اهتمامهم بذلك كله . وبهذا يتضح الفرق بين اصطلاح اللغويين ، وعلماء الشريعة ، بأن المعنى الاصطلاحي اللغوي ، أوسع من المعنى الاصطلاحي في العلوم الشرعية . –والله أعلم– .

---

(١) تفسير غريب القرآن صفحة (٤) .

(٢) تاج العروس (٣٨٩/٦) .

– المطلب الثاني : أنواع السياق القرآني :

يظهر من تعريف السياق في التفسير -: بأنه بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرجه عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له . – أن السّياق نوعان : سباقٌ ، ولحاقٌ . ولابد من التعرّف على حدِّ كلِ نوعٍ ، في اللغة والاصطلاح .

– النوع الأول : السباق :

أ – تعريف السباق لغة :

قال ابن فارس : "السين والباء والقاف :أصل واحد صحيح ، يدل على التقديم."[(١)]

وقال الجوهري[(٢)] : " وسباق البازي : قيداه من سَيْرٍ أو غيره ." [(٣)]

وقال الكفوي [(٤)] : " والسباق – بالموحدة – ما قبل الشيء ." [(٥)]

وفي المعجم الوسيط : " والسباق : الرباط ، والقيد ." [(٦)]

فكلمة سباق في اللغة تعني : تقدم شيء على آخر ، وترابطهما معاً ، إما حسّاً ، كسباق البازي ، الذي هو : الرباط والقيد ، فهناك ربط وجمع بين شيئين ، أحدهما يسبق الآخر .

ب – تعريف السباق اصطلاحاً : لم أجد –حسب جهدي- تعريفاً اصطلاحياً للسّباق ، ولكن بالرجوع إلى المعنى اللغوي ، واستعمالات المفسرين ، وغيرهم من علماء الشريعة ، يمكن تعريفه

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٢٩/٣) .

(٢) هو أبو نصر ، إسماعيل بن حماد الفارابي –بلدة من بلاد الترك- اللغوي الأصولي ، قال ياقوت : من أذكياء العالم، من أشهر كتبه : الصحاح في اللغة ، توفي سنة أربعمائة تقريباً . انظر إنباه الرواة (١٩٤/١) ، والنجوم الزاهرة (٢٠٧/٤) ، ومعجم الأدباء (١٥١/٦) ، ولسان الميزان (٤٠٠/١) ، وبغية الوعاة (٤٤٦/١) .

(٣) الصحاح للجوهري (١٤٩٤/٤) ، وانظر لسان العرب (١٥٢/٤٠) .

(٤) هو أبو البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي القاضي ، توفي وهو قاض بالقدس ، سنة خمس وتسعين وألف . انظر الأعلام للزركلي (٣٨٣/١) .

(٥) الكليات صفحة (٥٠٨) وهو معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، قابله : عدنان درويش ، ومحمد المصري .

(٦) (٤١٥/١) إصدار مجمع اللغة ، الطبعة الثانية لدار المعارف بمصر .

بـــ : الكلام الذي يبيِّن معنى ما بعده .

– النوع الثاني : اللحاق :

أ – تعريف اللحاق لغة : قال ابن فارس : "اللام والحاء والقاف ، أصل يدل علـــى إدراك شيءٍ وبلوغه إلى غيره ، يقال : لَحِقَ فلان فلاناً فهو لاحِقٌ ، وأُلْحِقَ بمعناه...وربما قالوا : لَحِقْتُه اتَّبَعْتُهُ، وأَلْحَقْتُهُ وصلت إليه...".[١]

وقال الزبيدي :" وتلاحَقَتِ الأخبارُ : تَتَابَعَتْ ، وكذا أحوال القوم ، وهو مجاز."[٢]

فتبيّن مما سبق أن معنى كلمة : لحاق في اللغة ، إدراك شيء لشيء ، وتجاوزه إلى ما بعـــده ، وبين المدرِك والمدرَك رابطة ولُحْمَةٌ .

ب – تعريف اللحاق اصطلاحاً : بالنظر إلى المعنى اللغوي لكلمـــة لحـــاق ، ولتطبيقـــات المفسرين، وغيرهم ، يمكن تعريف اللحاق بـــ : الكلام الذي يُبَيِّن معنى ما قبله .

وهذان النوعان : السّباق واللّحاق ، يطلق عليهما جميعاً : السياق ، قال الكفوي – رحمه الله – بعد تعريف السباق – بالموحدة – : " والسياق – بالمثنَّاة – أعمّ ." [٣]

أي : أن السياق أعم من السباق ؛ فيدخل اللحاق في مسمى السياق . فكل سباق ســـياق ، وكل لحاق سياق . – والله أعلم – .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٨) .

(٢) تاج العروس (٧/٦١) .

(٣) الكليات صفحة (٥٠٨) .

– المطلب الثالث : الأمثلة على السياق :

والأمثلة على قسمين :

القسم الأول : الأمثلة من منقول ابن جرير–رحمه الله–.

القسم الثاني : الأمثلة من مقول ابن جرير–رحمه الله– لا منقوله .

القسم الأول: الأمثلة من منقول ابن جرير–رحمه الله –:

لما كان جامع البيان عمدة التفسير بالمنقول– المأثور– ، كان ذكر المنقول عن السلف مهمّاً من هذا الباب ، والأمثلة ستكون على أقسام ثلاثة ، على السباق وعلى اللحاق وعلى اجتماعهما متنازعين:

أ – الأمثلة على السباق .

ب – الأمثلة على اللحاق .

ج – مثال على التنازع – في فهم – السياق بين سباق ولحاق .

أ – الأمثلة على السباق :

عن عكرمة [(١)] : أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس –رحمه الله– : " أعمى البصر ، أعمى القلب ، يزعم أن قوماً يَخْرجون من النار ، وقد قال الله – جلّ وعزّ – : ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾ [المائدة: ٣٧] [(٢)] ، فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها !! ، هذه للكفار ." [(٣)]

---

(١) هو أبو عبد الله ، عكرمة بن عبد الله بربري الأصل المدني ، مولى ابن عباس ، طلب العلم أربعين سنة ، وكان ابن عباس يربطه بالكبل في رجله حتى يتعلم القرآن والسنة ، ثقة ثبت عالم بالتفسير ، لا يثبت عنه بدعة ، توفي بالمدينة سنة خمس ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (١٢/٥) ، وتهذيب التهذيب (١٣٤/٤) ، وطبقات المفسرين للداودي (٣٨٠/١) .

(٢) المائدة (٣٧) ونصها : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ .

(٣) جامع البيان (٥٦٧/٤–٥٦٨) وتحقيق شاكر (٢٩٤/١٠) .

والآية التي فوقها –أي قبلها –هي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦] .

وعن يسيع الحضرمي [(١)] قال : " كنت عند علي بن أبي طالب –رضوان الله عليه– فقال رجل : يا أمير المؤمنين : أرأيت قول الله : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١] ؛ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ؟ قال له علي : ادنه ، ادنه ! ، ثم قال : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء: ١٤١] يوم القيامة." [(٢)]

فبين علي – رضي الله عنه – أن محل إشكال السائل ؛ محدّد في الآية باليوم الآخر، بدلالة السباق ، وهي قوله :﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ [(٣)].

ب – أما الأمثلة على اللحاق فمنها :

عن قتادة [(٤)] في قوله :﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] " متى يكون ذلك ؟ قال : يوم القيامة ؛ ألا ترى أنه يقول :﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩] ؟!."[(٥)]

فجملة : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ لحقت الآية المسئول عنها ؛ ففسّرت وقت الحدث ، بأنه

---

(١) هو يُسيع بن معدان الحضرمي ، وثقه النسائي ، وقال ابن المديني : معروف ، وذكره ابن حبان في الثقات . انظر كتاب الثقات (٥/٥٥٨) لابن حبان ، وتهذيب التهذيب (٤/٤٣٨) .

(٢) جامع البيان (٤/٣٣١) وتحقيق شاكر (٩/٣٢٧) .

(٣) رجح ابن القيم العموم في الآية فهذا الوعد للمؤمنين متى اكتمل إيمانهم ، وإن تخلف شيء كما في وقعة أحد فبسببهم . انظر بدائع التفسير (٢/٨٦) .

(٤) هو أبو الخطاب ، قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي –والسدوسي نسبة إلى سدوس بن شيبان –، البصري الحافظ المفسر ، ولد سنة ستين ، تابعي ، تكلم في القدر ، له تفسير في مجلد ، رواه عنه شيبان التميمي ، توفي بالطاعون ، سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل ثمان عشرة . انظر الأنساب (٢/٢٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩) ، ووفيات الأعيان (٤/٨٥)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٤٣) .

(٥) جامع البيان (٥/١٣٧) وتحقيق شاكر (١١/٢٣٥) ، والآية من المائدة رقم (١١٩) .

يوم القيامة .

وقال أبو معشر [(١)]: " سمعت عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود [(٢)]، يذاكر محمد بن كعب[(٣)] في قول الله :﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجر: ٢٤] **فقال عون...**: خير صفوف الرجال المقدم ، وشر صفوف الرجال المؤخر ، وخير صفوف النساء المؤخر ، وشر صفوف النساء المقدم . فقال محمد بن كعب : ليس هكذا ! ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾: الميت والمقتول ، والمستأخرين : من يلحق بهم من بعد ؛ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر: ٢٥] فقال عون بن عبد الله : وفقك الله وجزاك خيراً."[(٤)]

فاستدلّ محمد بن كعب بجملة :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ اللاحقة ، على معنى المستقدِم والمستأخِر، وأنه المقتول والحي ؛ لقوله :﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ وهو البعث .

وقال ابن زيد – رحمه الله – [(٥)]: في قوله :﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨] " الأثام الشر ، وقال: سيكفيك ما وراء ذلك :﴿ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٩]" [(٦)]

---

(١) هو نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني ، قال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن أبي حاتم : صالح لين الحديث محله الصدق ، توفي سنة سبعين . انظر التاريخ الكبير (١١٤/٨) ، والجرح والتعديل (٤٩٤/٨) ، وتحقيق شاكر (٢١٩/٢) .

(٢) هو أبو عبد الله ، عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الزاهد ، وثقه أحمد وابن معين ، رمي بالإرجاء ، قال العجلي : ثم تركه ، توفي بعد العشرين ومائة وقيل غير ذلك . انظر تهذيب الكمال (٤٥٣/٢٢) ، وتهذيب التهذيب (٣٣٨/٣) .

(٣) هو أبو حمزة ، محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني ، من حلفاء الأوس ، وكان أبوه من سبي بني قريظة ، قال الذهبي : كان من أئمة التفسير . كان له جلساء عظماء في التفسير في مسجد الربذة فأصابتهم زلزلة فسقط عليهم المسجد فماتوا جميعاً –رحمهم الله – سنة ثمان ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر حلية الأولياء (٢١٢/٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٠٣/٥) ، وتهذيب التهذيب (٣٣٨/٣) .

(٤) جامع البيان (٥٠٧/٧) .

(٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري مولاهم المدني ، جمع تفسيراً في مجلد ، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ ، ضعفه في رواية الحديث ابن معين والنسائي وابن حجر ، وأما في التفسير فإمام ، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة . انظر ميزان الاعتدال (٥٦٤/٢) ، وتهذيب التهذيب (٥٧٠/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٦٥/١) .

(٦) جامع البيان (٤١٧/٩) .

ففسّر الأثام بالآية اللاحقة ، وهو العذاب الواقع في الدار الآخرة .

وقال أيضاً –رحمه الله–: في قوله : ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قال : " هــذه في الحيــاة الدنيا؛ ألا تراه يقول :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قال : حين تنقطع الدنيا، ويعاين الآخرة ، قبل أن يذوق الموت ." (١)

فاستدلّ بقوله : ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ ، على أن الروح لم تخرج بعد ؛ إذن الموصوف لازال في الحياة الدنيا .

ج – مثال على التنازع – في فهم – السياق بين سباق ولحاق :

لقد تبينت أهمية السباق واللحاق في تفسير كتاب الله – عز وجل – ، ولكن قد يجتمعان فيُفهم أنهما متنازعان في المعنى ، فلا تدري هل تلحق الكلام بما قبله ، أم تتبعه بما بعده ؛ ولتوضيح هذه المسألة ، إليك هذه القصة :

أرسل مجاهد – رحمه الله – (٢) رجلا يقال له : قاسم (٣) إلى عكرمة – رحمه الله –، يسأله عن قول الله :﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] إنما هو الدين ، وقرأ : ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] .

وفي رواية قال أرسل القاسم بن أبي بزّة : فسل عنها عكرمة ، قال فسألته ، فقال عكرمــة : دين الله –تعالى–!!...ألم يسمع إلى قوله :﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الــروم:

---

(١) جامع البيان (٩/٢٤٢) .

(٢) هو أبو الحجاج ، مجاهد بن جبر المكي ، مولى بني مخزوم ، تابعي مفسر ، من أهل مكة ، عرض القرآن على ابــن مســعود ثلاث مرات ، يسأله في كل مرة عن كل آية ، له تفسير مطبوع ، بتحقيق الدكتور محمد عبد السلام نبيل ، تــوفي وهــو ساجد سنة اثنتين ومائة ، وقيل غير ذلك ، وقد نيّفَ على الثمانين . انظر معرفة القراء الكبار (١/٦٦) ، وغايــة النهايــة (٢/٤١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٣٠٥) .

(٣) هو القاسم بن نافع بن أبي بزّة ، وأبو بزّة اسمه يسار ، ثقة مكي ، هو وحده الذي سمع التفسير من مجاهد ، وكل مــن روى عن مجاهد فقد أخذ عن القاسم هذا . انظر الجرح والتعديل (٧/١٢٢) ، وتحقيق شاكر (١/٤٧٧) .

٣٠]؟! .[1]

فمجاهد يفسّرها بما لحق وأنه الدّين ؛ ولذلك قرأ : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ ، وعكرمة يردّ هذا بما سبق وأنه الفطرة ؛ ولذلك قرأ قوله : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ .

وهذا يبين لك أهمية النظر إلى سباق ولحاق المفسَّر ، مع أن كلام الله – عز وجل – حمّال للوجوه ، ولكن ينبغي الدقة في اختيار الأقرب ، والأليق بالكلام المعجز ، والمناسب للسياق . – والله أعلم –.[2]

القسم الثاني : الأمثلة على السياق ، من مقول ابن جرير ، وهو على ثلاثة أقسام :

أ – الأمثلة على السباق .

ب – الأمثلة على اللحاق .

ج – الأمثلة على اجتماع السباق واللحاق .

أ – الأمثلة على السباق :

قال ابن جرير –رحمه الله–: عند تفسير قوله –تعالى–:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [البقرة: ١١٨] "اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا

---

(١) جامع البيان (١٨٣/١٠-١٨٤) .

(٢) وقد قال ابن القيم في الآية :"ولا منافاة بين القولين ، كما قال تعالى :﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [النساء: ١١٩] ، فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه ، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضا ؛ ولهذا شبه النبي – ﷺ– أحدهما بالآخر ، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة ، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه !!." بدائع التفسير ٣٩٤/٣ .، وذكر في موضع آخر الحديث الذي جمع الأمرين ، وهو قوله – ﷺ– :"ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تُنْتَج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟".بدائع التفسير ٣٩١/٣ . ومن أمثلة التنازع ما جاء في سورة ق، وسيرد صفحة ١١٨-١١٩ .

ٱللَّهُ ﴾ فقال بعضهم : عنى بذلك النصارى...وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ...وقال آخرون : بل عنى بذلك مشركي العرب...

وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل : إن الله –تعالى–عنى بقوله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ النصارى دون غيرهم ؛ لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، وعن افترائهم عليه ، وادّعائهم له ولداً ." (١)

وهذا الافتراء والادعاء على الله –عز وجل– منهم ، قد سبق منهم في الآيات التي قبلها (٢).

– وعند تفسير قوله –تعالى–: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، ذكر قولين :

الأول : ليس البر الصلاة وحدها، ولكن البر الخصال التي أبينها لكم ، ويكون الخطاب حينئذٍ للمسلمين .

والثاني: أن المقصود اليهود والنصارى ، فاليهود تصلي إلى جهة المغرب ، والنصارى إلى جهة المشرق ، فأنــزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم أن البر غير العمل الذي يعملونه...

ثم "**قال أبو جعفر** : وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية...أن يكون عنى بقولــه :﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ ﴾ اليهود والنصارى ؛ لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم ، والخبر عنهم ، وعما أعد لهم من أليم العذاب ، وهذا في سياق ما قبلها..." (٣)

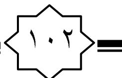
فالسياق حدّدَ المخاطب فهم أهل الكتاب ؛ لأنهم وصفوا قبل هذه الآية بكتمان ما أنــــزل

---

(١) انظر جامع البيان (١/٥٦٠) ، وتحقيق شاكر (٢/٥٥٠) .

(٢) انظر الآيات (١١٤–١١٧) من البقرة وهي : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾ البقرة: [١١٤ – ١١٧] .

(٣) جامع البيان (٢/٩٩–١٠٠) ، وتحقيق شاكر (٣/٣٣٨) .



الله[1].

وفي قوله –تعالى-:﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٣٥] بَيَّنَ أن مراد فرعون بقوله : ﴿ يُخْرِجَكُم ﴾ بني إسرائيل ؛ لأن القبط استعبدوهم ، ثم **قال** : " وإنما قلت معنى ذلك كذلك ؛ لأن الله إنما أرسل موسى إلى فرعون ، يأمره بإرسال بني إسرائيل معه ، فقال له ولأخيه : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٦ – ١٧] "[2].

وهاتان الآيتان الماضيتان ، سبق ذكرهما أول السورة في القصة نفسها .

ب – الأمثلة على اللحاق :

–عند تفسير قوله –تعالى-:﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٧١] **قال –رحمه الله–** : " قيل في معنى قولهم : بينت لنا أيَّ البقر عنيت ، وقيل : إنه تكذيب لما قبل ذلك ، من أمر موسى بذبح البقرة .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين عندنا بقوله : ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآن بينت لنا الحق في أمر البقرة ، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها ؛ لأن الله –جل ثناؤه– قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها بعد قيلهم هذا ، مع غلظ مؤونة ذبحها عليهم ، وثقل أمرها ، فقال :﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١] "[3].

فاستدلّ بذبحهم لها ، على أنّ قولهم السابق : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ معنى الحق أي: الواضح ،

(١) انظر الآيات (١٧٤–١٧٦) من البقرة وهي : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٤ – ١٧٦] .

(٢) انظر جامع البيان (٩/٤٤١) .

(٣) انظر جامع البيان (١/٣٩٦) ، وتحقيق شاكر (٢/٢١٧) .

وليس معنى الحق : الذي هو مقابل الباطل ؛ لأن هذا يبطل إيمانهم ، فيعتبر تكذيباً لموسى ، ولا يحصل من المكذب طاعة فيها مؤونة وثقل كما وقع منهم .

وفي قوله -تعالى-: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] **قال ابن جرير -رحمه الله-:** " إن قال لنا قائل : وما وجه مسألة هؤلاء القوم ربهم أن يؤتيهم ما وعدهم ، وقد علموا أن الله منجز وعده ، وغير جائز أن يكون منه إخلاف موعد ؟ قيل : اختلف في ذلك أهل البحث ، فقال بعضهم : ذلك قول خرج مخرج المسألة ، ومعناه الخبر...وقال آخرون : بل ذلك قول من قائله على معنى المسألة والدعاء لله ، بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم ، من الكرامة على ألسن رسله... وقال آخرون : بل قالوا هذا القول على وجه المسألة والرغبة منهم إلى الله، أن يؤتيهم ما وعدهم ، من النصر على أعدائهم من أهل الكفر ، والظفر بهم ، وإعلاء كلمة الحق على الباطل ، فيعجل ذلك لهم...

قال أبو جعفر : والذي هو أولى الأقوال بالصواب في ذلك عندي : أن هذه الصفة، صفة من هاجر من أصحاب رسول الله – ﷺ – من وطنه وداره ، مفارقاً لأهل الشرك بالله، إلى الله ورسوله ، وغيرهم من تُبَّاع رسول الله –ﷺ – الذين رغبوا إلى الله في تعجيل نصرهم على أعداء الله وأعدائهم ، فقالوا : ربنا آتنا ما وعدتنا من نصرتك عليهم عاجلاً ، فإنك لا تخلف الميعاد ، ولكن لا صبر لنا على أناتك وحلمك عنهم ، فعجِّل لهم خزيهم ، ولنا الظفر عليهم، يدل على صحة ذلك آخر الآية الأخرى، وهو قوله :﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١٩٥] " .[(١)]

– وعند قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف: ١١] **قال -رحمه الله- :** " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم :تأويل ذلك :وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ في ظهر آدم أيها الناس ، ثُمّ صَوّرْناكُمْ في أرحام النساء ، خلقاً

(١) وانظر جامع البيان (٣/٥٥٤-٥٥٥) ، وتحقيق شاكر (٧/٤٨٣) .

مخلوقاً ، ومثالاً ممثّلاً في صورة آدم...وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولقد خلقناكم في أصلاب آبائكم، ثم صوّرناكم في بطون أمهاتكم...وقال آخرون : بل معنى ذلك : خَلَقْناكُمْ يعني : آدم ، ثُمّ صَوّرْناكُمْ يعني : في ظهره...وقال آخرون : معنى ذلك: ولقد خلقناكم في بطون أمهاتكم، ثم صورناكم فيها...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : تأويله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ ولقد خلقنا آدم ، ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ بتصويرنا آدم ، كما قد بيّنا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تضيفها إليه ، والمعنيّ في ذلك سلفه ، وكما قال –جلّ ثناؤه– لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله –ﷺ–: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] وما أشبه ذلك من الخطاب الموجّه إلى الحيّ الموجود والمراد به السلف المعدوم ، فكذلك ذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ معناه : ولقد خلقنا أباكم آدم ، ثم صوّرناه ، وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب ؛ لأن الذي يتلو ذلك قوله : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ ومعلوم أن الله – تبارك وتعالى – قد أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يصوّر ذرّيته في بطون أمهاتهم ، بل قبل أن يخلق أمهاتهم ".[1]

فالتعبير بلفظ ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ و ﴿ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ مراد به آدم ؛ للحاق أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، وذلك يقيناً قبل خلق أم البشر حواء ، فلا تدخل ذريته من باب أولى .

ج – الأمثلة على استدلاله بالسباق واللحاق معاً :

إذا كان السباق قد يدل على المعنى بمفرده ، واللحاق كذلك ، فكيف لو اجتمعا في موضع واحد ! ، كيف لو انضم نور إلى نور! ، وبرهان إلى برهان ! ، وحجة إلى أخرى ! ، لننظر تفسير الإمام ابن جرير لأمثلة من هذا النوع :

– ففي قوله –تعالى–: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة: ١١٤] **قال –رحمه الله–** : " فإن قال قائل : ومن الذي عني بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ

---

(١) جامع البيان (٥/٤٣٧) ، وتحقيق شاكر (٢/٣١٧) .

﴿ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ وأيّ المساجد هي ؟ قيل : إن أهل التأويل في ذلك مختلفون : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس...وقال آخرون : وهو بختنصر[(١)] وجنده ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد : مسجد بيت المقدس...وقال آخرون : بل عَنى الله –عزّ وجل– بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله –ﷺ– من المسجد الحرام...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال:...النصارى، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه ، بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده...وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام...وأخرى: أن الآية التي قبل قوله :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى، وذَمّ أفعالهم ، والتي بعدها نبهت بذمّ النصارى ، والخبر عن افترائهم على ربهم ، ولم يَجْرِ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله –عز وجل–:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام . وإذْ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أَوْلى بالآية أن يوجه تأويلها إليه ، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً ، إلاّ أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت..." [(٢)]

– وفي قوله –تعالى–:﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال –رحمه الله–: "اختلف أهل التأويل فيمن عُني بهذه الآية: فقال بعضهم: عُني بها المسلمون من أمة محمد –ﷺ–،وفيهم نزلت...وقال آخرون:عُني ببعضها أهل الشرك ، وببعضها أهل الإسلام...

---

(١) هو أحد ملوك الأرض ، كان كاتباً عند ملك الجزيرة ، فقتل الابن أباه الملك ، فغضب بختنصر وقتل الابن وتسلم الملك ، ثم غزا بني إسرائيل وانتصر عليهم ، ثم رده الله عنهم ، ثم فسقوا فجاءهم وانتصر عليهم ، وقتل منهم وصلب ، وباع ذراريهم ونساءهم ، ومثل بهم وأسر منهم الكثير ، ثم لحق بأرض بابل . انظر المعارف صفحة (٣٢و٤٦و٥٦٢).

(٢) جامع البيان (٥٤٧/١) ، وتحقيق شاكر (٥١٩/٢) .

قال أبو جعفر : والصواب من القول عندي أن يقال : إن الله – تعالى ذِكْرُه – توعّد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان ، وإياهم خاطب بها ؛ لأنها بين إخبارٍ عنهم وخطاب لهم ، وذلك أنها تتلو قوله :﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣ – ٦٤] ويتلوها قوله :﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦] ...وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين ، فإذ كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك ، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين ، كان بيِّناً أن ذلك وعيدٌ لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك، وتأخّر الخبر عنه بالتكذيب ، لا لمن لم يَجْرِ له ذِكْرٌ..." [١]

–وفي قوله –تعالى–:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجر: ٢٤] قال –رحمه الله– : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم: معنى ذلك : ولقد علمنا من مضى من الأمم فتقدّم هلاكهم ، ومن قد خلق وهو حيّ ، ومن لم يخلق بعدُ ممن سيخلق...وقال آخرون : عنى بالمستقدمين : الذين قد هلكوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يهلكوا...وقال آخرون : بل معناه : ولقد علمنا المستقدمين في أوّل الخلق والمستأخرين في آخرهم...وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمد – ﷺ–...وقال آخرون : بل معناه : ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير والمستأخرين عنه...وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة ، والمستأخرين فيها بسبب النساء...

وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال : معنى ذلك : ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين ، الذين استأخر موتهم ممن هو حي ، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ ؛ لدلالة ما قبله من الكلام ، وهو قوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ٢٣] وما بعده ، وهو قوله :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ [الحجر: ٢٥] على أن ذلك كذلك ؛ إذ كان بين هذين الخبرين ، و لم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدل على خلافه ، ولا جاء بعد..."[٢].

(١) جامع البيان (٥/٢٢٣) ، وتحقيق شاكر (١١/٤٢١) .

(٢) جامع البيان (٧/٥٠٧) .

هذه بعض الأمثلة على السياق بنوعيه : السباق ، واللحاق ، مفترقين ومجتمعين ، من ما نقله ابن جرير عن المفسرين السابقين ، من الصحابة والتابعين ، ومن قوله ، وسيأتي في البحث نماذج أخرى كثيرة ، — إن شاء الله – والله الموفق .

المبحث الثاني : أهمية دلالة السياق القرآني في التفسير:

بعد التعريف للسياق القرآني ، وذكر أنواعه ، والتمثيل عليها ، يحسن التعـرّف الآن إلى أي مدى تكون العناية بالسياق ؟ ، وما مقدار أهميته ؟ ، وما منـزلته ؟ ، وهل الأولى مراعاته دائماً ؟ ، أم في بعض الأحيان ؟ .

للإجابة على أهمية السياق : تجد أن درجته رفيعة ، ومنـزلته عالية ، ومقداره مهم جداً ؛ ومما يدل على ذلك : اعتناء العلماء عامة ، والمفسرين خاصة بالسياق .

وهذا الاهتمام من العلماء يتضح في مطالب :

المطلب الأول : الأمر بالاعتناء بالسياق مطلقاً ، وجعله طريقاً سليماً لتفسير كلام الله الكريم .

المطلب الثاني : الاستدلال بالسياق في التفسير ، والرجوع إليه عند الاختلاف .

المطلب الثالث : تأليف العلماء كثيراً في الوجوه والنظائر ، وفي غريب القرآن .

المطلب الرابع : اهتمام العلماء بالمناسبات .

المطلب الأول : الأمر بالاعتناء بالسياق مطلقا ، وجعله طريقا سليما لتفسير كلام الله الكريم :

لقد كان السياق عند العلماء أساساً في فهم كل كلام ، لاسيما في النصوص الشرعية ، التي هي مرجع الشريعة الإسلامية ، وخاصة القرآن الكريم ، وإليك بعض هذه النصوص التي تأمر بالاهتمام به ، والتي تنص على أهميته عند التفسير على وجه الخصوص :

فهذا مسلم بن يسار –رحمه الله– (١) **يقول** : "إذا حدّثتَ عن الله حديثاً فقف !، حتى تنظر ما قبله ، وما بعده ". (٢)

وهذا يدلّ على الاهتمام به في كل تفسير ، قل أو كثر ، صغر أو كبر .

وكان عزّ الدين بن عبد السلام –رحمه الله– (٣) من أقدم من توسع في الحديث عن السياق ، وفصّل فيه نظريّاً ، ومن ذلك قوله :

"السّياق مرشد إلى تبيين المجملات ، وترجيح المحتملات ، وتقرير الواضحات ، وكل ذلك بعرف الاستعمال .

فكلّ صفةٍ وقعت في سياق المدح كانت مدحاً ، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً، فما كان مدحاً بالوضع ، فوقع في سياق الذم ؛ صار ذماً واستهزاءً وتهكُّماً ، بعرف الاستعمال . مثاله: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] أي : الذليل المهان ؛ لوقوع ذلك في سياق الذم ،

---

(١) هو أبو عبد الله ، مسلم بن يسار البصري الفقيه ، مولى ، تابعي ثقة ، روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، توفي سنة مائة وقيل إحدى ومائة . انظر تهذيب الكمال (٢٧/٥٥١) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٥١٠) ، وتهذيب التهذيب (٤/٧٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (١/٦) .

(٣) هو أبو محمد ، عزّ الدين ، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي ، ولد سنة ست أو سبع وخمسمائة ، الملقب بسلطان العلماء ، له القواعد الكبرى والصغرى ، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وغيرهما ، توفي سنة ستين وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٨/٢٠٩) ، وفوات الوفيات (١/٥٩٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١/٣٠٩) .

وكذلك قول قوم شعيب :﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧] أي : السفيه الجاهل ؛ لوقوعه في سياق الإنكار عليه ، وكذلك :﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] ؛ لوقوعه في سياق ذمهم بإضلال الأتباع .

وأما ما يصلح للأمرين[1]:فيدلّ على المراد به السّياق، كقوله –تعالى–: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] أراد به عظيماً في حسنه وشرفه ؛ لوقوع ذلك في سياق المدح ، وقوله:﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] أراد به عظيماً في قبحه ؛ لوقوع ذلك في سياق الذم .

وكذلك صفات الرب المحتملة للمعاني المتعددة : تحمل في كل سياق على ما يليق به، كقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠] تمدح بسهولة في قدرته، وكذلك قوله :﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

وأما قوله :﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٣٠] وقوله :﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٠] فإن المراد في هاتين الآيتين: احتقار المعذّب وعنَتُه ، [2] وإنما جاز ذلك ؛ لأن من هان عليك ، سهل عليك عذابه وعنته، ومن عزّ عليك صعب عليك مصابه ومشقّتُه ، وإنما حُمِل على الاستهانة ؛ لأنه لا يصلح من الرب التمدّح بالقدرة على تعذيب امرأة أو رجل ، إذ التمدّح من الربِّ بأدنى الصفات قبيحٌ في عرف الاستعمال ؛ ولذلك يقبح أن يقال : سيبويه [3] يَعرف أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، والشافعي : يعرف مسألة إزالة النجاسة ، وجالينوس[4]: يعرف أن الصفراء [1] حادّةٌ يابسة ، وكذلك العزيز : في

---

(١) أي يطلق في اللغة : ويراد به المدح ، وفي حين آخر : يراد منه الذم .

(٢) العنت : الهلاك والمشقة . انظر ترتيب القاموس المحيط ، مادة عنت (٣/٣٢٠) .

(٣) هو أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قُنْبُر أو قَنْبر ، مولى بني الحارث ، إمام النحو ، الملقب بسيبويه أي : رائحة التفاح ، أخذ عن الخليل بن أحمد ، له الكتاب في النحو ، جُمِع بينه وبين نحويين فاستذلوه فخرج من بغداد لبعض مدن فارس ، فمات وهو شاب عمره اثنتين وثلاثين سنة ، وذلك سنة تسع وسبعين ومائة ، وقيل ثمانين . انظر المعارف صفحة (٥٤٤) ، وإنباه الرواة (٢/٣٤٦) ، وبغية الوعاة (٢/٢٢٩) .

(٤) جالينوس من حكماء اليونان ، ولد حوالي سنة مائة وثلاثين ميلادية ، عالم في الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية ، له =

أوصاف الرب — سبحانه — يطلق بمعنى الغالب القاهر ، ويطلق بمعنى الممتنع من العيب والضّيم [٢] ، ويطلق بمعنى الذي لا نظير له ، ويحمل كل سياق على ما يليق به ".[٣]

وهذا الكلام القيّم تميّز به عزّ الدين —رحمه الله — ؛ لتقدمه على غيره في تقعيده وتمثيله للسياق فيما يظهر ، وهو تقسيم للسياق بحسب ما يناسب المتكلِّم به ، والمتكلَّم فيه، والحال المتكلَّم فيها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية —رحمه الله— : "فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه ، وما يحفّ به من القرائن اللفظية والحالية ".[٤]

ثم قال : "فمن تدبَّر ما ورد في باب أسماء الله -تعالى-وصفاته ، وأن دلالة ذلك في بعض المواضع على ذات الله أو بعض صفاته ، لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد ، حتى يكون ذلك طرداً للمثبِت ، ونقضاً للنافي ، بل يُنظَر في كل آية وحديث، بخصوصه وسياقه ، وما يُبيْن معناه من القرائن والدلالات ، فهذا أصل عظيم مهمٌّ نافع ، في باب فهم الكتاب والسنة ، والاستدلال بهما مطلقاً ، ونافع في معرفة الاستدلال ، والاعتراض، والجواب ، وطرْد الدليل ونقْضِه ، فهو نافع في كلِّ علمٍ خبريٍّ أو إنشائيٍّ ، وفي كل استدلال أو معارضة من الكتاب والسنة ، وفي سائر أدلة الخلق".[٥]

فانظر كيف كان السياق – عند ابن تيمية – هو الأصل العظيم في فهم الكتاب والسنة ، وفي كل العلوم أيّاً كانت ، بل وفي جميع حجج الخلق .

=

ستة عشر ديواناً في الطب وغيرها ، وتوفي سنة مائتين وقيل وثماني عشرة . انظر طبقات الأطباء والحكماء صفحة (٤١) ، لأبي داود المعروف بجلجل .

(١) الصّفراء : من الصفر ، داء في البطن يصفر منه الوجه . انظر : لسان العرب ، مادة صفر (٤/٤٦٠) .

(٢) الضّيم : الظلم ، وضامه حقه : نقصه حقه . انظر : لسان العرب مادة ضمم (١٢/٣٥٩) .

(٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام صفحة (١٥٩-١٦٢)،لعز الدين بن عبد السلام ، تحقيق : رضوان مختار بن غربية .

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٤) .

(٥) مجموع الفتاوى (٦/١٨-١٩) .

وقال أيضاً : " فمن تدبر القرآن ، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد ، من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرّد ، عن سائر ما يبين معناه ، فهذا منشأ الغلط من الغالطين ".(١)

ويكفي في بيان أهميته أنه يوصل إلى الحق والسداد،وأن مُهمِلَه يقع في الغلط لا محالة.

وقال أيضاً : في ذكر أسباب الغلط في التفسير : " مراعاة مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يُريدَ به العربي ، من غير نظر إلى ما يَصلُح للمتكلِّم به ، ولسِيَاق الكلام ".(٢)

وقال أيضاً : " فتأمُّل ما قبل الآية وما بعدها ، يُطلعك على حقيقة المعنى "(٣).

وقال الإمام ابن جزي الكلبي –رحمه الله – (٤) : من أوجه الترجيح : " أن يَشهد بصحة القول سياق الكلام ، ويدل عليه ما قبله ، وما بعده " (٥).

وقال العلامة ابن القيم –رحمه الله– (٦) : " دلالة السياق : فإنها ترشد إلى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره ، وغلط في مناظراته ."(٧)

---

(١) مجموع الفتاوى (٩٤/١٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥٦/١٣) .

(٣) دقائق التفسير (٤١٣/٣) جمع الدكتور محمد السيد الجليند .

(٤) هو أبو القاسم ، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي ، فقيه أصولي مفسر لغوي ، صاحب تفسير التسهيل ، وأصول القراء الستة غير نافع ، وغيرهما ، قتل يوم الكائنة بطريف ، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٤٤٦/٣) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٨١/٢) .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٩/١) ، الطبعة الأولى للمكتبة التجارية ١٣٥٥هـ .

(٦) هو أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي العلامة المجتهد ، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، وتتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأخذ عنه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، مؤلفاته كثيرة وقيّمة ، منها: زاد المعاد في هدي خير العباد ، والتبيان في أقسام القرآن ، وإعلام الموقعين ، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة . انظر شذرات الذهب (١٦٨/٦) ، والدرر الكامنة (٢١/٤) ، وطبقات المفسرين (٩٠/٢) .

(٧) بدائع الفوائد (٩/٤-١٠) ، دار الكتاب العربي .

وقال في نونيتة :

" قالوا : وإيْرادُ السِّياقِ يُبَيِّــنُ   المضمونَ منه بأوضحِ التِّبْيانِ ".[١]

وقال الإمام الشاطبي –رحمه الله– [٢] في الضابط المعوّل عليه في الفهم : " إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال ، والأوقات ، والنوازل ، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم ، الالتفات إلى أول الكلام وآخره ، بحسب القضية ، وما اقتضاه الحال فيها ، لا ينظر إلى أولها دون آخرها ، ولا آخرها دون أولها ، فإن القضية وإن اشتملت على جُمَلٍ فبعضها متعلق بالبعض ؛ لأنها قضية واحدة نازلة في شأن واحد ، فلا محيص للمتفهِّم عن ردِّ آخر الكلام على أوله ، وأوله إلى آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف..." [٣]

وقال الإمام الزركشي –رحمه الله– [٤] : " دلالة السياق أنكرها بعضهم ، ومن جهل شيئاً أنكره [٥]. وقال بعضهم : إنها متفق عليها في مجاري كلام الله – تعالى –.

وقد احتجّ بها أحمدُ على الشافعيّ ، في أنّ الواهب ليس له الرجوع ، من حديث : "العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه"[٦] حيث قال الشافعي : هذا يدل على جواز الرجوع؛ إذ قيء الكلب ليس

---

(١) الكافية الشافية وهي : القصيدة النونية مع شرحها ، للدكتور محمد خليل هراس (٢١٥/١) ، وهو يتحدث في الأبيات عن معنى اليوم في آية المعارج (٤) : {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} .

(٢) هو أبو إسحاق ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي ، أصولي حافظ ، له مؤلفات فائقة ، منها: الموافقات ، والاعتصام ، توفي سنة تسعين وسبعمائة . انظر درّة الحجال (١٨٢/١) ، والأعلام (٧١/١) .

(٣) الموافقات (٢٦٦/٤) .

(٤) هو بدر الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، تركي الأصل ، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فقيه أصولي محدث أديب فاضل ، من مؤلفاته البحر المحيط في أصول الفقه ، والبرهان في علوم القرآن ، وتفسير وصل فيه إلى سورة مريم ، توفي بالقاهرة سنة أربع وتسعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (١٧/٤) ، وشذرات الذهب (٣٣٥/٦)، وطبقات المفسرين للداوودي (١٥٧/٢) .

(٥) وهذا فيه رد عليهم بأن هذا القول بسبب جهلهم لا علمهم .

(٦) رواه البخاري : في كتاب الهبة ، باب هبة الرجل لامرأته والمرأة لزوجها ، صفحة (٥١٤) رقم (٢٥٨٩) ، ومسلم : في كتاب الهبات ، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض ، (١٢٤٠/٣) حديث (١٦٢٢) .

محرماً عليه ، فقال أحمد : ألا تراه يقول فيه : "ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته..." الحديث . وهذا مثل سوءٍ فلا يكون لنا .

واحتجّ بها [أي : أحمد] في أن المراد بأنه استيعابهم [أصناف الزكاة الثمانية] واجب ، وسياق الآية يدل على الأول ، بقوله –تعالى-:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة: ٥٨] } فإن الله –تعالى–لما رأى بعض من لا يستحق الصدقة ، يحاول أن يأخذ منها ، ويسخط إذا لم يعط ، يقطع ببيان أن المستحق لها غيره ، وهم الأصناف الثمانية..."(١)

وقال أيضاً : " تنبيه : ليكن محطّ نظر المفسِّر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له ، وإن خالف أصل الوضع اللغوي ؛ لثبوت التجوّز ، ولهذا نرى صاحب الكشاف يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتى كأن غيره مطروح ".(٢)

وقال أيضاً : في تفسير ما لم يرد فيه نقل : " وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ ، من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتنصه من السياق ."(٣)

وقال أيضاً : " ومما يعين على معرفة المعنى عند الإشكال...: دلالة السياق : فإنها ترشد إلى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظيره، وغلط في مناظراته ، وانظر إلى قوله –تعالى-:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه ؛ يدل على أنه الذليل الحقير ".(٤)

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (٥٢/٦)،طبع وزارة الشئون الإسلامية بالكويت،تحرير الدكتور عبد الستار أبو غدة .
(٢) البرهان في علوم القرآن (٤٢٧/١) .
(٣) البرهان في علوم القرآن (٣١٣/٢) .
(٤) البرهان في علوم القرآن (٣٣٥/٢) . وهو نص كلام ابن القيم –رحمه الله– في بدائع الفوائد السابق (٩/٤–١٠) إلا أنه لم يذكر الآية .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا –رحمه الله–[١] : مقتبساً وشارحاً عن شيخه محمد عبده[٢]: " وقد قالوا إن بعض القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ ، موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذي جاء الكتاب بجملته "[٣].

وقال الشيخ السعدي –رحمه الله– [٤] : "وقد كثرت تفاسير الأئمة...فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مختصر يقتصر على حلِّ بعض الألفاظ اللغوية ، بقطع النظر عن المراد ، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يُجعل المعنى هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه ، فينظر في سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابَل بينه وبين نظيره في موضع آخر...فالنظر لسياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه..."[١].

---

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا بن منلا ، ولد سنة اثنين وثمانين ومائتين وألف ، ينتسب إلى علي –ﷺ– أورد ذلك حبيب السامرائي في كتابه : "رشيد رضا المفسر " ، أصله من بغداد ، كان أحد رجال المدرسة الإصلاحية ، والتلميذ القريب من محمد عبده ، ومن كبار الصحفيين والكتاب ، في الحديث والتفسير والأدب والتاريخ ، له تفسير المنار في اثني عشر مجلداً ، وصل فيه إلى سورة يوسف (١٠٧) ، ومجلة المنار في أربعة وثلاثين مجلداً ، وفتاوى وغيرها ، توفي بحادث سيارة ، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف . انظر الأعلام (٣٦١/٦) ، ومنهج المدرسة العقلية في التفسير (١٧٠/١) للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي .

(٢) هو محمد عبده ، بن حسن خير الله ، التركماني ، ولد سنة ست ، وقيل خمس وستين ومائتين وألف ، وهو مفتي مصر ، ومن رجال المدرسة الإصلاحية ، تأثّر بجمال الدين الأفغاني ، له أول تفسير المنار ، إلى سورة النساء (١٢٥) ، في خمسة أجزاء ، وتوفي ولم يكمله ، ثم أكمله محمد رشيد رضا ، ولمحمد عبده شرح نهج البلاغة ، وغيره ، وقد كانت له مواقف جهادية ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وله هنّات ، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف . انظر الأعلام (١٣١/٧) ، ومنهج المدرسة العقلية في التفسير (١٢٤/١) .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (٣٢/١) ، الطبعة الرابعة دار المنار ، ١٣٧٣هـ .

(٤) هو أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ، من قبيلة تميم ، ولد في عنيزة ، سنة سبع وثلاثمائة وألف ، فقيه أصولي مفسر ، من كتبه : تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، والقول السديد في مقاصد التوحيد . توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمة الشيخ في أول تفسيره صفحة (٥) لأحد تلامذته .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩–١٠) الطبعة الثانية ١٤١٧هـ لمؤسسة الرسالة ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن اللويحق.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم –رحمه الله– [١] : " ويبحث عن كون الآية مكملة لما قبلها ، أو مستقلّة ، وما وجه مناسبتها لما قبلها ، وكذا السور ".[٢]

ويتضح مما سبق أن السياق لابد منه في معرفة سبب ورود الآية أو الآيات ، وأنه مهم كذلك في فهم النص المرتبط بالسابق واللاحق ، وهو مجال مهم في التفسير ، بل إن المفسر لا يستغني عنه في أي حال ، ومهما كان اتجاهه ومنزعه ، فهو مما يعتمد عليه التفسير اعتماداً كبيراً .

وليس المقصود حصر أقوال العلماء الناصين على منزلته ، ووجوب العناية به ، ولكنه الإشارة بالقليل عن الكثير .

---

(١) هو جدي أب الأب ، فهو : أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي ، ولد ببلدة البير من المحمل شمال الرياض ، سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف ، جمع فتاوى شيخ الإسلام في خمسة وثلاثين مجلداً ، وشرح الروض المربع ، وله مقدمة في التفسير وحاشية عليها ، وغير ذلك ، تأثر في رأسه بحادث سيارة سنوات ، وتوفي –رحمه الله– سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته في أول كتاب حاشية الروض المربع (٣/١) للدكتور الشيخ : عبد الله بن عبد الرحمن ابن جبرين –رحمه الله –.

(٢) حاشية مقدمة التفسير صفحة (١٤٧-١٤٨) ، لعبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ .

المطلب الثاني : الاستدلال بالسياق في التفسير والرجوع إليه عند الاختلاف :

ولهذا أمثلة كثيرة منها :

ما روي عن النبي – ﷺ – أنه قال لعائشة –رضي الله عنها– لما سألته عن قوله –تعالى–: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقالت : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : "لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ، ويصلون، ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ، وهم لها سابقون ". [١]

وهذا مثال من السنّة واضح في استعمال اللاحق من الآيات ، في معرفة المعنى للجملة المفسَّرة، ورجع فيه النبي – ﷺ –إلى السياق ليحلَّ المشكل في الأذهان ، قال المباركفوري –رحمه الله– : " أولئك الذين... كذا في هذه الرواية ، وفي القرآن :﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١] ". [٢]

وهذا أوضح دليل من السنة على استعمال السياق فيما وصلت إليه .

وقد رجّح ابن كثير قراءة : ﴿يُؤْتُونَ﴾السبعية ، على قراءة : **{يأتون}** [٣]أي : الآثام بالسياق؛ لقوله بعدها :﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ ومن فعل الآثام كان من المقتصدين أو من المقصرين .– والله أعلم – [٤].

وسأل رجل عليَّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– فقال : يا أمير المؤمنين : أرأيت قول الله – عز وجلّ – ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١] وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ؟! قال له علي : ادنه ادنه ! ثم قال :﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

---

(١) سبق تخريجه صفحة (٦-٧) .

(٢) وانظر تحفة الأحوذي (٩/٢٠) ، مراجعة عبد الرحمن محمد عثمان ، مطبعة الاعتماد .

(٣) قراءة شاذة . انظر مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ، صفحة (٩٨) ، والمحتسب (٢/٩٥) لابن جني .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٤١) .

[النساء: ١٤١] يوم القيامة ." (١)

فانظر دقّة علي – رضي الله عنه – في تتبّعه للسّياق ، واستيعابه فهم الآية على وجهها، فهذا الوعد في الآخرة ، بدليل قوله قبل:﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ .

ولما قال نافع بن الأزرق لابن عباس – رضي الله عنهما –: " أعمى البصر ، أعمى القلب يزعم أن قوماً يخرجون من النار ، وقد قال الله – جلّ وعزّ – :﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا ﴾ [المائدة: ٣٧](٢). فقال ابن عباس : ويحك !! اقرأ ما فوقها !! ، هذه للكفار "(٣).

والآية التي فوقها–أي قبلها –هي:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال سعيد بن جبير –رحمه الله– (٤): في قوله –تعالى–: " ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ ﴾ [مريم: ٢٤] قال: عيسى ؛ أما تسمع الله يقول :﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ﴾ [مريم: ٢٩] " (٥) .

أما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقال: " عيسى ناداها : ﴿ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٤] ".(٦)

ولما سأل يعقوبُ بن عبد الرحمن الزهري (٧) زيد بن أسلم (٨) ، عن قول الله : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ

---

(١) انظر جامع البيان (٣٣١/٤) ، وتحقيق شاكر (٣٢٧/٩) .

(٢) المائدة (٣٧) ونصّها : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٧] .

(٣) انظر جامع البيان (٥٦٧/٤–٥٦٨) ، وتحقيق شاكر (٣٢٧/٩) .

(٤) هو أبو محمد ، أو أبو عبد الله ، سعيد بن جبير بن هشام الكوفي الأسدي الوابلي مولاهم ، من كبار تلامذة حبر الأمة ابن عباس ، إمام في القراءة والتفسير وغيرهما ، قتله الحجاج ظلماً سنة أربع أو خمس وتسعين . انظر سير أعلام النبلاء (٣٢١/٤) ، وغاية النهاية (٣٠٥/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٨١/١) .

(٥) جامع البيان (٣٢٧/٨) .

(٦) جامع البيان (٣٢٧/٨) .

(٧) هو يعقوبُ بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد القاري ، يقال له يعقوب الاسكندراني ، حليف بني زهرة، سكن الاسكندرية ، وثّقه ابن معين وابن حبان ، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة . انظر كتاب الثقات لابن حبان (٦٤٤/٧) ، وتهذيب التهذيب (٤٤٤/٤) .

(٨) هو أبو أسامة ، زيد بن أسلم العدوي المدني ، قال الذهبي : لزيد تفسيرٌ ، رواه عنه ابنه عبد الرحمن ، كان من العلماء =

ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق: ١٩ – ٢١] فقال له : " من يراد بهذا ؟ فقال : رسول الله – ﷺ – . فقلت : رسول الله – ﷺ – ؟!.فقال : ما تنكر ؟ ! ؛ قال الله – عزّ وجل – :﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٦ – ٧] . قال : ثم سألت صالح بن كيسان [(١)] عنها ، فقال لي : هل سألت أحداً ؟ فقلت : نعم ، قد سألت عنها زيد بن أسلم فقال : ما قال لك ؟ فقلت : بل تخبرني ما تقول .فقال : لأخبرنك برأيي الذي عليه رأيي، فأخبرني ما قال لك . قلت : قال : يراد بهذا رسول الله – ﷺ – فقال : وما علم زيد! ، والله ما سن عالية،ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب ، **إنما يراد بهذا الكافر، ثم قال : اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك** . قال : ثم سألت حسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس [(٢)]، فقال لي : مثل ما قال لي صالح : هل سألت أحداً ؟ فأخبرني به ، قلت : إني قد سألت زيد بن أسلم ، وصالح بن كيسان . فقال لي : ما قالا لك ؟ قلت : بل تخبرني بقولك ، قال : لأخبرنك بقولي ، فأخبرته بالذي قالا لي ، قال : أخالفهما جميعاً ، يريد بها البر والفاجر ، قال الله :﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ١٩ – ٢٢] قال : فانكشف الغطاء عن البر والفاجر ؛ فرأى كلٌّ ما يصير إليه ." [(٣)]

ومن هذه القصة ترى : أن القول الأول لم يستدل فيه بالسياق ، أما الثاني والثالث فقد استدلا

= العاملين ، توفي سنة ست وثلاثين ومائتين . انظر حلية الأولياء (٣/٢٢١) ، وسير أعلام النبلاء (٥/٣١٦) ، وتهذيب التهذيب (١/٦٨٥) .

(١) هو أبو محمد ، صالح بن كيسان تابعي ، مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز ، من فقهاء المدينة ، إمام حافظ ثقة كثير الحديث، قال الذهبي : رمي بالقدر ولم يصح عنه ، توفي بعد أربعين ومائة . انظر تهذيب الكمال (١٤/٧٩) ، وسير أعلام النبلاء (٥/٤٥٤) .

(٢) هو أبو عبد الله ، حسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس الهاشمي المدني ، ضعفه ابن معين ، وأبو حاتم ، وقال النسائي : متروك ، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة ، وقيل أربعين . انظر تهذيب التهذيب (١/٤٢٤) .

(٣) جامع البيان (١١/٤١٩-٤٢٠) .

به ، ولكن على اختلاف في موضع الاستدلال ، وهذا مما يدلّ على أهمية السياق، وأنه ليس كافٍ وحده ، بل يحتاج معه إلى قواعد أخرى مقوّمة له ومرتِّبة .

ومقولة صالح بن كيسان في الآيات الماضية واضحة في الاهتمام بالسياق : " إنما يراد بهذا الكافر ، ثم قال : اقرأ ما بعدها يدلك على ذلك "(١). فإذا كان السياق دليلاً إلى معنى القرآن ، فقد ظهرت منزلته ، وعلت مكانته .

وقال الإمام مالك –رحمه الله– : لما سأله ابن وهب (٢) عن قول الله –تعالى-:﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩] قال : " راكباً وماشياً ، لو كانت إنما عني بها الناس ؛ لم تأت إلا رجالاً وانقطعت الآية، إنما هي رجال مشاة ؛ وقرأ :﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧] قال : يأتون مشاة وركباناً"(٣).

فاستدلّ بالركبان على معنى الرجال ؛ لعدم وجود الفائدة من زيادة الركبان لو كان معنى الرجال عموم الناس .

وقال ابن عطية –رحمه الله– : في قوله –تعالى- :﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧] معلّقاً على قول من قال : هي في أهل الكتاب : " وظاهر ما قبل وما بعد أنه في جميع الكفار " .(٤)

وقال الرازي –رحمه الله–(٥): عند قوله –تعالى-:﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾

---

(١) جامع البيان (٤١٩/١١) .

(٢) هو أبو محمد ، عبد الله بن وهب بن مسلم المصري الفهري مولاهم ، ولد سنة خمس وعشرين ومائة ، وتفقّه على مالك والليث ، قال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة ، وكان مالك يكتب إليه في المسائل ويقول: ابن وهب عالم ، له مصنفات منها : أهوال القيامة ، والموطأ الكبير ، توفي سنة سبع وتسعين ومائة . انظر طبقات القراء (٤٦٣/١) ، وميزان الاعتدال (٥٢١/٢) ، وشجرة النور الزكية صفحة(٥٨) .

(٣) انظر جامع البيان (٥٩٠/٢) ، وتحقيق شاكر (٤٤٤/٥) .

(٤) المحرر الوجيز (١١٣/١)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية ١٤١٣هـ .

(٥) هو أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين القرشي ، الشهير بابن خطيب الري ، أصولي شافعي مفسر ، سلطان المتكلمين ،
=

[فصلت: ٥] "وكل من أنصف و لم يتعسف علم أنّا إذا فسرنا الآية على الوجه الذي ذكرناه ، صارت السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً ، مسوقاً نحو غرض واحد ، فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه "[١].

وقال ابن القيم –رحمه الله– : في قوله –تعالى-:﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ [النساء: ٣] أي تجوروا ، وليس المعنى : ألا تكثر عيالكم ، وذكر من الأدلة : أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره ؛ فإنه قال في أولها :﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣] فدلهم – سبحانه – على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى ، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ ، وأباح لهم منهن أربعاً ، ثم دلّهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن ، فقال :﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣] ثم أخبر –سبحانه – أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور ، وهذا صريح في المقصود ." [٢]

وقال أيضاً : عند قوله –تعالى-:﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] " قيل معناه: التهديد والوعيد ، والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمّله ." [٣]

وفي قوله –تعالى-: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ ﴾ [العاديات: ١ – ٣] اختلف الصحابة ومن بعدهم في المراد بالقسم هل هو الخيل أو الإبل ، ونقل ابن القيم عن الجرجاني [٤]

=

ومنظِّر عقيدة الأشاعرة ، من مصنفاته : المحصول في أصول الفقه ، والتفسير الكبير ، اعترف في آخر عمره بخطأ أهل علم الكلام والفلاسفة ، وتوفي على طريقة حميدة – غفر الله لنا له – ، وكانت وفاته سنة ست وستمائة . انظر طبقات الشافعية الكبرى (٨/٨١) ، وسير أعلام النبلاء (٢١/٥٠٠) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٢١٣) .

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/١٣٥) ، طبع دار الفكر .

(٢) بدائع التفسير (٢/٩) لابن القيم ، جمع : يسري السيد محمد .

(٣) بدائع التفسير (٣/٢٥) .

(٤) هو أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الشافعي ، من كبار علماء العربية ، مؤسس علم البيان ، متكلم أشعري ، ألف : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، وقيل غير ذلك . انظر طبقات الشافعية للإسنوي (٢/٤٩١) ، وبغية الوعاة (٢/١٠٦) .

قوله : "كلا القولين قد جاء في التفسير ، إلا أن السياق يدل على أنها : الخيل ، وهو قوله –تعالى–: ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ [العاديات: ٢] والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته وأما الخف ففيه لين واسترخاء ".[1]

وقال ابن كثير –رحمه الله– في قوله –تعالى–:﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥]"والأظهر – والله أعلم – أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث يقول – سبحانه وتعالى – :﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [النساء: ٢٥] – والله أعلم – والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله :﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ تزوجن...[2] .

هذه بعض أقوال العلماء في أهمية السياق ، وتلك هي تطبيقاتهم عليه ، وليس من الممكن ذكر جميع من أوصى بالعناية بالسياق ، أو استدل به ، فهم يهتمون به ، ولكن درجاتهم في ذلك مختلفة ، فمقلٌّ ومستكثر .

---

(١) التبيان في أقسام القرآن صفحة (٨٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٥١) .

المطلب الثالث : تأليف العلماء كثيراً في الوجوه والنظائر ، وفي غريب القرآن:

مما يدلّ على عظم عناية العلماء بالسياق تآليفهم في علم الوجوه والنظائر ، والمقصود بالوجوه والنظائر : أن تكون الكلمة واحدة ، ذكرت في مواضع من القرآن ، على لفظ واحد ، وحركة واحدة [وهي النظائر بمعنى :الكلمات المتشابهة]، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر [وهذه هي الوجوه أي: من المعاني] (١) .

وقد كتب العلماء في علم الوجوه والنظائر منذ زمن ، حيث **نسبه ابن الجوزي** (٢) –رحمه الله – إلى : **عكرمة عن ابن عباس ، وإلى علي بن أبي طلحة** (٣) **عن ابن عباس ، وإلى الكلبي**(٤) **، وإلى مقاتل بن سليمان** (٥) **، وإلى العباس بن الفضل الأنصاري** (٦) **وغيرهم –رحمهم**

---

(١) نـزهة الأعين لابن الجوزي صفحة (٨٣) ، تحقيق محمد الراضي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ، لمؤسسة الرسالة .

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي ، ابن الجوزي ، ولد حوالي سنة إحدى عشرة ، هدى الله على يديه آلاف ، وألّف كثيراً ، ومنها : المغني في التفسير ، وزاد المسير ، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة . انظر الذيل على طبقات الحنابلة (٣٩٩/١) ، وغاية النهاية (٣٧٥/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٧٠/١) .

(٣) علي بن أبي طلحة ، واسم أبيه سالم بن المخارق مولى ، روى عن ابن عباس و لم يسمع منه ، ولكن طريقه أقوى الطرق وأصحّها عن ابن عباس ؛ لأن الواسطة بينه وابن عباس ثقتان هما : سعيد بن جبير ، ومجاهد . قال أحمد : بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة ، لو رَحَلَ رَجُلٌ فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً . وهي عند البخاري عن أبي صالح ، وقد اعتمد عليها فيما يعلقه عن ابن عباس ، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائة –على الصحيح – . انظر ميزان الاعتدال (٥٤/٤) ، وتهذيب التهذيب (١٧١/٣) ، والإتقان (١٢٣٠/٢) .

(٤) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، مؤرخ مفسر نسابة ، قال الذهبي : كان رأساً في الأنساب ، إلا أنه شيعي متروك الحديث ، له مصنفات منها : ناسخ القرآن ومنسوخه ، توفي سنة ست وأربعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٦) ، وتهذيب التهذيب (٥٦٩/٣) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٤٤/٢) .

(٥) هو أبو الحسن ، مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي بالولاء ، البلخي ، قال ابن المبارك : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة ، وقال الذهبي : أجمعوا على تركه ، وقال : كذبوه وهجروه ورموه بالتجسيم ، له كتب منها : نوادر التفسير ، ونظائر القرآن ، وغير ذلك ، توفي سنة خمسين ومائة . انظر تاريخ بغداد (١٦٠/١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠١/٧)، ووفيات الأعيان (٢٥٥/٥) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٣٣٠/٢) .

(٦) انظر نـزهة الأعين النواظر صفحة (٨٢) . والعباس بن الفضل هو : أبو الفضل الأنصاري الواقفي البصري ، قاضي الموصل =

الله –.

وممن ألّف أيضاً : يحيى بن سلام [(١)] كتابه : التصاريف (تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه) ، **والمبـرّد** [(٢)] كتابه : ما اتفقت ألفاظه ومعانيه في القرآن ، وغيرهم كثير .

وإليك مثالاً من كتب الوجوه والنظائر : **قال ابن الجوزي –رحمه الله** –: " وذكر أهل التفسير أن الأبَ –بتخفيف الباء – في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها :الأب الأدنى : ومنه قوله –تعالى– في سورة النساء (١١) :﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ ، وفي الأنعام (٧٤): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ ، وفي مريم (٤٢): ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ ، وفي القصص (٢٣): ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ ، وفي عبس (٣٥) :﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ .

والثاني : الأب الأعلى : وهو الجد : ومنه قوله –تعالى– في يوسف (٣٨) :﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ، وفي الحج (٧٨) ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ .

والثالث : العم : ومنه قوله –تعالى– في البقرة (١٣٣) :﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ، وإنما إسماعيل عم يعقوب .

والرابع : الخالة : ومنه قوله –تعالى– في يوسف (١٠٠) : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [(٣)] .

انظر إلى الآيات الماضية بتأمّل : هل الذي غيّر معناها الآيات التي حددت المعنى باعتبار المتكلم

=

أيام الرشيد العباسي،توفي سنة ست وثمانين ومائة.انظر ميزان الاعتدال(٣٨٥/٢)،وتهذيب التهذيب (٢٩٢/٢).

(١) هو أبو زكريا ، يحيى بن سلّام بن أبي ثعلبة البصري ، ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، له تفسير في ثلاث مجلدات ضخام ، وكتاب الجامع ، توفي سنة مائتين . انظر طبقات القراء (٣٧٣/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٣٧١/٢)، وسير أعلام النبلاء (٣٩٦/٩) .

(٢) هو أبو العباس ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، المعروف بالمبرد ، قيل : مولده سنة عشر ومائتين ، له : الكامل ، ومعاني القرآن ، توفي سنة خمس وثمانين ومائتين ، وقيل غير ذلك . انظر المنتظم (٩/٦) ، وطبقات النحويين واللغويين صفحة (١٠١) ، ونور القبس للمرزباني صفحة (٣٢٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٦٧/٢) .

(٣) نـزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (١١١-١١٢) .

والمخاطب ، أم اللفظ بمفرده ؟، الذي يظهر أنه السياق ، كما هو واضح في كلام ابن الجوزي هنا .

وإن نوزع في ذلك ، فإن تعدد المعنى لابد من دليل على تحديد أحدها على غيره ، ويعود السياق نفسه إلى تحديده ، وهذا يدل على أهمية السياق من وجه آخر .

أما علم غريب القرآن : فقد اهتم به العلماء كما اهتموا بعلم الوجوه والنظائر ، وهو قريب منها في الاعتناء بالسياق ، إلا أنّ كتب الغريب أقل ذكراً للسياق من كتب الوجوه والنظائر .(١)

ومن أهم المؤلفات فيه:

تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين .

قال ابن قتيبة – رحمه الله – : في مقدمة تفسير غريب القرآن : " وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين ، لم نخرج فيه عن مذاهبهم ولا تكلّفنا في شيء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بقصة الآية ." (٢)

ومن أشهر مؤلفات غريب القرآن : مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، المتوفى في حدود سنة خمس وعشرين وأربعمائة (٣).

وقد امتدح العلماء الراغب في مفرداته **فقال الزركشي –رحمه الله–** :"ومن أحسنها[كتب الغريب] كتاب المفردات للراغب ، وهو يتصيد المعاني من السياق ؛ لأن مدلولات الألفاظ خاصة"(٤).

وقال : في تفسير ما لم يرد فيه نقل : " وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ، من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق ، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتنصه من السياق ."(٥)

وقال السيوطي –رحمه الله– : " و أمّا ما لم يرد فيه [أي التفسير] نقل : فهو قليل ، وطريق

---

(١) انظر مقدمة تحقيق هند شلبي ، على كتاب التصاريف ، ليحيى بن سلام صفحة (٤٠) .

(٢) تفسير غريب القرآن صفحة (٤) وقصة الآية :سياقها .

(٣) انظر مقدمة تحقيق المفردات لصفوان داوودي صفحة (٢٥) .

(٤) البرهان للزركشي (١/٣٩٤) .

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/٣١٣) .

التوصل إلى فهمه : النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ، ومدلولاتها ، واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً ، في كتاب المفردات ، فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة ، في تفسير مدلول اللفظ ؛ لأنه اقتضاه السياق ." [(١)]

وإليك هذا المثال من كتاب المفردات في غريب القرآن :

قال الراغب –رحمه الله– : في مادة سخر :" والسُّخرية والسِّخرية : لفعل الساخر، وقوله تعالى:﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا ﴾ [المؤمنون: ١١٠] و ﴿سِخۡرِيًّا ﴾ [(٢)] فقد حمل على الوجهين : على التسخير ، وعلى السُّخرية قوله –تعالى–: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا ﴾ [ص: ٦٢ – ٦٣] ويدل على الوجه الثاني :قوله بعد :﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝١١٠ ﴾ [المؤمنون: ١١٠] "[(٣)] .

وهذا يدلّ على أن مؤلفي كتب الغريب يذكرون المعاني المتعددة – وقد تكون قراءات – ويرجّحون أحدها على الآخر في أحيان ، بدلالة ما قبل الكلام ، وما بعده .

فهذه المؤلفات في العلمَين الماضيين ، من علوم القرآن ، متصلة بدلالة السياق ارتباطاً وثيقاً :

فالوجوه والنظائر تجمع الألفاظ المشتركة لفظياً ، وتبين ما حصل من اختلاف بينها في المعنى، إما بسبب اتساع اللغة ، أو اختلاف السياق القرآني [(٤)] ؛ مما أدى إلى اختلاف اللفظ الواحد ، باختلاف موقعه بين الجمل ، واختلاف الحكمة من سياقه .

وكتب غريب القرآن : تأتي باللفظة الغريبة ، وتذكر ورودها في الآيات ، وما صار عليها من معاني ، مع مراعاة ما يؤثر على المعنى من سياق ونحوه ، كما في المثال السابق من مفردات الراغب –رحمه الله– ، الذي تميّز باقتناص معنى المفردة من خلال سياقها ، ففاز بقصب السبق في دقة المعاني ، وحسن التفسير .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١٢١٧/٢) .

(٢) قرأ بضم السين : بضم السين نافع وحمزة والكسائي وأبوجعفر ، والباقون بالكسر ، إتحاف فضلاء البشر (٣٢١) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٤٠٢) .

(٤) انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، للدكتور سليمان القرعاوي صفحة (٣) ، وقد ذكر هذا في سبب اختلاف المؤلفين في الوجوه والنظائر .

المطلب الرابع : اهتمام العلماء بالمناسبات ، وتنبيههم على دورها في إظهار المعنى :

إن اهتمام العلماء بالمناسبات واضح في مؤلفاتهم ، **فقد أفرده أبو جعفر بن الزبير**(١) **– شيخ أبي حيان** (٢)– وسماه البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن ، **وبرهان الدين البقاعي**(٣) في نظم الدرر في تناسب الآي والسور ، **والسيوطي** في تناسق الدرر في تناسب السور ، وقد اختصره من كتابه أسرار التنزيل .(٤)

ومن المؤلفات المعاصرة : في المناسبات بين السور كلها : "جواهر البيان في تناسب سور القرآن " **للشيخ عبد الله بن محمد الصدِّيق الغماري** (٥).

والشيخ **محمد عبد الله دراز** (٦) –رحمه الله– تعرض لتناسب الآيات في سورة البقرة في كتابه

---

(١) أبو جعفر ، هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي ، محدّث نحوي أصولي أديب مقرئ مؤرخ ، كان محدّث الأندلس بل المغرب في زمانه ، صنّف تعليقاً على كتاب سيبويه ، والذيل على الصلة ، والبرهان ، توفي سنة ثمان وسبعمائة . انظر بغية الوعاة(١/٢٩١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٨٦) .

(٢) هو أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة ، مقرئ محدث مفسر لغوي ، له مصنفات ، منها البحر المحيط ، والنهر المادّ ، وله منظومة في القراءات هي أسهل وأخصر من الشاطبية ، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٥/٧٠) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/٢٨٦) .

(٣) هو برهان الدين ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ، نسبة لبقاع في الشام ، ولد سنة تسع وثمانمائة ، له نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ومصرع التصوف ، وغيرهما ، توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة. انظر التاج المكلل صفحة (٣٥٨) .

(٤) انظر الإتقان للسيوطي (٢/٩٧٦) .

(٥) وهو مؤلف معاصر ، له تآليف أخرى منها : فضائل القرآن ، وكتاب الأذكياء .

(٦) هو محمد عبد الله دراز ، ولد بمصر سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف ، ووالده شيخ دمياط الذي شرح الموافقات، حضّر الشيخ محمد الماجستير بعنوان : المدخل إلى القرآن ، والدكتوراه بعنوان : دستور الأخلاق في القرآن ، باللغة الفرنسية ، توفي في باكستان ، أثناء حضور المؤتمر الإسلامي ، سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وألف . انظر مقدمة محقق كتاب النبأ العظيم الدخاخيني صفحة (و–ح) .

"النبأ العظيم" .[(١)]

قال البقاعي –رحمه الله– : في المناسبات " علم تعرف منه علل الترتيب ، وموضوعُه : أجزاء الشيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب ، وثمرتُه : الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب...وتتوقف الإجادة فيه على : معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها ؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة ، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة البيان من علم النحو ".[(٢)]

ويقول أيضاً : "إن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن ، مترتبة على معرفة الغرض أو الأغراض التي سيقت لها السورة ".[(٣)]

والحقيقة أن معرفة مقصود السورة ناتج من معرفة مناسبات الآيات لا العكس .[(٤)]

وقد نبّه العلماء على دور المناسبات في إظهار المعنى والإعجاز ،فقال السيوطي–رحمه الله : "وفائدته – أي : علم المناسبة –: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء "[(٥)].

وكيف لا تكون المناسبات مهمة ! وهي الطريق الأقرب في معرفة السياق ودقائقه ، إذ أن السياقات لا تعرف إلا بعد معرفة المناسبات –على الصحيح–؛ إذ لا يمكن من أول وهلة أو لمحة أن تعرف سياق السورة ، بل بالتأمل الكثير في مرحلة نزولها ، وما بين مقاطع السورة ، وانتقالاتها ، وتعقيباتها ؛ يظهر ما سيقت له .

وعلى المفسر أن يعلم أن الفاصل الزمني بين نزول الآيات لا دخل له في موضوع السورة وهدفها ؛ إذ أنها كما قال الأستاذ محمد عبد الله دراز –رحمه الله– :"وإن كانت بعد تنزيلها جمعت

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي ، لأستاذنا الدكتور مصطفى مسلم ، صفحة (٦٧) .
(٢) نظم الدرر (١/٥-٦) .
(٣) نظم الدرر (١/١٧) .
(٤) انظر منهجية البحث في التفسير الموضوعي صفحة (١٠٢-١٠٣) ، للدكتور زياد الدغامين .
(٥) الإتقان (٢/٩٧٨) .

عن تفريق ، فلقد كانت في تنـــزيلها مفرقة عن جمع ، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده ، فلما أريد نقله بصورته إلى مكان غير مكانه قدرت أبعاده ، ورقّمت لبناته ، ثم فُرِّق أنقاضاً ، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً ، يشد بعضه بعضاً ، كهيئته أول مرة "[١].

وإذا نظر المتأمل إلى أنواع التفسير الموضوعي كلها - سواء كـــان بـــالنظر للموضـــوع ، أو الكلمة، أو للسورة الواحدة - علم أهمية معرفة السياق للآيات ، حتى يتمكن المفسر من ربط المواضع المجموعة من القرآن ، أو المقاطع في السورة ؛ لتفسير كلام الله — عز وجل —على وجه يبدو منه رونق القرآن ، ونظمه العجيب ، وبلاغته المعجزة ، واضحة ناصعة .

الخلاصة : كل ما سبق في هذا المبحث ، يدل على أهمية السياق سواء : حين تذكر أقـــوال العلماء في اعتماده ، أوحالهم حين يختلفون ، فتجدهم في أحيان يرجعون إلى السباق واللحاق ، أو حين تلحظ كثرة مؤلفات العلماء ، في علم الوجوه والنظائر ، وغريب القرآن، وهما وثيقا الاتصال بالسياق، -وقد اتضح ذلك بذكر الأمثلة-، ثم أخيراً بذكر علم المناسبات ، وحال العلماء في محاولة إظهارها ، وإبرازها للعيان ، وقد ألفت فيه المؤلفات مستقلة أحياناً ، ومقترنة في أحيان أخرى بالتفسير للقـــرآن الكريم .

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز —رحمه الله- صفحة (١٩٤-١٩٥) .

المبحث الثالث : أسباب الاعتماد على دلالة السياق القرآني :

لو سألت عن : سبب الاعتماد على السياق ، وما هي موجبات تحديد المعنى بموافقة سياق الكلام ؟ ، وهل هناك علل أو حكم تحتم علينا اعتبار دلالاته ؟ ، وردّ ما يخالفه ؟.

فالجواب على ذلك في المطالب التالية :

المطلب الأول : أن السياق ضرورة لغوية .

المطلب الثاني : الاهتمام بالسياق يجعل الكلام منتظماً متّسقاً .

المطلب الثالث : إظهار الإعجاز البياني في القرآن .

المطلب الأول : أن السياق ضرورة لغوية :

إن وجوب تتبع دلالات السياق ضرورة لغوية صِرفة ، لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها ؛ إذ أن كل لغة لا تفهم على وجهها ، إلا بجعل ما يحيط بالكلام المفسَّر أساسا لإدراك معناه المراد منه .

ثم إن شأن اللغة العربية أكبر من غيرها ؛ لكثرة أغراضها ، وتنوع أساليبها ، وسعة معانيها .

وهذه الصفات للغة العرب ، سبب لاختلاف العلماء في جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات،[١] والراجح : أن ترجمة اللغة العربية إلى غيرها غير ميسورة ، فقد نقل **الأستاذ مناع القطان -رحمه الله-** [٢] **عن الزمخشري** [٣] في الكشاف قوله : " إنّ في كلام العرب -خصوصاً في القرآن - من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه اللسان " [٤]وحتى المعاني الأصلية لا تخلو ترجمتها من فساد؛ لتعدد المعاني في القرآن للمفردة الواحدة ، بخلاف اللغة المترجم إليها ، ثم رجح أن الترجمة السليمة الكاملة

---

(١) انظر الموافقات (١٠٦/٢-١٠٧) للشاطبي ، تحقيق علي حسن عبد الحميد .

(٢) هو أبو محمد ، مناع بن خليل القطان ، ولد بمصر سنة خمس وعشرين وتسعمائة وألف ، وكانت له مشاركة مع جماعة "الإخوان المسلمون" ، وشارك في حرب فلسطين ١٩٤٨م ، صحب الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- ، وأعير للتدريس بالمملكة سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف ، ودرّس في المعاهد العلمية ، ثم كلية الشريعة ثم المعهد العالي للقضاء، وصار مديراً له سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وألف ، له مؤلفات قيمة ، منها : مباحث في علوم القرآن، وتفسير آيات الأحكام ، وغيرهما . انظر علماء ومفكرون عرفتهم صفحة (٤٤٧-٤٥٩) لمحمد المجذوب -رحمه الله- ، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٤٧٠/٢) ، درّس الشيخُ مناع كاتبَ هذه السطور ، فكان -رحمه الله- متميزاً في أسلوبه ، دقيقاً في عباراته ، على درجة عالية من حسن الحوار ، وتقويم الأقوال ، وحسن الأخلاق ، توفي يوم الاثنين ، السادس من شهر ربيع الثاني ، سنة عشرين وأربعمائة وألف . -رحمه الله - ودفن في الرياض .

(٣) هو جار الله ، أبو القاسم ، محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، مفسر محدث نحوي أديب ، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة ، معتزلي مجاهر وداع لبدعته ، وتفسيره الكشاف على هذا فليقرأ على حذر ، ومن مؤلفاته : أساس البلاغة ، والمفصّل في النحو ، والفائق في تفسير غريب الحديث ، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . انظر وفيات الأعيان (١٦٨/٥) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (١٠٤) ، وبغية الوعاة (٢٧٩/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٣١٤/٢) .

(٤) مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٢٥) لمناع القطان ، طبع مكتبة المعارف الطبعة الأولى المجددة ١٤١٣هـ ، وقد حاولت الوصول إلى هذا المنقول عن تفسير الزمخشري فلم أتمكن .

لمعاني القرآن غير ممكنة ، وإنما يرخص فيها بمقدار الضرورة كأصول الدين ، ومن أراد الزيادة فليتعلم اللسان العربي [١].

(١) انظر مباحث في علوم القرآن صفحة (٣٢٥-٣٢٦) بتصرف .

المطلب الثاني : الاهتمام بالسياق يجعل الكلام منتظماً متّسقاً :

وأولى كلام يجب أن يفهم على هذا النحو كلام الله – عز وجل – ، وحين يُعْرِض المفسر عنه، أو يغفل ، أو يتمحّل وجهاً بعيداً عن السياق ؛ فإنه يجعل الكلام متنافراً مع ما قبله ، أو ما بعده ، منقطعة أجزاؤه ، بعيدة علاقاته ، وذلك ممتنع في كتاب الله –عز وجل؛ لذهاب جمال القرآن وإعجازه، وانتظام جمله وآياته ، بهذا التعامل الخاطئ .

فلما كان ذا حصيلة الميل عن دلالات السياق ، تبين أن الاهتمام به مورث لنقيضه، وبضدها تتميز الأشياء .

قال الإمام مالك –رحمه الله– : لما سأله ابن وهب عن قول الله –تعالى–:﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩] قال : " راكباً وماشياً ، لو كانت إنما عني بها الناس ؛ لم تأت إلا رجالاً ، وانقطعت الآية ، إنما هي رجال : مشاة ؛ وقرأ :﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: ٢٧] قال: يأتون مشاة وركباناً ." (١)

فاستدل الإمام مالك –رحمه الله– بالركبان على معنى الرجال ؛ لعدم وجود الفائدة اللغوية الفصيحة التي تدل على زيادة الركبان ، لو كان معنى الرجال عموم الناس .

ويقول ابن جرير –رحمه الله – مرجّحاً لقول في قوله –تعالى–: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣] "[**قال أبو جعفر** : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يكون قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾] معترَضاً به ، وسائر الكلام متّسقٌ على سياقٍ واحدٍ...وإنما اخترنا ذلك من سائر الأقوال ؛ لأنه أصحها معنى، وأحسنها استقامة على معنى كلام العرب ، وأشدها اتّساقاً على نظم الكلام وسياقه ، وما عدا ذلك من القول فانتزاع يبعد من الصحة ، على استكراه شديد للكلام."(٢)

---

(١) انظر جامع البيان (٢/٥٩٠) ، وتحقيق شاكر (٥/٢٤٤) .

(٢) جامع البيان (٣/٣١٣-٣١٤) ، وتحقيق شاكر (٦/٥١٥-٥١٦) ، وانظر مثله في النساء (٦٥) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٤/١٦٢) .

المطلب الثالث : إظهار الإعجاز البياني في القرآن :

لقد امتاز القرآن الكريم بالجزالة في الألفاظ ، والتناسق في الترتيب ، مما بهر فصحاء العرب ، سواء في مبادئ الآيات ومقاطعها ، أو في ترابط الآيات واتساقها ، فوجدوه على أكمل نظام ، وأتم إتقان .

وإن كل مفسِّر للقرآن يراعي سياق الآيات ، فهو بلا شك يعتبر موضحاً ومبيناً لوجوه من بلاغة القرآن وبيانه وبديعه ؛ لأن الاهتمام بالسياق يوصل إلى المعنى الصحيح المقصود ، وأيضاً يظهر جمال القرآن في نظمه ، وإعجازه في بيانه ، وحين يبعد المفسر عن تتبع السياق ، فإن مآل تفسيره إلى غلط ونقص ، ثم يرجع في النهاية إلى تشويش إعجاز القرآن الكريم البياني على المخاطبين .

وقد ظهر الإعجاز البياني جلياً ، في كتب المتشابه من القرآن : وهي كثيرة منها :

البرهان في توجيه متشابه القرآن ، **لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني** ، المتوفى في حدود سنة خمسمائة .

ودرة التنزيل وغرة التأويل في المتشابه ، **لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي** ، المتوفى سنة ست وستمائة .

وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، **لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي**،المتوفى سنة ثمان وسبعمائة .[1][2]

فالمؤلفون في متشابه القرآن يعمدون إلى السياق غالباً ؛ للتعرف على سبب الاختلاف بين آية وأخرى ، في الترتيب ، أو المبنى أو نحو ذلك من الاختلاف .

---

(١) هو صاحب غرائب التفسير وعجائب التأويل ، وأسرار التكرار في القرآن ، والمشهور أن وفاته حدود خمس وخمسمائة ، ولكن محقق غرائب التأويل يرجح أن وفاته بعد خمس وثلاثين وخمسمائة أو خلالها . انظر معجم الأدباء (١٢٥/١٩) ، وغاية النهاية (٢٩١/٢) ، والأعلام (٤٤/٨) ، وغرائب التفسير (٣٤/١) .

(٢) انظر الإتقان (٥٩٥/٢) ، وملاك التأويل طبع بتحقيق الدكتور سعيد جمعه الفلاح .

وإليك مثالاً موضحاً لدور السياق في بيان إعجاز القرآن ، والمثال من كتاب : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، وهو أحسن كتب المتشابه،[1] : قال –رحمه الله –: عند قوله –تعالى– في الانشقاق :﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٢٢] وفي سورة البروج : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [البروج: ١٩] " للسائل أن يسأل عن اختصاص الأول بقوله :﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ بلفظ المضارع ، والثانية بقول :

﴿ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ بلفظ المصدر مع اتحاد المعنى المقصود ؟ والجواب عن ذلك – والله أعلم – أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخراوي ، كله لم يقع بعد ، وهم مكذبون بجميعه ، فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال وإن كان يصلح للحال ؛ ليطابق الإخبار لأنه عما يأتي و لم يقع بعد ، فجيء بما يطابقه في استقباله ، فأما آية البروج فقد تقدمها قوله –تعالى–: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البروج: ١٧] وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه ، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل : ﴿ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ ...فجيء في كل من الآيتين بما يناسب ."[2]

وإبراز الإعجاز البياني للقرآن الكريم –المعجزة الخالدة – مهمٌّ في دعوة الناس إلى تصديق المعجزة الإلهية ، من جهة البيان الذي لا يأتي بمثله الخلق ولو اجتمعوا ، كما قال –تعالى–:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن المعلوم أن الناس عموماً لا بد من حاجتهم إلى تفسير ما يُشْكِل عليهم ، من كتاب الله ، ومرجعهم في ذلك التفاسير ، فعلى المفسر بيان الحق ، وتوضيح وجهه ، من غير توانٍ في إظهار عظمة نظمه ، ودقة ترابطه ، وجمال حبكه ؛ علَّ ذلك أن يكون سبباً في رسوخ إيمان المؤمنين ، ودخول طالبي الحق المبين هذا الدين .

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز –رحمه الله– في وصف ترابط القرآن : إنه كالبنيان، وانتقاله بين الآيات كانتقاله بين حجرات البناء وفنائه ، بل إن معاني القرآن في السورة متناسقة ليس كذلك

---

(١) انظر الإتقان (٢/٥٩٥) .

(٢) ملاك التأويل (٢/١١٤١-١١٤٢) ، لأحمد الغرناطي ، تحقيق سعيد الفلاح .

فحسب ، " بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمان عند المفصل ، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية " [(١)].

(١) النبأ العظيم صفحة (١٩٥-١٩٦) .

المبحث الرابع: دلالة السياق القرآني ، وعلاقتها بتفسير القرآن بالقرآن :

لقد كانت طرق المفسرين في التفسير كثيرة ومتنوعة ، وإذا تأملنا تفاسير السلف خاصة ، نجد طرقهم في التفسير متنوعة ، أشهرها :

١-تفسير القرآن بالقرآن .

٢- تفسير القرآن بالسنة.

٣-تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

٤-تفسير القرآن باللغة العربية.

وأصح هذه الطرق وأقواها، تفسير القرآن بالقرآن ؛ لأن القرآن كلام الله – سبحانه وتعالى –، وأوضح بيان لأي كلام تبيين صاحب الكلام .

وتفسير القرآن بالقرآن تتعدد أنواعه ومنها :

١- آية مخصصة لعموم أخرى :

كما في قوله -تعالى-: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] عموم يدخل فيه كل والد : مسلماً كان أم كافراً ، والآية خطاب للنبي- ﷺ - ووالداه مشركان [(١)]. وخص بقوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ

---

(١) ودليل موت والدي النبي ﷺ على الشرك : ما رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا قرابة المقربين ، عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله : أين أبي ؟ قال : "في النار " ، فلما قفَّى دعاه فقال "إن أبي وأباك في النار" ، (١٩١/١) رقم الحديث (٢٠٣) ، قال النووي في شرحه : " وفيه : أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار ، وليس هذا مؤاخذة قبل بلاغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم –"، (٧٩/٣) ، وفي مسند أحمد (٣٥٩/٥) رقم (٢٣٠٨٨) قال ﷺ : "سألت ربي –عز وجل– أن يأذن لي في زيارة قبر أم محمد ، فأذن لي ، فسألته أن يأذن لي فأستغفر لها فأبى.." الحديث ، وبنحوه عند ابن جرير بإسناد صحيح . انظر تحقيق شاكر (٥١٢/١٤) عند تفسير الآية (١١٣) من التوبة .

أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣] فالأمر بالاستغفار في الآية الأولى : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ خاص بالوالدَين المسلمَين ؛ بدليل النهي عن الاستغفار للمشركين في الآية الثانية .

٢- آية مبيّنة لإجمال أخرى :

ففي قوله -تعالى-: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١] إجمال ، فالمتلو علينا في هذه الآية غير واضح ، ولكن بيّنه الله — سبحانه – في السّورة نفسها ، بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] [1] .

وقوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] أبهم المنعم عليهم ، وقد بيّنه في قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩] [2].

٣-آية مقيّدة لإطلاق أخرى :

في قوله -تعالى-: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى: ٥] إطلاق لمن في الأرض ، فيدخل المؤمن والكافر ، ولكن قيَّد الإطلاق قولُ الله -عزّ وجلّ- : ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا﴾ [غافر ٧-٩] الآيات ، فأخرجت الكافر فلا تستغفر له الملائكة .

٤ – تفسير لفظة غريبة في آية ، بأشهر منها في آية أخرى :

– في حجارة قوم لوط قال -تعالى-:﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢] فكلمة ﴿سِجِّيلٖ﴾ غريب معناها ، وحكى الله —عز وجل – عن الملائكة في سورة الذاريات : أن المراد بكلمة : ﴿سِجِّيلٖ﴾ الطين ، فقال : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني (٢/٨) ، طبعة دار المعرفة ببيروت .

(٢) أضواء البيان (١/١١) .

[الذاريات: ٣٢ – ٣٣] فكان فيها توضيح لمعنى : سِجّيلٍ [1].

٥ – تفسير معنى آية بأخرى :

–قال –تعالى–: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢] فمعنى التسوية :أن يكونوا تراباً مع الأرض ، ويوضح هذا المعنى قوله سبحانه :﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٤٠] [2].

هذه بعض أنواع تفسير القرآن بالقرآن ، ووقوع التفسير بها ؛ لأنه تبيين الإشكال ودفعه في الآية بآية أخرى ، وغالباً ما يكون هذا التّفسير في سورٍ متفرِّقةٍ ، والرَّابط بين الآية المفسِّرة والمفسَّرة : هو الموضوع ، أو الكلمة المفردة .

ولكن هناك نوعٌ من تفسير القرآن بالقرآن ، يتميَّزُ بكونه في السّورة الواحدة ، بل في الآيات المتوالية ، وإن شئت فقل في الجملة الواحدة من الآية الكريمة . وهو ما سبقت تسميته بالسياق : بيان اللفظ أو الجملة في الآية ، بما لا يخرجه عن السابق واللاحق ، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له ، كما سيأتي تفصيله في القواعد – إن شاء الله –.

ومما يتميز به هذا النوع كثرة وروده في الآيات بل هو لا ينفك عنها بطبيعة اللغة، وأيضاً : لا نـــزاع في اتصاله بما قبل وبما بعد ، بخلاف ما سبق من الأمثلة فبينهما اختلاف في الموضع من القرآن ، فقد يقال باختلاف المعنى بين الموضعين فيمتنع تفسير هذا بذاك .

ومن الأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن في السورة الواحدة :

قوله –تعالى–: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٨١] ففي هذه الآية دليل على أن معنى السيئة هنا : ليس المعنى العام ، وإنمـــا أراد بهـــا الشرك بدليل قوله بعدها: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٢) ، وأضواء البيان (٢٤/١) ، طبع عالم الكتب ببيروت .

(٢) وانظر تفسير القرآن العظيم (٤٧٣/١) ، وانظر موضوع مصادر التفسير ، للشيخ مساعد بن سليمان الطيار ، في مجلة البيان العدد (٩٥) صفحة (٢٠) ، بتصرف واختصار .

[البقرة: ٨٢])" فكان معلوماً بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات ، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان ."[١]

وهذا التفسير للسيئة مقتبس من سياق الآيتين ونظمهما معاً .-والله أعلم -.

ومن قول الله –تعالى- : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] **استدلّ أبو حنيفة –رحمه الله-**: على أن المسلم يقتل بالكافر ؛ بدليل العموم في النفس ، وفي آخر الآية ما ينقضه ، وهو قوله : ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾[المائدة: ٤٥] فهي قرينة على عدم دخول الكافر؛ لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً ، إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر .[٢]

فانظر إلى سياق الجمل كيف يفسر بعضه بعضاً .

وفي قوله –تعالى-:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا ﴾ [المائدة: ٩٥] قال مجاهد : " متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه " [٣]، ولكن قوله في آخر الآية: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾[المائدة: ٩٥] دليلٌ على أنه مرتكب لمعصية ، و الناسي لإحرامه غير مرتكب إثماً ، حتى يقال فيه : ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[٤].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تبين وجه ارتباط السياق بتفسير القرآن بالقرآن ، وأثره في بيان الصحيح ، ورد ما يلزم منه إهمال سياقات الكلام ، بل هي أكثر وأقوى في الاستدلال غالباً من التفسير للآية بآية في سورة أخرى ، كما ذكرت سابقاً –والله أعلم- .

---

(١) جامع البيان (٤٢٩/١) ، وتحقيق شاكر (٢٨٢/٢) .

(٢) انظر أضواء البيان (١٣/١-١٤) .

(٣) جامع البيان (٤٢/٥) ، وتحقيق شاكر (٩/١١) .

(٤) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٤/١) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله- .

الفصل الثاني

طريقة تناول ابن جرير لدلالة السياق القرآني :

وفيه تسعة مباحث :-

المبحث الأول : الأصل أن الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه.

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها.

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له ، فذلك خُلفٌ ينـــزّه القرآن عنه .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نـــزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشابههم .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب .

مدخل للقواعد:

حين يسترسل القارئ لجامع البيان ، للإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله – ، يرى كل قول ومعه دليله أو تعليله ، ويجد الاستدلال في كلامه ظاهرة غير متكلفة ، ولو جمعت نظائر هذا القول وما في معناه ، لحصل لديك الجزم بأنها قواعد حرص الإمام على تطبيقها، وهذه القواعد ينصّ عليها بلفظها أو معناها في مواضع ، ولا يذكرها في أخرى ، ولكن يحصل عند المتأمل استحضار القاعدة فيما شابهها من المواضع ؛ لأن طريقة الإمام واحدة في التفسير كله غالباً .

ولقد كانت القواعد التي سار عليها الإمام – فيما يخص بحث هذه الرسالة وهو ما يتعلق بدلالة السياق القرآني حسب حصري لها – تسع قواعد جمعت في هذا الباب : واختصت كل قاعدة بمبحث، محاولة لتأصيل وتقعيد منهج الإمام ابن جرير –رحمه الله– في التعامل مع السياق ، وهي كالتالي : –

المبحث الأول : الأصل أن الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه .

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة .

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها .

المبحث الخامس : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له ، فذلك خُلفٌ ينــزّه القرآن عنه.

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام .

المبحث السابع : تعيين من نــزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم ، بل يدخل من يشابههم .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب .

وكل قاعدة كما ترى أُفردت في مبحث مستقل ؛ ليتمَّ النظر إليها ، وإلى تطبيقاتها بشيء من التفصيل ، عسى أن تتضح في الأذهان ، وتستعمل في تفسير القرآن ، وغيره من البيان .

المبحث الأول: الكلام على اتصال السياق، ما لم يدل دليل على انقطاعه:

تلاحظ في هذه القاعدة ، أنها تعتبر السياق أياً كان متصلا ، ولا يقال بانفصاله عما قبله ، أو عما بعده ، إلا بدليل على الانقطاع ، وهذه القاعدة هي أساس التفسير بالسياق ، وقد كانت عمدة للإمام في مواضع كثيرة جداً يتعذّر حصرها .

وبعد جمع المواضع التي استعمل ابن جرير فيها هذه القاعدة ، صنفت ما يتعلق بالقاعدة فظهرت هذه التفريعات وجعلتها في مطالب :

المطلب الأول : نصّ القاعدة ، وطريقة تعامل الإمام مع الجمل المعترضة .

المطلب الثاني : أدلة اتصال السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري –رحمه الله – : وهي : الذين، وإذ ، والضمير ، وعند ، وحتى ، والاستثناء ، وأم ، وبل ، والعطف، والتعليل ، والاستفهام ، وذلك ، وتلك ، وكذلك .

المطلب الثالث : أدلة انقطاع السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري –رحمه الله– : نصّ الآية، والسنة، والإجماع ، وأقوال الصحابة ، وسبب النزول ، وترجيح المعنى الأغلب ، والاستئناف ، واللغة ، والإعراب .

المطلب الرابع : مواضع محتملة لاتصال السياق وانقطاعه .

المطلب الخامس : مواضع لم يطبق فيها الإمام قاعدة اتصال السياق .

المطلب الأول : نصّ القاعدة :

يفسّر كلام الله –عز وجل– على اعتبار كون الكلام الأول وما بعده في موضوعٍ واحدٍ ، وجنسٍ واحدٍ ، ولا يقال بانقطاعه عما قبله أو ما بعده إلا بدليل ، وقد نصّ الإمام على هذه القاعدة في الآية الواحدة مع جملها ، وبين الآيات المتعددة ، وإليك الأمثلة على النوعين :

أولا : نصّ الإمام على اعتبار كون الكلام الأول وما بعده في موضوع واحد ، وجنس واحد، ولا يقال بانقطاعه عما قبله أو ما بعده إلا بدليل في الآية الواحدة : جاء نصّ ابن جرير– رحمه الله – على القاعدة في آية واحدة بالنظر إلى جملها نظر الترابط فيما بينها ، وتكميل بعضها لبعض معنى موضوعٍ واحدٍ ، وسأعرض لهذا فيما يلي معنوناً لها بالفوائد .

فوائد استعمال قاعدة اتصال السياق :

ولإظهار أهمية هذه القاعدة يحسن إيراد ما تحصل من فوائد تفسيرية لكلام الله الكريم ومن هذه الفوائد :

–أ– تحديد مرحلة نزول الآية .

–ب– تعيين المعنى للآية ، وتوضيح المراد منها .

–ج– تحديد المخاطب .

–أ– من فوائد استعمال قاعدة اتصال السياق في الآية الواحدة : تحديد مرحلة نزول الآية: كما في قوله:﴿ **فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ** ﴾[البقرة: ١٩٤] **قال –رحمه الله–**: "اختلف أهل التأويل فيما نزل فيه : ﴿ **فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ **فقال بعضهم** : ...نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل...فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأعزّ الله سلطانه ، أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم ، وأن لا يعدوَ بعضهم على بعض كأهل الجاهلية ، وقال آخرون : بل معنى ذلك : فمن قاتلكم أيها المؤمنون من المشركين فقاتلوهم كما قاتلوكم ،وقالوا :

أُنـزلت هذه الآية على رسول الله- ﷺ -بالمدينة وبعد عمرة القضية[(١)]...قال مجاهد :...فقاتلوهم فيه كما قاتلوكم .

قال أبو جعفر : وأشبه التأويلين بما دلّ عليه ظاهر الآية : الذي حكي عن مجاهد ؛ لأن الآيات قبلها إنما هي أمر من الله للمؤمنين بجهاد عدوّهم على صفة ، وذلك قوله : ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ** ﴾[البقرة: ١٩٠] والآيات بعدها ، وقوله : ﴿**فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ** ﴾ إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد ، والله -جلّ ثناؤه- إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة ، فمعلوم بذلك أن قوله : ﴿**فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ مدني لا مكي ، إذ كان فرض قتال المشركين لم يكن وجب على المؤمنين بمكة ، وأن قوله : ﴿**فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ نظير قوله : ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ** ﴾ وأن معناه : فمن اعتدى عليكم في الحرم فقاتلكم ، فاعتدوا عليه بالقتال ، نحو اعتدائه عليكم بقتاله إياكم ؛ لأني قد جعلت الحرمات قصاصاً ، فمن استحلّ منكم أيها المؤمنون من المشركين حرمة في حَرَمي ، فاستحلوا منه مثله فيه ."[(٢)] .

فكان ورود الآية بين آيات الجهاد باليد والآمرة بالقتال ، حاكماً على أن وقت نـزولها ومعناها متصل مع تلك الآيات السابقة واللاحقة ؛ لأن الجهاد بالقتال لم يفرض إلا بعد مكث النبي- ﷺ – بالمدينة زمناً ، وأما بمكة وأول المقام بالمدينة فالمشروع هو : كف الأيدي ، والعفو حتى يأتي الله بأمره[(٣)].

---

(١) عمرة القضية في السنة السابعة من الهجرة ، وتسميتها من الاقتضاء ؛ ولذلك تسمى عمرة القصاص ، فهي مقاصة للكفار الذين منعوه عام الحديبية في السنة السادسة ، وأقام النبي – ﷺ – بمكة ثلاث ليال . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٢/٤) ، ومختارات من زاد المعاد لابن عثيمين صفحة (١٠١) .

(٢) جامع البيان (٢٠٥/٢) ، وتحقيق شاكر (٥٨٠/٣) .

(٣) انظر الآيات الآمرة بكف الأيدي والعفو : في البقرة (١٠٩) ﴿ **وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩** ﴾ ، والنساء (٧٧) ﴿ **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ الآية ، والجاثية (١٤) ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤** ﴾ وغيرها وراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي =

-ب- **ومن فوائد استعمال اتصال السياق في الآية الواحدة : تعيين المعنى** : ففي قوله -تعالى- : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾[الأعراف: ١٨٧] **قال -رحمه الله-**: "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك [أي : في معنى ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾] ، فقال بعضهم : معنى ذلك : ثقلت الساعة على أهل السماوات والأرض أن يعرفوا وقتها ومجيئها ؛ لخفائها عنهم ، واستئثار الله بعلمها...وقال آخرون : معنى ذلك : أنها كبرت عند مجيئها على أهل السماوات والأرض...وقال آخرون : معنى قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ : على السماوات والأرض...

قال أبو جعفر:وأولى ذلك عندي بالصواب:قول من قال:معنى ذلك : ثقلت الساعة في السماوات والأرض على أهلها أن يعرفوا وقتها وقيامها ؛ لأن الله أخفى ذلك عن خلقه ، فلم يطلع عليه منهم أحداً ، وذلك أن الله أخبر بذلك بعد قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ ، وأخبر بعده : أنها لا تأتي إلاّ بغتة ، فالذي هو أولى أن يكون ما بين ذلك أيضاً خبراً عن خفاء علمها عن الخلق ، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك[1] .

فورود جملة بين جمل في موضوع معين ، ينبغي تفسير هذه الجملة بإلحاقها مع معنى الجمل الأخرى ، فهو أولى من غيره .[2]

-ج- **ومن فوائد استعمال اتصال السياق في الآية الواحدة : تحديد المخاطب** : ففي تفسير

=

(جزء ٢/٥٠) طبع دار الكتب العلمية ، ومفاتيح الغيب للرازي (جزء ٣/٢٢١) طبع دار الكتب العلمية ١٤١١هـ .

(١) جامع البيان (٦/١٣٧-١٣٨) ، وتحقيق شاكر (١٣/٢٩٥) .

(٢) انظر في تحديد المعنى في الآية الواحدة : البقرة (٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ جامع البيان (١/٤١٥) و(٢٨٠) ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣/١١٤) ، والنساء (٢) ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ ﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٧٠-٥٧٣) ، وهود (١١٤) ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ الآية جامع البيان (٧/١٢٩-١٣١) .

قوله –تعالى– : ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢] الآية **قال –رحمه الله–** بعد أن ذكر الأقوال في تفسيرها : "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : قول من قال : معنى ذلك : ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ بمعنى: ولا يضارّهما من استكتب هذا ، أو استشهد هذا، بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له وهو مشغول بأمر نفسه ، ويأبى على هـذا إلا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ...وإنما قلنا هذا القول أولى بالصواب من غيره ؛ لأن الخطاب من الله –عز وجل– في هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها على وجه افعلوا أو لا تفعلوا ، إنما هو خطاب لأهل الحقوق ، والمكتوب بينهم الكتاب ، والمشهود لهم أو عليهم بالذي تداينوه بينهم من الديون ، فأما ما كان من أمر أو نهي فيها لغيرهم ، فإنما هو على وجه الأمر والنهي للغائب غير المخاطب ، كقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكقوله :﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾[البقرة: ٢٨٢] وما أشبه ذلك، فالوجه إذ كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله:﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ بأن يكون الأمر مردوداً على المستكتب والمستشهد ، أشبه منه بأن يكون مردوداً على الكاتب والشهيد ، **ومع ذلك فإن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيّين عن الضرار لقيل: وإن يفعلا فإنه فسوق بهما ؛ لأنهما اثنان ، وأنهما غير مخاطبين بقوله :﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بل النهي بقوله :﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ نهي للغائب غير المخاطب ، فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيراً لما فِي سياق الآية ، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلاً عنه** ."[(١)]

وهكذا تكون الدقة في تتبع السياق ، بالنظر للأوامر ، فلما كان أصل الخطاب في الآية لأهل الحقوق بخطاب الحاضر ، ودخل معه خطابات للغائب ، فالأولى جعل الخطاب الحاضر لمن افتتح بهم الخطاب ، والغائب لغيره ؛ مراعاةً لاطّراد الأسلوب في الآية ، فهو أولى من نقضه وتغييره .

ودونك مثال آخر في المخاطب بقوله –تعالى– : ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة٢٠] **قال –رحمه الله–** ": اختلف فيمن عنُوا بهذا الخطاب : فقال بعضهم : عُني به أمة محمد –ﷺ–...وقال آخرون : عُني به قوم موسى –ﷺ–...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب : قول من قال : ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ

(١) جامع البيان (٣/١٣٤-١٣٧) ، وتحقيق شاكر (٦/٩٠) .

﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، خطاب لبني إسرائيل، حيث جاء في سياق قوله : ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] ومعطوفاً عليه ، ولا دلالة في الكلام تدلّ على أن قوله : ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مصروف عن خطاب الذين ابتدئ بخطابهم في أوّل الآية ؛ فإذا كان ذلك كذلك، فأن يكون خطاباً لهم أولى من أن يقال : هو مصروفٌ عنهم إلى غيرهم..."[1]

ثانياً : نصّ الإمام على اتصال السياق بين الآيات المتعددة :

وأما نصه على السياق المتصل بين الآيات المتعددة فكثير ، وسأعرض لهذه الأمثلة من خلال الفوائد التالية :

-أ- تحديد المعنى .

-ب- تحديد المخاطب .

-أ- أما تحديد المعنى : ففي قوله -تعالى- : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] **قال أبو جعفر -رحمه الله-** : "ومعنى ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤] ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ الآية... وهذا المثل الذي ضربه الله للمنفقين أموالهم رئاء الناس في هذه الآية ، نظير المثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله :﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ .

قال أبو جعفر : وقد تنازع أهل التأويل في تأويل هذه الآية ، إلا أن معاني قولهم في ذلـــك -

(١) جامع البيان (٤/٥١١-٥١٢) ، وتحقيق شاكر (١٠/١٦٤) . وانظر مواضع أخرى في البقـرة (١٠٢) ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية ، جامع البيان (١/٥٠٧-٥٠٨) ، والنساء (٤) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾جامع البيان (٣/٥٨٣-٥٨٤) .

وإن اختلفت تصاريفهم فيها – عائدة إلى المعنى الذي قلنا في ذلك ، وأحسنهم إبـانة لمعناها وأقربهم إلى الصواب قولاً فيها : السدي[١]...[قال]: هذا مثل آخر لنفقة الرياء ، أنه ينفق ماله يرائي الناس به ، فيذهب ماله منه وهو يرائي ، فلا يأجره الله فيه ، فإذا كان يوم القيامة ، واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء ، فذهبت كما أنفق هذا الرجل على جنته ، حتى إذا بلغت ، وكثر عياله ، واحتاج إلى جنته ، جاءت ريح فيها سَموم ، فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئاً ، فكذلك المنفق رياء...

[**ثم قال أبو جعفر**] : وإنما دللنا أن الذي هو أولى بتأويل ذلك ما ذكرناه ؛ لأن الله –جـلّ ثناؤه– تقدم إلى عباده المؤمنين بالنهي عن المنّ والأذى في صدقاتهم ، ثم ضرب مثلاً لمن منّ وآذى من تصدّق عليه بصدقة ، فَمَثَّله بالمرائي من المنافقين ، المنفقين أموالهم رئاء الناس ، وكانت قصة هذه الآية وما قبلها من المثل نظيرة ما ضرب لهم من المثل قبلها، فكان إلحاقها بنظيرتها أولى من حمل تأويلها على أنه مَثَلُ ما لم يجر له ذكر قبلها ولا معها ." [٢]

يتضح من هذا التقعيد أن الأمثال المتوالية من غير فاصل تعتبر واحدة في معناهـا ، ولا يقـال بأنها: مثل لشيء لم يجر له ذكر في السياق ، – ويدخل غير الأمثال إذا اتَّحد الموضوع –؛ إذ الكـلام على اتصاله محقق ، ما لم يدل دليل على انقطاعه .[٣]

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، أحد موالي قريش ، حجازي الأصل ، سكن الكوفة ، كان إماما في الوقائع وأيام الناس، ومفسرا ، روى عن ابن عباس وأنس ، توفي سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة . طبقات ابـن سـعد (٣٢٣/٦) ، وسير أعلام النبلاء (٢٦٤/٥) ، وتهذيب التهذيب (١٥٨/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٠٩/١).

(٢) جامع البيان (٧٤/٣-٧٨) ، وتحقيق شاكر (٥٤١/٥) .

(٣) وانظر مثله في النور (٣٥) ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢١/٩) ، وهناك أمثلة أخرى على القاعدة عامة : مثل الأنعام (٨٩) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية جامع البيـان (٢٦٠/٥-٢٦١)، والتوبـة (١٢٢) ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية ، جامع البيان (٥١٦/٦) ، وهود (٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ الآية ، (٦٢٧/٦) ، و(١١٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الآيـة ، جـامع البيـان (١٣١/٧) ، ويوسف (١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢٥/٧) ، والنحل (٦٩) ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الآية ، جامع البيان (٦١٤/٧) ، والحج (٧٣-٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا
=

وعند تفسير قوله –تعالى– :﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥] **قال أبو جعفر** في تعيين معنى الشفاعة : "يعني بقوله –جلّ ثناؤه– : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ من يَصِرْ يا محمد شفعاً لوتر أصحابك ، فيشفعهم في جهاد عدوّهم وقتالهم في سبيل الله ، وهو الشفاعة الحسنة... ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ يقول : ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به ، فيقاتلهم معهم ، وذلك هو الشفاعة السيئة...وقد قيل : إنه عنى بقوله : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ الآية، شفاعة الناس بعضهم لبعض . وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكرنا ، ثم عمّ بذلك كل شافع بخير أو شرّ، وإنما اخترنا ما قلنا من القول في ذلك ؛ لأنه في سياق الآية التي أمر الله نبيّه – ﷺ – فيها بحضّ المؤمنين على القتال ، فكان ذلك بالوعد لمن أجاب رسول الله – ﷺ – ، والوعيد لمن أبى إجابته ، أشبه منه من الحثّ على شفاعة الناس بعضهم لبعض ، التي لم يجر لها ذكر قبل ، ولا لها ذكر بعد ."[(١)]

وقد أشار الرازي –رحمه الله– إلى حتمية تعلق الآية بالجهاد ؛ لئلا تنقطع الآية عما قبلها [(٢)] ، وقد يحمل المعنى على أن الآية مستأنفة ، سيقت لبيان ثواب النبي – ﷺ – من تحريضه المؤمنين على الجهاد .[(٣)]

وقد يقال : إنها عامة في كل شفاعة ، وتدخل الشفاعة في الجهاد دخولاً أوليًّا بدلالة السياق ، ولكن الأولى ما رجحه ابن جرير – رحمه الله – .

=

ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (١٩٠/٩) ، والأحزاب (٥٥-٥٦) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (٣٢٨/١٠)، والصافات (٢) ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ جامع البيان (٤٦٨/١٠) .

(١) جامع البيان (١٨٨/٤) ، وتحقيق شاكر (٥٨٠/٨) .

(٢) مفاتيح الغيب (جزء١٦٥/١٠) .

(٣) انظر روح المعاني (١٤٣/٤) ، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧٤٨/١) تحقيق عبد القادر عطا .

-ب- **وأما تحديد المخاطب** : ففي قوله -تعالى- :﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾** ﴾ [البقرة: ١١٤] حدّد الخطاب بالنصارى والمسجد مسجد بيت المقدس ؛ بدلالة السياق : **فقال -رحمه الله-**: "اختلف في المعنيّ بالخطاب : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس...وقال آخرون : وهو بختنصر وجنده ، ومن أعانهم من النصارى، والمسجد بيت المقدس...وقال آخرون : بل عنى الله -عز وجل- بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله - ﷺ - من المسجد الحرام...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية : قول من قال : عنى الله -عز وجل- بقوله : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ** ﴾ النصارى ، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه ، بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده . والدليل على صحة ما قلنا في ذلك : قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها ، وأن لا مسجد عنى الله -عز وجل- بقوله : ﴿ **وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ** ﴾ إلا أحد المسجدين ، إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام ، وإذْ كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام ، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله- ﷺ - وأصحابه من الصلاة فيه ، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله -عز وجل- بالسعي في خراب مساجده ، غير الذين وصفهم الله بعمارتها ، إذْ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية ، وبعمارته كان افتخارهم ، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم، وأخرى : أن الآية التي قبل قوله : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ** ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذمّ أفعالهم (١) ، والتي بعدها نبهت بذمّ النصارى ، والخبر

---

(١) وهي قوله -تعالى- : ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ [البقرة: ١١٣] .

عن افترائهم على ربهم، [١] ولم يَجْرِ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها فيوجه الخبر – بقول الله –عز وجل– : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ – إليهم وإلى المسجد الحرام ، وإذْ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أَوْلى بالآية أن يوجه تأويلها إليه ، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلاّ أن تقوم حجّة يجب التّسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت ."[٢]

وعند قوله –تعالى– : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] **قال –رحمه الله–:**"...﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وهذا خطاب من الله نبيّه – ﷺ –، يقول : وترى يا محمد آلهتهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ؛ ولذلك وحّد ، ولو كان أمر النبيّ –ﷺ – بخطاب المشركين لقال : وتروهم ينظرون إليكم . وقد رُوي عن السديّ في ذلك...[أنه] قال : هؤلاء المشركون . وقد يحتمل قول السديّ هذا أن يكون أراد بقوله : هؤلاء المشركون ، قول الله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ ﴾ وقد كان مجاهد يقول في ذلك:... –: "...﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ما تدعوهم إلى الهدى .

---

(١) وهي قوله –تعالى– : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦] .

(٢) جامع البيان (٥٤٥/١–٥٤٧) ، وتحقيق شاكر (٥٢٠/٢) . وانظر سورة البقرة (١٧٧) ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠٠/٢) ، وآل عمران (١٧٩) ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾الآية جامع البيان (٥٢٩/٣) ، و(١٨٨) ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ جامع البيان (٥٤٩/٣) ، والأنعام (٦٥) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ﴾الآية جامع البيان (٢٢٣/٥) ، و(٩١) ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦٢/٥–٢٦٤) ، والأعراف (١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠٥/٦) ، والأنفال (٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ جامع البيان (١٨٢/٦–١٨٣).

وكأنّ مجاهداً وجّه معنى الكلام إلى أن معناه : وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون ، فهو وَجْهٌ ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة فهو بوصفها أشبه."(١)

وعند تفسير قوله -تعالى- : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٦] **قال -رحمه الله -** : اختلف أهل التأويل في تأويل قوله :﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ فقال بعضهم: معناه : هؤلاء المشركون المكذّبون بآيات الله ، ينهون الناس عن اتباع محمد- ﷺ -والقبول منه ، وينأون عنه : يتباعدون عنه...وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ عن القرآن أن يُسمع له ويعمل بما فيه...وقال آخرون : معنى ذلك : وهم ينهون عن أذى محمد -ﷺ- ، وينأون عنه : يتباعدون عن دينه واتّباعه...[فـ] ابن عباس يقول : نزلت في أبي طالب (٢)، كان ينهى عن محمد أن يُؤْذَى ، وينأى عما جاء به أن يؤمن به...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : قول من قال : تأويله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ عن اتباع محمد - ﷺ - من سواهم من الناس ، ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ عن اتباعه . وذلك أن الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادلين به ، والخبر عن تكذيبهم رسول الله - ﷺ - ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه ، فالواجب أن يكون قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ خبراً عنهم ، إذ لم يأتنا ما يدلّ على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم ، بل ما قبل هذه الآية وما بعدها يدلّ على صحة ما قلنا ، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسول الله - ﷺ - ، دون أن يكون خبراً عن خاصّ منهم..."(٣)

فلا يقال : إن هذه الآية مخاطب بها فرد - كأبي طالب — مع أن سابقها ولاحقها على خطاب

---

(١) جامع البيان (١٥١/٦) ، وتحقيق شاكر (٣٢٤/١٣) .

(٢) هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ، ولد قبل الهجرة بخمس وثمانين سنة ،وهو الد علي ، وعم النبي-ﷺ -، وكافله ، ومربّيه ، وناصره ، دعاه الرسول - ﷺ - إلى الإسلام فامتنع ، ونزل فيه قول الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦] ، توفي كافراً قبل الهجرة بثلاث سنين . انظر الأعلام للزركلي (٣١٥/٤) .

(٣) جامع البيان (٧١/٥-٧٣) ، وتحقيق شاكر (٣١١/١١) .

الجماعة ، إلا بدليل صارفٍ الخطابَ عنهم إليه .

فتبيّن مما مضى أن كل خطاب لمعيّن وما يتبعه من الجمل لا يصرف عنه إلى غيره إلا بدليل .

ولقاعدة الاتصال لابد من توضيح طريقة تعامل الإمام مع الجمل المعترضة :

كان عمل الإمام ابن جرير الطبري –رحمه الله– مع الجمل المعترضة فناً ؛ للوصول إلى التفسير السليم ، والمعنى الواضح ، فهو يختصر ما بين الجمل الطويلة ، للوصول إلى المعنى بكل وضوح ، كما في قوله –تعالى– :﴿ **يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾** ﴾ [الحج: ١٢] **قال – رحمه الله –** : "يقول –تعالى ذِكْرُه– : وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة ، ارتد عن دين الله ، يدعو من دون الله آلهة لا تضرّه إن لم يعبدها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها . ﴿**ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ**﴾ يقول : ارتداده ذلك داعياً من دون الله هذه الآلهة هو : الأخذ على غير استقامة ، والذهاب عن دين الله ذهاباً بعيداً ."[1]

فأعاد هذه الآية إلى ما عطفت عليه أول الكلام ، وهو الحديث عن حال من يعبد الله على حرف حال الفتنة بالضراء ، بعد ذكر حاله في السراء ، وحذف جملة : ﴿**ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾**﴾ [الحج: ١١] .

ولا يقال بالاعتراض إلا بدليل : ففي تفسير قوله –تعالى– :﴿ **لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾**﴾ [آل عمران: ١٢٨] **قال –رحمه الله –** :"...يعني بذلك –تعالى ذِكْرُه –: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون ، ليس لك من الأمر شيء ،فقوله :﴿**شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ**﴾ منصوب عطفاً على قوله :﴿**أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ**﴾ [آل عمران: ١٢٧] ، وقد يحتمل أن يكون تأويله : ليس لك من الأمر شيءٌ حتى يتوب عليهم، فيكون نصب ﴿**يَتُوبَ**﴾ بمعنى «أو» التي هي في معنى : «حتى» .

---

(١) جامع البيان (١١٧/٩) . وانظر مثالين آخرين : في آل عمران (٣٥) ﴿ **إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ** ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٢/٣) ، والأحزاب (٢٤-٢٥) ﴿ **لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ** ﴾ الآيتين ، جامع البيان (٢٨٢/١٠) .

قال أبو جعفر : والقول الأول أولى بالصواب ؛ لأنه لا شيء من أمر الخلق إلى أحدٍ سوى خالقهم ، قبل توبة الكفار وعقابهم وبعد ذلك ."(١)

وكأنّ الدليل على هذا عنده هي : الفطرة التي تقر بأن الله –عز وجل – لا يحدّ فعله وملكه شيء ، وهذا الدليل يؤيد اتصال الكلام السابق واللاحق بالجملة المعترضة :﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، فمعنى الأمر : عائد إلى كل ما سبق ، من التوبة والكبت والقطع والتعذيب ، وغيرها من الأمور ، ولا يخصّ بأنّ معنى : ﴿الْأَمْرِ ﴾ التوبة عليهم فقط ، والتعميم بدلالة الفطرة ، كما يفهم من كلام ابن جرير. –والله أعلم –.

ولا يصار إلى القول بالاعتراض إلا عند الحاجة : فعند تفسيره قوله –تعالى– : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾[البقرة: ١٠٢] عمّم الخطاب لعموم الناس ، ولم يخصه باليهود فقط، **فقال أبو جعفر** :"وقوله –جلّ ثناؤه–:﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ خبر مبتدأ عن المتعَلِّمِين من الملَكَين ما أنــزل عليهما ، وليس بجواب لقوله : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] بل هو خبر مستأنف ؛ ولذلك رُفع فقيل : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ فمعنى الكلام إذاً : وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فيأبون قبول ذلك منهما ، فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . وقد قيل : إن قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ خبر عن اليهود ، معطوف على قوله : ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾[البقرة: ١٠٢] ...﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وجعلوا ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ،والذي قلنا أشبه بتأويل الآية ؛ لأن إلحاق ذلك بالذي يليه من الكلام ما كان للتأويل وجه صحيح ، أَوْلى من إلحاقه بما قد حِيْل بينه وبينه من معترض الكلام"(٢).

أي : أنّ تفسير الجمل حال تتابعها ينبغي فيه وصلها بما يليها ، وذلك أولى من إلحاقها بما بَعُد

---

(١) جامع البيان (٤٣١/٣) ، وتحقيق شاكر (١٩٤/٧) .

(٢) جامع البيان (٥٠٧/١-٥٠٨) ، وتحقيق شاكر (٤٤٥/٢) . وانظر النساء (١٢٧) ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾الآية جامع البيان (٣٠١/٤-٣٠٢) ، وانظر الأعراف (١٩٩) ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ جامع البيان (١٥٣/٦) .

منها ؛ حيث يلزم من ذلك كون الكلام الفاصل معترضاً ، ولا يصار إلى ذلك إلا إذا لم يكن للتأويل على وصلها وجه صحيح .

وفي موضع حدّد المخاطب بما يخالف ظاهر السياق : ففي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾ [النساء: ١٣٧] :قال—رحمه الله— : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : **فقال بعضهم**: تأويله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ به ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني : النصارى بعيسى ، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ به ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ بمحمد ، ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ ...**وقال آخرون** :بل عني بذلك:أهل النفاق أنهم آمنوا ثم ارتدّوا ،ثم آمنوا ثم ارتدّوا، ثم ازدادوا كفراً بموتهم على كفرهم...**وقال آخرون** :بل هم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، أتوا ذنوباً في كفرهم فتابوا ، فلم تقبل منهم التوبة فيها مع إقامتهم على كفرهم...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عني بذلك أهل الكتاب الذين أقرّوا بحكم التوراة ، ثم كذبوا بخلافهم إياه ، ثم أقرّ من أقرّ منهم بعيسى والإنجيل ، ثم كذب به بخلافه إياه ، ثم كذّب بمحمد—ﷺ— والفرقان ، فازداد بتكذيبه به كفرا على كفره . وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب في تأويل هذه الآية ؛ لأن الآية قبلها في قصص أهل الكتابين ، أعني قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٦]، ولا دلالة تدلّ على أن قوله :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ منقطع معناه من معنى ما قبله ، فإلحاقه بما قبله أَوْلَى ، حتى تأْتِي دلالة دالة على انقطاعه منه ." (١)

و لم يذكر ابن جرير —رحمه الله — سببَ نزولٍ فيهم ، **وقد أشار الآلوسي**(٢) **—رحمه الله— إلى سبب النزول بالتمريض فقال : "روي عن ابن عباس ."**(٣) **وهو عند البغوي** (١) **—رحمه الله—**

(١) جامع البيان (٣٢٦/٤) ، وتحقيق شاكر (٣١٤/٩) .

(٢) هو محمود أفندي بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، نسبة إلى آلوس جزيرة وسط نهر الفرات ، وبغداد موطن أجداده، ولد سنة سبع عشرة ومائتين وألف ، مفسر محدث أديب بغدادي ، له تفسير روح المعاني وهو أشعري العقيدة وفي تفسيره شيء من التفسير الإشاري للصوفية ، والفوائد السنيّة في علم آداب البحث ، وغيرهما ، توفي سنة سبعين ومائتين وألف . انظر الأعلام (١٥٣/٧) ،والتفسير والمفسرون(٣٥٢/١) ، والمفسرون بين التأويل الإثبات للمغراوي (٢٤١/٢-٢٤٢) .

(٣) روح المعاني (٢٤٨/٤) .

(١) هو أبو محمد ، الحسين بن مسعود بن محمد الفراء ، نسبة لبيع الفرو ، البغوي نسبة لبلدة بغ وتسمى بغشور بخراسان وهي =

من طريق الكلبي ، عن أبي صالح [١] عن ابن عباس [٢] ، وهي أوهى الطرق ، وأضعفها عن ابن عباس [٣].

وهذا القول بدلالة السياق عند ابن جرير موضع خلاف بين المفسرين ، والظاهر في الآية التي قبلها أنها خطاب للمؤمنين كما في غيرها من الآيات ، ثم قوله –تعالى– : ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يدل على أناس بخصوصهم ؛ لأن من عموم أهل الكتاب من أسلم وحسن إسلامه.[٤]–والله أعلم –.

وقد كان من آثار قاعدة الاتصال: ترجيح قراءة على أخرى: قال ابن جرير –رحمه الله–:

" ولكنّي أظنّ أن الذين تأوّلوا ذلك خبراً عن اليهود ، وجدوا قوله :﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] [٥] فوجهوا تأويل ذلك إلى أنه لأهل التوراة، فقرءوه على وجه الخطاب لهم : ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فجعلوا ابتداء الآية خبراً عنهم ، إذ كانت خاتمتها خطاباً لهم عندهم ، وغير ذلك من التأويل ، والقراءة أشبه بالتنزيل ؛ لما وصفت قبل من أن

=

نسبة شاذة ، فقيه شافعي محدث مفسر ، له كتاب شرح السنة ، وتفسير معالم التنزيل ، ومصابيح السنة ، توفي سنة ست عشرة وخمسمائة ، وقيل عشر وخمسمائة . انظر سير أعلام النبلاء (١٩/٤٣٩) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٣٨) ، ووفيات الأعيان (٢/١٣٦) ، والأنساب (١/) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١/١٥٧) ، ومقدمة محقّق شرح السنة (١/٢٠) .

(١) هو باذام ، ويقال : باذان ، مولى أم هانئ بنت أبي طالب ، تابعي ، روى عن علي ، وابن عباس ، قال ابن معين: ليس به بأس ، وإذا حدّث عن الكلبي فليس بشيء . وقال ابن حجر : ضعيف يرسل من الثالثة . انظر تقريب التهذيب (١/١٢١)، وميزان الاعتدال (١/٢٩٦) ، وسير أعلام النبلاء (٥/٣٧) .

(٢) معالم التنزيل للبغوي (١/٤٨٩) ، تحقيق خالد العك ، ومروان مسوار ، الطبعة الرابعة لدار المعرفة ١٤١٥هـ.

(٣) انظر الإتقان (٢/١٢٣٢) ، تعليق الدكتور مصطفى ديب البغا ، الطبعة الثانية لدار ابن كثير ١٤١٤هـ .

(٤) انظر التحرير والتنوير (٣/٢٣١) لابن عاشور .

(٥) وقراءة ابن كثير وأبي عمرو : بالغائب [الياء] في (يجعلون ، يبدون ، يخفون) ووافقهما ابن محيصن، واليزيدي ، وأما الباقون فقرؤوا : بالخطاب [بالتاء في الجميع] ، انظر كتاب السبعة صفحة (٢٦٢) ، والنشر (٢/٢٦٠) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٢) ، والمهذب في القراءات العشر صفحة (٢١٦) .

قوله : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] في سياق الخبر عن مشركي العرب وعبدة الأوثان ، وهو به متصل ، فالأولى أن يكون ذلك خبراً عنهم ."(١)

فاستدلّ بكون السياق في أول هذه الآية عن المشركين على ترجيح قراءة الياء للغائب العائد عليهم أيضاً ، و لم يرجح القراءة بالخطاب الحاضر لليهود ؛ لأنه يفصل الخطاب ويقطعه عن المشركين ، والأصل اتصال السياق . -والله أعلم- .

(١) جامع البيان (٥/٢٦٤) ، وتحقيق شاكر (١١/٥٢٥) ، وانظر مثله في آل عمران (١١٥) ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ، جامع البيان (٣/٤٠٢-٤٠٣) .

المطلب الثاني : أدلة اتصال السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري –رحمه الله–:

ذكر ابن جرير – رحمه الله – دلائل تحدد اتصال الكلام ، وتربطه بما قبله وبما بعده، وهي تختلف في تعداد تكررها ، فمنها ما تكرر وروده وكثر ، ومنها ما قلّ ؛ ولأن أقل الجمع ثلاثة على الصحيح [1]رتبت ما ورد ثلاث مرات فما فوق تحت الكثير ، وما دون الثلاثة جعلته في القليل :

القسم الأول : ما كثر وروده .

القسم الثاني : ما قل وروده .

القسم الأول : ما كثر وروده :

١- (إذ) في ثلاثين موضعاً .

٢- الضمير في خمسة عشر موضعاً .

٣- الظرف (يوم) في أربعة عشر موضعاً .

٤- (الذين) في ثلاثة عشر موضعاً .

٥- التعليل في عشرة مواضع .

٦- الاستفهام في سبعة مواضع .

٧- العطف في خمسة مواضع .

٨- (ذلك) في خمسة مواضع .

٩- (كذلك) في خمسة مواضع .

١٠- الاستثناء في ثلاثة مواضع .

---

(١) أقل الجمع ثلاثة عند أكثر المتكلمين ، وذكر ابن برهان : أنه قول الفقهاء قاطبة ، وهو مذهب مالك ، وحكي عن ابن عباس ، ومشايخ المعتزلة ، وقال آخرون : إن أقلّ الجمع حقيقة الاثنان ، كالاسفراييني ، والباقلاني ، والغزالي ، وابن الماجشون ، والبلخي، وابن داود الظاهري ، وعلي بن عيسى النحوي ، ونفطويه ، وبعض الحنابلة ، وحكي عن عمر ، وزيد بن ثابت . انظر شرح الكوكب المنير (٣/١٤٤-١٤٥) .

القسم الثاني : ما قل وروده :

١- (حتى) في موضعين .

٢- (بل) في موضعين .

٣- (عند) في موضع .

٤- (تلك) في موضع .

٥- (أم) في موضع .

٦- القسم المعطوف في موضع .

٧-(التشبيه) في موضع .

٨- الجار والمجرور في موضع .

القسم الأول : ما كثر وروده :

١- (إذ) في ثلاثين موضعاً : فقد كانت (إذ) موصلة للكلام ، ورابطة بين الآيات في سياق واحد متسق ، ومن هذه المواضع :

أ- ما نصّ فيها - رحمه الله – على كون (إذ) صلة لما قبلها من الكلام .

ب - ذكر الإمام ابن جرير (إذ) وأعادها على ما سبق ، وتكررت في آيات لحقت .

ج- (إذ) رابطة بين الآيات ، ومظهرة للمناسبات .

أ- ما نصّ فيها – رحمه الله – على كون (إذ) صلة لما قبلها من الكلام : عند قوله -تعالى- : ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٤] **قال –رحمه الله–** : " يعني بذلك : والله ذو سمعٍ لقول امرأة عمران، وذو علمٍ بما تضمره في نفسها ، إذ نذرت له ما في بطنها محرّراً . القول في تأويل قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥] يعني بقوله–جلّ ثناؤه–: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ﴾ فـــ ﴿ إِذْ ﴾من صلة ﴿سَمِيعٌ﴾ " [1]

(١) جامع البيان (٣/٢٣٤) ، وتحقيق شاكر (٦/٣٢٨) . وانظر مواضع مثلها في : الأنفال (٩) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ ، جامع البيان (٦/١٨٨) ، والنمل (٧) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
=

ب- ذكر الإمام ابن جرير -رحمه الله- (إذ) وأعادها على ما سبق ، وتكررت في آيات لحقت : ففي تفسير سورة الأنفال : عند قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣] **قال أبو جعفر** : " يقول -تعالى ذِكْرُه- : وإنّ اللهَ يا محمد سميعٌ لما يقول أصحابُك ، عليمٌ بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدوّك وعدوّهم : ﴿ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾."[1]

ثم قال : في قوله -تعالى- : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ٤٨]:" ...فتأويل الكلام : وإن الله لسميعٌ عليمٌ في هذه الأحوال ، وحين زيّن لهم الشيطان خروجهم إليكم أيها المؤمنون لحربكم وقتالكم ، وحسّن ذلك لهم ، وحثهم عليكم..."[2]

ثم قال : في قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩] : " يقول -تعالى ذِكْرُه-: وإن الله لسميع عليم في هذه الأحوال ، وإذ يقول المنافقون ، وكَرَّ بقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ على قوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾."[3]

ج- (إذ) رابطةٌ بين الآيات ، ومظهرةٌ للمناسبات : فعند تفسير قوله -تعالى- : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١٠] **قال- رحمه الله-** : "

=

سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ، جامع البيان (٤٩٦/١٠) ، وسورة ص (٣١) ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ ،جامع البيان (٥٧٧/١٠)،وفصلت (١٤) ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية جامع البيان (٩٤/١١) ، والفتح (٢٦) ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٤/١١) ، والنجم (١٦) ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ جامع البيان (٥١٧/١١) .

(١) جامع البيان (٢٥٨/٦) ، وتحقيق شاكر (٥٦٩/١٣) .

(٢) جامع البيان (٢٦٥/٦) ، وتحقيق شاكر (١١/١٤) .

(٣) جامع البيان (٢٦٦/٦) ، وتحقيق شاكر (١٢/١٤) ، والآية من الأنفال (٤٣) .

يقول -تعالى ذِكْرُه- لنبيّه محمد - ﷺ - : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ [الكهف: ٩] حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل ، هرباً بدينهم إلى الله..." [1].

٢- الضمير في خمسة عشر موضعاً : وقد أشار ابن جرير -رحمه الله- إلى كونه رابطاً

(١) جامع البيان (١٨٢/٨) . وانظر بقية المواضع في : البقــرة (٣٤) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، جامع البيان (٢٦١/١) ، وآل عمران (٤٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٨/٣) و(٨١) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٢٨/٣) ، و(١٠٣) ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٠/٣) ، و(١٢١) ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ ، جامع البيان (٤١٤/٣) ، و(١٢٤) ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ، جامع البيان (٤٢١/٣) ، و(١٥٣) ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٧٦/٣) ، والمائدة (١١٠) ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٧/٥)، والأنعام (٧٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٣٨/٥) ، والأنفال (١١-١٢) ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ الآيتين ،جامع البيان (١٩٢/٦) ، ويوسف (٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ، جامع البيان (١٤٨/٧)، وإبراهيم (٣٥) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ، جامع البيان (٤٦٠/٧)، والأنبياء (٥٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، جامع البيان (٣٦/٩) ، والسجدة (١٢) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ جامع البيان (٢٣٦/١٠) ، والأحزاب (٧) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ ، جامع البيان (٢٦١/١٠) ، و(١٠) ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦٥/٩) ، والصافات (٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ، جامع البيان (٥٠٠/١٠) ، وغافر (٤٧) ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ ، جامع البيان (٦٨/١١)، والأحقاف (٢٩) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ الآية، جامع البيان (٢٩٦/١١) .

وموصّلاً للكلام ، ويعمد الإمام إلى إرجاع الضمير إلى ما تقدم حتى يتصل السياق.

ولتوضيح تطبيق ابن جرير لذلك أسوق هذه المثال :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٤] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه- لنبيّه محمد - ﷺ - : واضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، الذين سألوك أن تطرُد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ، مَثلاً..."(١)

فأرجع الضمير (هم) إلى من كان السياق متحدثاً عنهم ، فربط السياق ، واتصلت المقاطع .

أما إلام يرجع الضمير فإليك الجواب من تطبيقات ابن جرير -رحمه الله- :

أ- الضمير يعود إلى أقرب متقدم أولى من الأبعد : كما في قول الله -تعالى- :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩] **قال أبو جعفر:** "يقول -تعالى ذِكْرُه - : فإن يكفر يا محمد بآيات كتابي الذي أنزلته إليك ، فيجحد هؤلاء المشركون العادلون بربهم، ...ثم اختلف أهل التأويل في المعنيّ بهؤلاء : فقال بعضهم : عُني بهم كفار قريش ، وعني بقوله : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ الأنصار...وقال آخرون : معنى ذلك : فإن يكفر بها أهل مكة ، فقد وكلنا بها الملائكة...وقال آخرون : عني بقوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني : قريشاً ، وبقوله : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ الأنبياء الذين سمّاهم في الآيات التي مضت قبل هذه الآية...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب : قول من قال : عني بقوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ كفار قريش ، ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ يعني به : الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله -تعالى ذِكْرُه - في الآيات قبل هذه الآية ، وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر ، فما بينها بأن يكون خبراً عنهم أَوْلَى وأحقّ من أن يكون خبراً عن

---

(١) جامع البيان (٢٢٢/٨) . وانظر الطلاق (٦) ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٣٧/١٢) .

غيرهم ." (١)

ب- لا يعني القول برجوع الضمير للأقرب بطلان الأبعد لزوماً ، بل قد يكون محتملاً : كما في قوله -تعالى- : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥]، **قال -رحمه الله-** : "﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول : وجعلنا السفينة التي أنجيناه وأصحابه فيها عبرة وعظة للعالمين ، وحجة عليهم...ولو قيل : معنى : "﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وجعلنا عقوبتنا إياهم آية للعالمين ، وجعل الهاء والألف في قوله : ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ كناية عن العقوبة أو السخط ونحو ذلك ، إذ كان قد تقدم ذلك في قوله : ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤] كان وجهاً من التأويل ."(٢)

ج- وإذا لم يُرجع بضمير في الكلام إلى مقدّم فهو دليل انقطاع : ففي قوله -تعالى- : ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤] **قال -رحمه الله-**: " اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله – تعالى ذِكْرُه – بهذه الآية : فقال بعضهم : عُني بها : الذين نهى الله نبيّه عن طردهم...وقال آخرون : عنى بها قوماً استفتوا النبيّ – ﷺ- في ذنوب أصابوها عظام ، فلم يؤيسهم الله من التوبة...وقال آخرون: بل عُني بها قوم من المؤمنين كانوا أشاروا على النبيّ – ﷺ – بطرد القوم الذين نهاه الله عن طردهم ، فكان ذلك منهم خطيئة ، فغفرها الله لهم وعفا عنهم ، وأمر نبيّه – ﷺ – إذا أتوه أن يبشرهم بأن قد غفر لهم خطيئتهم التي سلفت منهم ، بمشورتهم على النبيّ – ﷺ – بطرد القوم الذين أشاروا عليه بطردهم...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية : قول من قال : المعنيون بقوله :

---

(١) جامع البيان (٥/٢٥٩-٢٦١) ، وتحقيق شاكر (١١/٥١٥) . وانظر أمثلة أخرى في البقرة (١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الآية جامع البيان (٢/٨٣) ، ويوسف (١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣٢٥) ، ولقمان (٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/٢٠٥) .

(٢) جامع البيان (١٠/١٢٨) .

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ غير الذين نهى الله النبي -ﷺ- عن طردهم ؛ لأن قوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ خبر مستأنف بعد تقضي الخبر عن الذين نهى الله نبيّه - ﷺ - عن طردهم ، ولو كانوا هم لقيل : وإذا جاءوك فقل سلام عليكم ، وفي ابتداء الله الخبر عن قصة هؤلاء وتركه وصل الكلام بالخبر عن الأوّلين ما ينبئ عن أنهم غيرهم ."[1]

د- وإذا تقدّم أن الضّمير رابطٌ وموصّلٌ للكلام ، وأن عوده إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد ، فإن ثمة قواعد تتعلق بالضمير ، ظهرت من خلال دراستي موضوع السّياق في تفسير شيخ المفسرين ، يحسن عرضها هنا إتماماً للفائدة : وهي :

- الأصل ألا يقال بمرجع ضمير لمعيّن لم يتقدم ذكره : فعند قوله -تعالى- :﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾ [هود: ٥] **قال -رحمه الله-** : " اختلف القرأة في قراءة قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ ﴾ فقرأته عامة قرأة الأمصار : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ ﴾ على تقدير يفعلون من «ثنيت» ، والصدور منصوبة [2] ، واختلف قارئو ذلك كذلك في تأويله ، فقال بعضهم : ذلك كان من فعل بعض المنافقين ، كان إذا مرّ برسول الله - ﷺ - غطّى وجهه وثنى ظهره...وقال آخرون : بل كانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله ، وظنّاً أن الله يخفى عليه ما تضمره صدورهم إذا فعلوا ذلك...وقال آخرون : إنما كانوا يفعلون ذلك ؛ لئلا يسمعوا كتاب الله...وقال آخرون : إنما هذا إخبار من الله نبيّه - ﷺ - عن المنافقين الذين كانوا يضمرون له العداوة والبغضاء ، ويبدون له المحبة والمودّة ، وأنهم معه وعلى دينه . يقول -جلّ ثناؤه- : ألا إنهم يطوون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله ، ثم أخبر -جلّ ثناؤه- أنه لا يخفى عليه سرائرهم وعلانيتهم . وقال آخرون : كانوا يفعلون ذلك إذا ناجى بعضهم بعضاً...ورُوي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك: «ألا إنّهُمْ تَثْنَوني صُدُورُهُمْ»[3]...

---

(١) جامع البيان (٥/٢٠٦) ، وتحقيق شاكر (١١/٣٩٠) .

(٢) وهي القراءة المتواترة لجميع القراء .

(٣) قراءة شاذة . انظر المحتسب في توجيه القراءات الشاذة (١/٣١٨) لابن جني .

قال أبو جعفر : والصواب من القراءة في ذلك عندنا : ما عليه قرأة الأمصار ، وهو: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ على مثال «يفعلون» ، والصدور نصب ، بمعنى : يحنون صدورهم ويكنّونها...**قال أبو جعفر** : فإذا كانت القراءة التي ذكرنا أولى القراءتين في ذلك بالصواب لإجماع الحجة من القرأة عليها ؛ فأولى التأويلات بتأويل ذلك: تأويل من قال : إنهم كانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله أنه يخفى عليه ما تضمره نفوسهم أو تناجوه بينهم ، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالآية ؛ لأن قوله : ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ بمعنى : ليستخفوا من الله، وأن الهاء في قوله : ﴿مِنۡهُۚ﴾ عائدة على اسم الله، و لم يجر لمحمد ذكر قبل ، فيجعل من ذكره - ﷺ - ، وهي في سياق الخبر عن الله ؛ فإذا كان ذلك كذلك ، كانت بأن تكون من ذكر الله أولى..." [١]

وقد يحدّد مرجع الضمير ببعيد : ففي قوله -تعالى- : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] **قال -رحمه الله-**: " يقول -تعالى ذِكْرُه -: وإنّ هذا القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والهاء في قوله : ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ كناية الذكر الذي في قوله :﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الشعراء: ٥] " [٢]

وقد يرجع الضمير لغير متقدّم :كما في قوله -تعالى- : ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣ - ٣٥] [٣] قال في قوله -تعالى-:﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ " يقول : لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين ،﴿مُّسَوَّمَةً﴾ يعني : معلّمة...عند ربك يا إبراهيم ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يعني : للمتعدّين حدود الله ،الكافرين به من قوم لوط ، ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه -: فأخرجنا من كان في قرية سدوم -قرية قوم لوط-[٤]من أهل

---

(١) جامع البيان (٦٢٧/٦) ، وتحقيق شاكر (٢٣٣/١٥) . وانظر مثله في النحل (٦٩) ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ الآية جامع البيان (٦١٤/٧) .

(٢) جامع البيان (٤٧٥/٩) ، والآية من أول الشعراء (٥) .

(٣) الذاريات (٣٣-٣٥) .

(٤) سدوم قرية من قرى قوم لوط ﷺ ، وهي (سَرمين) من أعمال حلب ، معروفة عامرة . انظر معجم البلدان لياقوت =

الإيمان بالله ، وهم لوط وابنتاه ،وكنى عن القرية بقوله : ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ و لم يجر لها ذلك قبل ذلك"[1]

وقد يعود الضمير لغير سابق لظهوره : كما في تفسير قوله -تعالى- : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١] **قال -رحمه الله-** : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم : معناه : وما يعمر من معمر فيطول عمره ، ولا ينقص من عمر آخر غيره عن عمر هذا الذي عمّر عمراً طويلاً ، إلاّ فِي كِتابٍ عنده مكتوب قبل أن تحمل به أمه، وقبل أن تضعه ، قد أحصى ذلك كله ، وعلمه قبل أن يخلقه ، لا يُزاد فيما كتب له ولا ينقص...فالهاء الـتي في قولـه : ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ على هذا التأويل ، وإن كانت في الظاهر أنها كناية عن اسم الْمُعَمّر الأوّل ، فهي كناية اسـم آخر غيره ، وإنما حسُن ذلك ؛ لأن صاحبها لو أظهر لظهر بلفظ الأوّل ، وذلك كقولهم : عندي ثوب ونصفه ، والمعنى : ونصف الآخر . وقال آخرون : بل معنى ذلك : وما يُعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره بفناء ما في من أيام حياته، فذلك هو نقصان عمره . والهاء على هذا التأويل للمُعَمّر الأوّل؛ لأن معنى الكلام : ما يطوّل عمر أحد ، ولا يذهب من عمره شيء فيُنْقَص ، إلاّ وهو في كتاب عبـد الله مكتوب ، قد أحصاه وعلمه...

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب : التأويل الأوّل ، وذلـك أن ذلـك هـو أظهـر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنـزيل ." [2]

هـ- ومن المواضع التي خرجت عن إرجاع الضمير لمتقـدم -فيمـا يظهـر - حيـث كان في مرجع الضمير - على ما ذكره الإمام - انقطاع في السـياق ، أو عـوده علـى بعـض السابق دون أن يرجع إليه كله ما يلي :

تفسيره لقولـه - تعـالى - : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ

=

(٣/٢٠٠) .

(١) جامع البيان (١١/٤٦٦) .

(٢) جامع البيان (١٠/٤٠٠-٤٠١) .

كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] حيث قال في قوله : ﴿**إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ**﴾ " يقول الله : إن الذين سمّيناهم يعني : **زكريا وزوجه ويحيى** ، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا ، والعمل بما يقرّبهم إلينا..."(١)

فهل إرجاعه إلى القريب فقط ؟ أم يشمل كل الأنبياء ؟ وهذه هي سورة الأنبياء ، وقد وافق ابن جرير في إرجاع الضمير إلى النبيين الكريمين المذكورين في الآية : **الرازي وابن كثير** (٢) ، **وخالفهم : أبو السعود** (٣) ، **وصاحبا تفسير الجلالين** (٤) ، **وذكر القولين مع تقديم جملة الأنبياء: القرطبي** (٥) ، **والشوكاني** (٦) ، **والآلوسي** (٧) .**-رحم الله الجميع-**.

وتفسيره لقوله -تعالى- :﴿ **هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾** ﴾ [يس: ٥٦ - ٥٨] حيث **قال -رحمه الله-**: "يعني

---

(١) جامع البيان (٩/٧٩-٨٠) .

(٢) انظر مفاتيح الغيب (جزء٢٢/٢١٨) ، وتفسير القرآن العظيم (٣/١٨٨) .

(٣) في إرشاد العقل السليم (٣/٧٢٤) ، وأبو السعود هو : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ، ولد في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، تولى القضاء ، وله تفسير إرشاد العقل السليم ، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة . انظر شذرات الذهب (٨/٣٩٨) ، والأعلام (٧/٢٨٨) .

(٤) انظر تفسير الجلالين صفحة (٢٩٢) .

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن (جزء ١١/٢٢٢) ، والقرطبي هو : أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي المالكي المفسر ، ولد سنة سبع وعشرين وستمائة ، قال الذهبي: له تصانيف مفيدة...وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ا.هـ ، توفي بمصر سنة إحدى وسبعين وستمائة . انظر نفح الطيب (٢/٢١٠) ، والديباج المذهب (٢/٣٠٨) ، وشذرات الذهب (٥/٣٣٥) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٧٩) ، وطبقات الداوودي (٢/٩٥) ، والأعلام (٦/٢١٧) .

(٦) انظر فتح القدير (٣/٤٢٥) ، والشوكاني هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني ، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف ، في بلدة هجرة شوكان ، من مصنفاته نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، وتحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين ، وهما مطبوعان ، توفي سنة خمسين ومائتين وألف . انظر الأعلام (٧/١٩٠) ، ومقدمة ناشر فتح القدير (١/٤و٧) .

(٧) انظر روح المعاني (١٧/١٣٠) .

–تعالى–بقوله :﴿ هُمْ ﴾ أصحاب الجنة ﴿ هُمْ ﴾ من أهل الجنة في الجنة ."[(١)]

فهل يمتنع وصلها بقوله :﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يس: ٥٥]؟ وقد فسر بعض السلف التفكّه : بأنواع من اللذات ، وفسر الرازي : ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ ﴾ على أنها : مستأنفة ؛ لبيان كمال اللذة والتنعم ، فإن مما ينغص اللذة : التفكر في حال من يهمّ أمره ، فأخبر الله –عز وجل – أنهم وأزواجهم سواء ، فكملت اللذة [(٢)] ، وأشار الشوكاني والآلوسي وأبو السعود إلى ذلك [(٣)].

٣– الظرف (يوم) في خمسة عشر موضعاً :وقد ذكر أنه تفسيرٌ عند قوله –تعالى–: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين: ٦] **قال –رحمه الله–**: في ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ " تفسير عن اليوم الأوّل المخفوض ، ولكنه لما لم يُعِد عليه اللام ردّ إلى مبعوثون ، فكأنه قال : ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس ؟..." [(٤)]

وفي قوله –تعالى– : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة: ٣٥] **قال أبو جعفر** :" يقول –تعالى ذِكْرُه–: فبشر هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا يخرجون حقوق الله منها ، يا محمد : ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ٣٤ – ٣٥] فاليوم من صلة العذاب الأليم ، كأنه قيل :يبشّرهم بعذاب أليم يعذّبهم الله به في يوم يحمى عليها"[(٥)].

---

(١) جامع البيان (١٠/٤٥٤) .

(٢) مفاتيح الغيب (جزء٢٦/٩٢) طبع دار الفكر .

(٣) انظر فتح القدير (٤/٣٧٦) ، وروح المعاني (٢٣/٥١) ، وإرشاد العقل السليم (٤/٥١١) .

(٤) جامع البيان (١٢/٤٨٤) . وانظر مثله في طه (١٠٢) ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ، جامع البيان (٨/٤٥٥) .

(٥) جامع البيان (٦/٣٦٢) ، وتحقيق شاكر (١٤/٢٢٩) . وانظر بقية مواضع (يوم) التي أشير فيها أنها صلة : في الأنبياء (١٠٤)﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ الآية ،جامع البيان (٩/٩٤) ، والنور (٢٤)﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
=

ومثلـــه : (يومئـــذ) : في قولـــه -تعـــالى- : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النـــور: ٢٥] قال : " يقـــول -تعـــالى ذِكْـــرُه -: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] (١) يوفيهم الله حسابهم وجزاءهم الحقّ على أعمالهم."(٢)

٤- (**الذين) في ثلاثة عشر موضعاً** :وقد نـــصّ إمـــام المفســـرين علـــى كونهـــا موصـــلة الكلام بعضه ببعض،وعلى أنها ترجمة وتفسير لمـــا قبلـــها،ومن ذلـــك قولـــه-تعـــالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤] **قـــال أبـــو جعفـــر** : " يقـــول -تعـــالى ذِكْـــرُه - : ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [التوبـــة: ٣٤] ويأكلـــها أيضـــاً معهـــم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ يقول : بشّر الكثير من الأحبـــار والرهبـــان الـــذين يـــأكلون أموال الناس بالباطل ، والذين يكنـــزون الذهب والفضـــة ولا ينفقونهـــا في ســـبيل الله ، بعـــذاب

=

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الآية ،جامع البيان (٢٩٢/٩) ، وسورة ق (٣٠) ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٢٥/١١) ، والطور (٩) ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ جامع البيان (٤٨٤/١١) ، والمجادلة (١٨) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٤/١٢) ، وكذلك ما أشار إلى اتصاله بيوم تفسيراً : كما في المائدة (١٠٩) ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٥/٥) ، والنحل (١١١) ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ الآية ، جامع البيـــان (٦٥٤/٧) ، والإســـراء (٥٢) ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ الآية ،جامع البيان (٩٢/٨) ، والعنكبـــوت (٥٥) ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٥٥/١٠) ، والأحزاب (٦٦) ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ ، جامع البيان (٣٣٥/١٠) ، والدخان (١٦) ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ، جامع البيان (٢٣٠/١١) ، والمزمل (١٤) ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ ، جامع البيان (٢٨٩/١٢).

(١) النور (٢٤) .

(٢) جامع البيان (٣٩٢/٩) .

أليم لهم يوم القيامة موجعٍ من الله ." (١)

وعند تفسير قوله -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٦] (٢) **قال** :" يقول:الذين هم يراءون الناس بصلاتهم إذا صَلَّوْا ؛لأنهم لا يصلّون رغبةً في ثواب،ولا رهبةً من عقاب ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم ، فيكفون عن سفك دمائهم ، وَسبْي ذراريهم ، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، يستبطنون الكفر ، ويُظهرون الإسلامَ." (٣)

فجعل الكلام متصلاً بالمصلين في الآيات الماضية .(٤)

٥- التعليل في عشرة مواضع : والتعليل إما بحرف (اللام) : كما في قوله -عز وجل- : ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ

---

(١) جامع البيان (٣٥٧/٦) ، وتحقيق شاكر (٢١٧/١٤) .

(٢) الماعون (٦) .

(٣) جامع البيان (٧٠٨/١٢) ، وهذا يدل على أن آخر سورة الماعون مدنية . انظر التحرير والتنوير (جزء٥٦٣/٣٠).

(٤) وانظر بقية مواضع (الذين) في : آل عمران (١٧٢) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥١٨/٣) ، و(١٧٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ ﴾ جامع البيان (٥٢٠/٣) ، والأنعام (١٢) ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٥٧/٥) ، والأنفال (٥٦) ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ ﴾ ، جامع البيان (٢٧٠/٦) ، وهود (١٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾الآية ، جامع البيان (٢٣/٧)، والرعد (٢٨) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٧٩/٧) ، والكهف (١٠١)﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١ ﴾الآية، جامع البيان (٢٩١/٨) ، والحج (٤٠) ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٦٢/٩) ، وغافر (٣٥) ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾الآية جامع البيان (٥٩/١١) ، والشورى (٣٧-٣٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٥٤/١١) ، والزخرف (٦٩) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ﴾ جامع البيان (٢٠٩/١١) .

﴿ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾[الفتح: ٥] حيث **قال أبو جعفر** : " وقوله :﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ على اللام من قوله : ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢] بتأويل تكرير الكلام﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١ - ٢] ، إنّا فتحنا لك ؛ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل في الكلام للعطف ، فلم يقل : وليدخل المؤمنين ." [1]

فاللام إذا كانت بدون عاطف ، دليل على أن الكلام مرتبط بالسابق ، ومتصل معناه بمعنى ما قبله .

وفي قوله -تعالى- : ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ۝١٢٧﴾ [آل عمران: ١٢٧] قال أبو جعفر : " يعني بذلك -جلّ ثناؤه- : ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ؛ ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ." [2]

وهكذا ربط بين الجمل بلام التعليل ، مع وجود فاصل من الكلام .

وقد يكون الرابط تعليلاً بحرف (إنْ) المخففة : فعند قوله -تعالى- : ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ۝١١٧﴾ [النساء: ١١٧] **قال -رحمه الله-** في تأويل الآية : "...ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نولّه ما تولّى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً ، ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ ، يقول : ما

---

(١) جامع البيان (٣٣٦/١١) .

(٢) جامع البيان (٤٣٠/٣) ، وتحقيق شاكر (١٩٢/٧) . وانظر مواضع أخرى للام في : النحل (٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ۝٣٩﴾ الآية ، جامع البيان (٥٨٤/٧) و(٦٠) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾ الآية ، جامع البيان (٦٠٠/٧) ، والروم (٤٥) ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾الآية ، جامع البيان (١٩٤/١٠) ، والحديد (٢٣) ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ الآية، جامع البيان (٦٨٦/١١) ، والحشر (٨) ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨/١٢-٣٩) ، والمعارج (٢٤-٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤﴾ الآيتين،جامع البيان (٢٣٥/١٢) .

يدعو الذين يشاقون الرسول ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين شيئاً من دون الله بعد الله وسواه ، ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ ، يعني : إلا ما سمّوه بأسماء الإناث ، كاللات ، والعزّى ، وما أشبه ذلك ."(١)

أو يكون بحرف (إنّ) **المشددة** : كما في قوله -تعالى- : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦] **قال ابن جرير** : "يقول-تعالى ذِكْرُه-: لا تستكبر أيها المستمع المنصت للقرآن عن عبادة ربك ، واذكره إذا قرئ القرآن تضرّعاً وخيفةً ، ودون الجهر من القول ، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع وذلك هو العبادة ." (٢)

٦- الاستفهام في سبعة مواضع : ومنها : في قوله -تعالى- : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ [البقرة: ٢١٥] **قال أبو جعفر** : " والخير الذي قال -جلّ ثناؤُه- في قوله : ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ هو المال الذي سأل رسولَ الله - ﷺ - أصحابُه من النفقة منه ، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية ." (٣)

فالاستفهام وجوابه متصل بعضه ببعض ، ومتطابق مرجع كل منهما على الآخر ، فكلّ جوابٍ مقابلٌ للسؤال (٤).

---

(١) جامع البيان (٤/٢٨٠) ، وتحقيق شاكر (٩/٢١١) .

(٢) جامع البيان (٦/١٦٧) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٥٧) . وقد يحتمل الاتصال والانقطاع ، كما في يوسف (٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٢٣٣) .

(٣) جامع البيان (٢/٣٥٥) ، وتحقيق شاكر (٤/٢٩٢) . وانظر مثله في : آل عمران (١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ﴾ الآية ، (٣/٥٠٤) ، وانظر بقية المواضع في الاستفهام في : الإسراء (٦٨) ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الآية جامع البيان (٨/١١٣) ، والسجدة (١٠-١١) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ﴾ ، جامع البيان (١٠/٢٣٦) ، وسورة (ق) (٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦)﴾ ، جامع البيان (١١/٤٠٩) .

(٤) انظر الإتقان (٢/٦٢٦) .

٧- العطف في خمسة مواضع : العطف يربط بين الآيات ويصلها بموضوع واحد ويبين المعنى المراد ، كما في قوله -تعالى-:﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ [الحج: ٦٨ - ٦٩] حيث قال : " يقول -تعالى ذِكْرُه -لنبيّه محمدٍ - ﷺ - : وإن جادلك يا محمد هؤلاء المشركون بالله في نسكك ، فقل: الله أعلم بما تعملون ونعمل ." (١)

فالجدال الوارد في سياق الآيات هو ما كان في سورة الحج ، وبالأخص في أمر النسك ، الوارد في قوله -تعالى- : ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحج: ٦٧] .

وكذلك في قوله -تعالى- : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥ - ٦] **قال -رحمه الله-** : " قوله : ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ عطفٌ على قوله : ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ ﴾ [القصص: ٤] ومعنى الكلام : أن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها من بني إسرائيل فِرَقاً ، يستضعِف طائفة منهم ، ونحن نُريدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الّذِينَ استضعفهم فرعون من بني إسرائيل ، وَنَجْعَلَهُمْ أئِمّةً ." (٢)

وإرادة الله - تعالى - هي النافذة ، وأمّا ما يريد فرعون ويقصد - من العلو في الأرض واستعباد بني إسرائيل - فلن يدوم .

٨- (ذلك) في خمسة مواضع : ومنها قوله -سبحانه- : ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠] فقد ذكر في الآية اسم

---

(١) جامع البيان (١٨٦/٩) .

(٢) جامع البيان (٢٨/١٠) . وانظر المواضع الأخرى في العطف : البقرة (٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ الآية ، جامع البيان (٤١٢/١) ، والأعراف (٢٠٥) ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ الآية ،جامع البيان (١٦٥/٦) ، والجاثية (٣٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ الآية ، جامع البيان (٢٦٨/١١) .

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وأعيد مرتين :

الموضع الأول : في قوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ **قال –رحمه الله–** : "يقول -تعالى ذِكْرُه – : ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كلّ ما في السماوات السبع والأرضين السبع؟ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة ، على علم منه بجميع ما عملوه في الدنيا ، فمجازي المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء بإساءته . ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه –: إن علمه بذلك في كتاب ، وهو أمّ الكتاب الذي كتب فيه ربنا –جلّ ثناؤه– قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة . ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ...وكان ابن جُرَيج يقول في قوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ ...قوله : ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩] .

وإنما اخترنا القول الذي قلنا في ذلك ؛ لأن قوله :﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله:﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أقرب منه إلى قوله : ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فكان إلحاق ذلك بما هو أقرب إليه أولى منه بما بعد."[(١)]

الموضع الثاني : في قوله –عز وجل– : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ **قال –رحمه الله–**: " اختلف في ذلك ، فقال بعضهم : معناه : إن الحكم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على الله يسير...

وقال آخرون : بل معنى ذلك : أن كتاب القلم الذي أمره الله أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يعني : هيِّن .

وهذا القول الثاني أولى بتأويل ذلك ، وذلك أن قوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ...إلى قوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ أقرب ، وهو له مجاور ، ومن قوله : ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ متباعدٌ مع دخول قوله : :﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ

---

(١) جامع البيان (١٨٧/٩) .

﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بينهما ، فإلحاقه بما هو أقرب أولى ما وجد للكلام ، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح ." [(١)]

فكلا الموضعين فيهما ربط بين الجمل ، وقد ذكر المفسرون في الموضع الثاني : احتمال عود اسم الإشارة إلى الآية الماضية ، وهي قوله -تعالى- : ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فاسم الإشارة يعود إلى حكم الله بين المختلفين يوم القيامة ، والقول الآخر : أن يرجع اسم الإشارة إلى أقرب مذكور ، وهو علم الله – عز وجل- في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ .

وقد ذكر القرطبي ، والشوكاني -رحمهما الله- القولين بلا ترجيح [(٢)] ، **وذكر ابن كثير ، والرازي -رحمهما الله-** القول الذي رجحه ابن جرير [(٣)] ، **وعمم الآلوسي -رحمه الله-**، عوده إلى العلم ، والكتابة ، والحكم ، وأن ذلك أولى من التخصيص[(٤)]،**وفي تفسير الجلالين** قال : " علم ما ذكر ". [(٥)]

٩- **(كذلك) في خمسة مواضع** : فهي تدل على اتصال الكلام وارتباطه بما قبله ، كما في قوله -تعالى- لإبراهيم : ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٤﴾ [الأنعام: ٨٤] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: جزينا نوحاً بصبره على ما امتحن به فينا بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحقّ الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه ، وهدينا من

---

(١) جامع البيان (١٨٦/٩-١٨٧) . وانظر الباقي في : النحل (١٠٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٠٧﴾ جامع البيان (٦٥٢/٧) ، والشورى (١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾الآية ، جامع البيان (١٣٧/١١) ، والحشر (٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية ، جامع البيان (٣١/١٢) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٩٥/١٢) طبع دار إحياء التراث العربي ، وفتح القدير (٤٦٨/٣) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٢٧/٣) ، ومفاتيح الغيب (جزء ٦٧/٢٣) طبع دار الفكر ١٤١٠هـ .

(٤) روح المعاني (٢٩٣/١٠) .

(٥) تفسير الجلالين صفحة (١٠١) .

ذرّيته مِنْ بعده مَن ذَكَر -تعالى ذِكْرُه -من أنبيائه لمثل الذي هديناه لــه ، وكمـــا جزينـــا هـــؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كلّ محسن ." [(١)]

١٠- الاستثناء في ثلاثة مواضع : فهو يدل علــى اتصـــاله بالمســـتثنى منـــه : كمـــا في قولـــه -ســـبحانه- : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤] **قـــال-رحمه الله-**:"يقـــول-تعـــالى ذِكْـــرُه - : وأذَانٌ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إلى النّاسِ يَوْمَ الحَجّ الأكْبَرِ أنّ اللّهَ بَـــرِيءٌ مِـــنَ المُشْـــرِكِينَ وَرَسُـــولُهُ ، إلاّ من عهْد الّذَينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ أيها المؤمنون..." [(٢)]

القسم الثاني : ما قلّ وروده :

١- (حتى) في موضـــعين : كمـــا في قولـــه -تعـــالى- : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوســـف: ١١٠] [(٣)] **قـــال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إلـــيهم مـــن أهـــل القُرى ، فدعوا من أرسلنا إليهم فكذّبوهم ، وردّوا ما أتوا به مـــن عنـــد الله ، حـــتى إذا اســـتيأس

---

(١) جامع البيان (٥/٢٥٧) ، وتحقيق شاكر (١١/٥٠٨) . وانظر بقيـــة المواضـــع في : الأنعـــام (٧٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ جامع البيان (٥/٢٤١) ، ويوسف (٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ الآية جامع البيان (٧/١٥٠) ، والكهف (٢١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الآية جامع البيان (٨/٢٠٤) ، والشـــورى (٥٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ الآية جامع البيان (١١/١٦٢-١٦٣) .

(٢) جامع البيان (٦/٣١٨) ، وتحقيق شاكر (١٤/١٣٢) . وانظر مثله في الفرقـــان (٥٦-٥٧) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٩/٤٠٢) ، والأحزاب (٥٥) ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ الآية جامع البيان (١٠/٣٢٧-٣٢٨) ، وقد يحتمل الاستثناء الوصل أو الانقطاع كما في النمل (١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ جامع البيان (٩/٤٩٩-٥٠٠) .

(٣) يوسف (١١٠) .

الرسل الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله ، ويصدّقوهم فيما أتوهم به من عند الله ، وظنّ الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذّبة أن الرسل الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم ، جاءهم نصرنا ." [(١)]

٢- **(بل) في موضعين** ، كما في قوله -تعالى- : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم: ٢٩] **قال -رحمه الله-:** " يقول -تعالى ذِكْرُه -: ما ذلك كذلك ، ولا أشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله الآلهة والأوثان؛ لأن لهم شركاً فيما رزقهم الله من ملك أيمانهم ، فهم وعبيدهم فيه سواء ، يخافون أن يقاسموهم ما هم شركاؤهم فيه ، فرضوا لله من أجل ذلك بما رضوا به لأنفسهم ، فأشركوهم في عبادته ، ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله اتبعوا أهواءهم ، جهلاً منهم لحقّ الله عليهم ، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته..." [(٢)]

٣- **(عند) في موضع** ، يقول -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣ - ١٤] **قال أبو جعفر :** " وقوله : ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه -: ولقد رآه عند سدرة المنتهى ، فـ ﴿عِندَ﴾ من صلة قوله: ﴿رَءَاهُ﴾ ..."[(٣)]

٤- **(تلك) في موضع** ، وهو قوله -تعالى- : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣] [(٤)] **حيث قال** :"يعني -تعالى ذِكْرُه- بقوله : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين : أيّ الفريقين أحقّ

---

(١) جامع البيان (٣١٦/٧) ، وتحقيق شاكر (٢٩٦/١٦) . وانظر الثاني في المؤمنون (٦٤-٦٥) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الآيتين جامع البيان (٢٢٨/٩) .

(٢) جامع البيان (١٨٢/١٠) . وانظر مثله في سورة ص (١-٢) ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ الآيتين جامع البيان (٥٤٦/١٠-٥٤٧) .

(٣) جامع البيان (٥١٤/١١) .

(٤) الأنعام (٨٣) .

بالأمن ؟ ، أمَن يعبد ربًّا واحداً ، مخلصاً له الدين والعبادة ؟ ، أمْ مَنْ يعبد أرباباً كثيرةً ؟ . وإجابتهم إياه بقولهم : بل من يعبد ربًّا واحداً أحقّ بالأمن ، وقضاؤهم له على أنفسهم ، فكان في ذلك قطع عذرهم ، وانقطاع حجتهم ، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم، فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه ."(١)

٥- (أم) في موضع ، وهو : قوله -سبحانه- : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾** ﴾ [البقرة: ١٣٣] **قال أبو جعفر** : " يعني -تعالى ذِكْرُه - بقوله : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ** ﴾ أكنتم ؛ ولكنه استفهم بـ ﴿ **أَمْ** ﴾ إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه، كما قيل : ﴿ **الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ** ﴾[السجدة: ١ - ٣] ، وكذلك تفعل العرب في كل استفهامٍ ابتدأتْه بعد كلام قد سبقه ، تستفهم فيه بـ«أمْ» . . .

قال أبو جعفر : وتأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنصارى ، المكذّبين بمحمد - ﷺ - الجاحدين نبوّته ، حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ؟ ، أي : أنكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل ، وتنحلوهم اليهودية والنصرانية ، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم ، وولده إسحاق وإسماعيل ، وذرّيتهم بالحنيفية المسلمة ، وبذلك وصوا بنيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم ، فلو حضرتموهم فسمعتم منهم علمتم أنهم على غير ما تنحلوهم من الأديان والملل من بعدهم . وهذه آيات نزلت تكذيباً من الله - تعالى- لليهود والنصارى ، في دعواهم في إبراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملّتهم ، فقال لهم في هذه الآية : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ** ﴾ فتعلموا ما قال لولده ، وقال

---

(١) جامع البيان (٥/٢٥٥) ، وتحقيق شاكر (٥٠٤/١١) ولا دليل على أنهم قالوا هذا ، وقد بين -رحمه الله- أن جملة ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، من كلام الله -تعالى- ، وهذا نقض لما سبق من كلامه -رحمه الله- ، وانظر تعليق شاكر (٥٠٤/١١) .

له ولده ، ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له ." (١)

٦- المقسَم به المعطوف في موضع ، عند قوله -تعالى- : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾ [الصافات: ١ - ٣] قال -رحمه الله- : " واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ فقال بعضهم : [كمجاهد] هي الملائكة ، تزجُر السحاب تسوقه...وقال آخرون : بل ذلك آي القرآن التي زجر الله بها عما زَجر بها عنه في القرآن...

والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا : ما قال مجاهد ، ومن قال : هم الملائكة ؛ لأن الله -تعالى ذِكْرُه - ابتدأ القسم بنوع من الملائكة ، وهم الصافون ، بإجماع من أهل التأويل، فلأن يكون الذي بعده قَسَماً بسائر أصنافهم أشبه ." (٢)

٧- التشبيه في موضع ، في قوله -تعالى- : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٥ - ٦] **قال -رحمه الله-**: " اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه الكاف التي في قوله : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ وما الذي شبه بإخراج الله نبيّه - ﷺ - من بيته بالحقّ ، فقال بعضهم : شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم ، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله ، وقالوا : معنى ذلك : يقول الله : وأصلحوا ذات بينكم ، فإن ذلك خير لكم ، كما أخرج الله محمّداً - ﷺ - من بيته بالحقّ فكان خيراً له...وقال آخرون : معنى ذلك : كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحقّ على كُرهٍ من فريق من المؤمنين ، كذلك هم يكرهون القتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم...واختلف أهل العربية في ذلك ، فقال بعض نحويي الكوفيين: ذلك أمرٌ من الله لرسوله - ﷺ - أن يمضي لأمره في الغنائم على كُرهٍ من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وقال آخرون منهم : معنى ذلك : يسألونك عن الأنفال مجادلةً ، كما جادلوك يوم بدرٍ ، فقالوا : أخرجتنا

(١) جامع البيان (٦١٢/١-٦١٣) ، وتحقيق شاكر (٩٧/٣-٩٨) .
(٢) جامع البيان (٤٦٧/١٠-٤٦٨) .

للعير و لم تعلمنا قتالاً فنستعدّ له ، وقال بعض نحويي البصرة : يجوز أن يكون هذا الكاف في: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ ﴾ على قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ﴾[الأنفال: ٤] ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ **وقال** : الكاف بمعنى : «على» . **وقال آخر منهم** : هي بمعنى القسم ، قال : ومعنى الكلام : والذي أخرجك ربك .

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب : قول من قال في ذلك بقول مجاهد ، وقال معناه : كما أخرجك ربك بالحقّ على كرهٍ من فريق من المؤمنين ، كذلك يجادلونك في الحقّ بعد ما تبين ؛ لأن كلا الأمرين قد كان ، أعني : خروج بعض من خرج من المدينة كارهاً ، وجِدَالهم في لقاء العدوّ وعند دنوّ القوم بعضهم من بعض ، فتشبيه بعض ذلك ببعض مع قرب أحدهما من الآخر ، أولى من تشبيهه بما بعُد عنه ." (١)

فلما ورد في السياق تشبيه ، كان أولى الأقوال ما كان المشبه به وارداً في السياق ، دون ما بعد عنه أو لم يذكر .

٨- **الجار والمجرور في موضع** في قوله -تعالى- : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٨ ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٨] **قال -رحمه الله-** : " يعني -تعالى ذِكْرُه -بقوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ : الله نور السموات والأرض ، مَثَل نورِه كمشكاة فيها مصباح ، في بيوت أذن الله أن ترفع...قال أبو جعفر : قد يحتمل أن تكون ﴿ مِن ﴾ في صلة ﴿ يُوقَدُ ﴾ (٢) ، فيكون المعنى : تُوقَد من شجرة مباركة ، ذلك المصباح في بيوت أذن الله أن ترفع ." (٣)

---

(١) جامع البيان (٦/١٨٠-١٨١) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٩١) .

(٢) النور (٣٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بتاء من فوق مفتوحة وفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالتاء مضمومة وتخفيف القاف ، وقرأ الباقون بالياء . انظر النشر (٢/٣٣٢)، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٩٨) .

(٣) جامع البيان (٩/٣٢٩) .

وقد ذكر الرازي أن هذا القول اختيار كثير من المحققين [1]، وذكر أبو السعود ، وفي تفسير الجلالين ، والآلوسي : أن ﴿ فِي ﴾ متعلقةٌ بـ ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ [2]. والأقوال في الآية كثيرة. —والله أعلم — ، والشاهد هنا : أن الجار والمجرور رابط بين الجمل ، فصار لا بد من تعلق الكلام بالمتقدم والمتأخر ، وأما الخلاف المذكور هنا ففي تعيينه لا في وجوده .

وبعد هذه الأمثلة المتنوعة المتعددة ، يظهر جلياً كم لبعض العبارات والكلمات من تأثير في وصل الكلام بعضه ببعض ! ، مما يؤكد حقيقة قاعدة : الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه ، والتي هي محور موضوع السياق ، وأن اتصال السياق متحتِّم، وتدل عليه دلائل كثيرة ، منها ما سبق ، وغير ما ذكر أكثر . —والله أعلم —.

---

(١) مفاتيح الغيب (جزء ٢٤/٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم (١٢٣/٤) ، وروح المعاني (٢٥٤/١٠) ، وتفسير الجلالين صفحة (٣١٥) .

المطلب الثالث: أدلّة انقطاع السياق مما نصّ عليه الإمام الطبري -رحمه الله- :

كان الحديث فيما سبق عن الاتصال وما يتعلق به من أدلةٍ سار عليها الإمام ابن جرير -رحمه الله- ، وفي هذا المطلب سأتكلم عن أدلة الانقطاع ، التي نصّ عليها الطبري - رحمه الله - ، وقد قمت بإحصائها فوجدتها على النحو التالي :

١- نصّ الآية .

٢- السنة .

٣- قول الصحابة .

٤- الإجماع .

٥- سبب النزول .

٦- اللغة .

٧- ترجيح المعنى الأغلب .

٨- الإعراب .

وفيما يلي توضيح لهذه الأدلة مع التمثيل لها من جامع البيان :

١- نصّ الآية : مما يدل على الانقطاع :

أ- ما تحويه الجملة من خبر لا يكون إلا عن معيّنٍ آخر غير من ذكر في السياق، مثال ذلك : في قوله -تعالى- : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٣] **قال -رحمه الله- :** " ويقول المؤمنون : أهؤلاء الذين حلفوا لنا بالله جهد أيمانهم كذباً إنّهم لمعنا ؟ . يقول الله -تعالى ذِكْرُه -مخبراً عن حالهم عنده بنفاقهم وخبث أعمالهم : ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يقول : ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلاً لا ثواب لها ولا أجر..." (١)

(١) جامع البيان (٦٢٢/٤) ، وتحقيق شاكر (٤٠٩/١٠) . وانظر النساء (١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ
=

فالحكم بحبوط الأعمال اختصاص إلهيٌّ ليس للبشر ؛ ولذلك بيّن الإمام المفسِّر — رحمه الله– انقطاع كلام المؤمنين وابتداء كلام الله –عز وجل– .

ب– وقد يكون انقطاعه بسبب انتهاء حديث شخص ما ، فيكون استطراداً :

كما في قوله –تعالى– : ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٣] **قال –رحمه الله– :** " وقوله : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يقول : وأنهج لكم في الأرض طرقاً...وقوله : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ **يقول** : وأنزل من السماء مطراً فأخرجنا به ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ، وهذا خبرٌ من الله –تعالى ذِكْرُه –عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه ، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عمّا سأله عنه ، وثنائه على ربه بما هو أهله . يقول –جلّ ثناؤه– : فأخرجنا نحن –أيها الناس– بما ننزل من السماء من ماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ، يعني : ألواناً ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ، يعني : مختلفة الطعوم ، والأراييح ، والمنظر ." (١)

إذاً هذا كلام منقطع عن قصة موسى وفرعون ، وهو تذكير بآلاء الله ونعمه على خلقه ؛ لمناسبة المقام إلى هذا الاستطراد ، فانقطع كلام موسى ﷺ عند قوله : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢] ويعود تكميل القصة بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه: ٥٦] (٢) .–والله أعلم –.

=

ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا﴾ الآية جامع البيان (٤/٣٤٩–٣٥٠) .

(١) جامع البيان (٨/٤٢٤) .

(٢) طه (٥٦) . وهناك أمثلة أخرى ، صنفها ابن القيم على نوعين :

أحدهما : أن يستطرد من الشيء إلى لازمه مثل ...قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] ثم استطرد من جوابهم إلى قوله ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [إلى قوله:]﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾[الزخرف٩–١٤] وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له وإقامة الحجة عليهم ...والنوع الثاني : أن يستطرد من الشخص إلى النوع : كقوله :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون:

=

٢- دلالة السنة على انقطاع السياق ، كما في تفسير قوله -تعالى- : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] **قال -رحمه الله -**: " القول في تأويل قوله -تعالى- :﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني بقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿سَيُطَوَّقُونَ ﴾ : سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة طوقاً في أعناقهم ، كهيئة الأطواق المعروفة ، [ثم ساق أحاديث منها قول :]...رسول الله -ﷺ - : "ما من ذي رحمٍ يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل أعطاه الله إيّاه فيبخل به عليه ، إلا أخرج له يوم القيامة شجاع من النار يتلمّظ حتى يطوّقه " ثم قرأ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (١)...**وقال آخرون** : معنى ذلك : :﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيجعل في أعناقهم طوقاً من نار...**وقال آخرون** : معنى ذلك : سيَحْمِل الذين كتموا نبوّة محمد - ﷺ - من أحبار اليهود ما كتموا من ذلك...**وقال آخرون** : معنى ذلك : سيكلّفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به في الدنيا من أموالهم...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية : التأويل الذي قلناه...؛ للأخبار التي ذكرنا في ذلك عن رسول الله - ﷺ - ، ولا أحد أعلم بما عنى الله -تبارك وتعالى - بتنزيله منه -عليه الصلاة والسلام - ." (٢)

=

١٢ - ١٣] إلى آخره ، فالأول آدم والثاني بنوه...انظر بدائع التفسير ٢٨٩/٤-٢٩٠وهو في التبيان في أيمان القرآن .

(١) لا تخلو أسانيد الأحاديث التي ساقها الطبري من ضعف : فبعضها عن أبي مالك العبدي لم تثبت صحبته ، وفي آخر رجل لم يسمَّ ، ولم تثبت صحبته فهو ضعيف إسناداً ، انظر جامع البيان بتحقيق شاكر (٤٣٣/٧) ، ولكن ذكرت ما يؤيده من الصحيحين .

(٢) جامع البيان (٥٣٢/٣-٥٣٤) ، وتحقيق شاكر (٤٣٣/٧) . وانظر طه (١١-١٢) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٣٩٦/٨-٣٩٧) ، والحج (١-٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ جامع البيان (١٠٤/٩-١٠٦) ، والدخان (١٠-١٢) ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى

=

ويؤيّد الأحاديث التي ساقها ابن جرير – وقد ذكرت أحدها – قولهﷺ : "من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان ، يطوّقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه – يعني : شدقيه – يقول : أنا مالك ، أنا كنزك " ثم تلا هذه الآية : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية " (١)

فلا شك أن الآية متعلقة على الراجح بمانعي الزكاة ؛ لتفسير النبي – ﷺ – الآية على هذا المعنى ، ولو لم يكن للزكاة ذكر بالاسم في سياق الآيات .(٢)

وقد وجدت موضعين كان للسنة فيهما دليل على الانقطاع ، أو الاتصال ؛ ولكن الإمام –رحمه الله– لم يذكر شيئاً من السنة :

الموضع الأول : في قوله -تعالى-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢ – ٣٣] **حيث قال** : "اختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بقوله : ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ : فقال بعضهم : عُني به: رسول الله – ﷺ – ، وعليّ ، وفاطمة (٣) ،

=

ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ الآيات جامع البيان (١١/٢٢٧–٢٢٨) .

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير ، وبوبه بنصّ الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠] صفحة (٩٤٣) حديث (٤٥٦٥) .

(٢) انظر فتح الباري (٨/٢٣٠) .

(٣) فاطمة بنت رسول الله محمد – ﷺ – القرشية الهاشمية ، سيدة نساء أهل الجنة ، أمها خديجة بنت خويلد ، وهي أصغر بنات النبي – ﷺ – على الصحيح ، كنيتها أم الهاد وأم أبيها ، ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها علي بن أبي طالب وعمرها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر بعد وقعة بدر ، وولدت له الحسن والحسين ، وزينب –زوج عبد الله ابن جعفر –، وأم كلثوم –زوج عمر –، وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر ، سنة إحدى عشرة . انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٢)، وسير أعلام النبلاء (٢/١١٨) ، وشذرات الذهب (١/١٥) .

والحسن [(١)]، والحسين [(٢)]، –رضوان الله عليهم–[وساق أحاديث منها :]...قالت عائشة : خرج النبيّ – ﷺ– ذات غداة ، وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ[(٣)] من شعر أسود ، فجاء الحسن ، فأدخله معه ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[(٤)]... **وقال آخرون** : بل عني بذلك أزواج رسول الله –ﷺ–..." [(٥)]

فلم يرجّح في هذا الموضع ما أورد من السنة الدالّة على عدم اعتبار دلالة السياق، و لم يعلّق –رحمه الله– على صحة الحديث كما كان جارياً عليه في المواضع الأخرى .

وقد دلّ السياق على دخول الأزواج ، كما ذكر **ابن كثير –رحمه الله–** ؛ لسبب النزول فيهن ، ويدخل قرابته من باب الأولى ، وقد شبّه ابن كثير الخلاف في هذه الآية بالخلاف في المسجد المؤسّس على التقوى **في قوله –تعالى–** : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة:

---

(١) هو أبو عبد الله ، الحسن بن علي بن أبي طالب ، سبط رسول الله – ﷺ – وريحانته ، هو وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ولد في نصف رمضان السنة الثالثة من الهجرة ، وهو أشبه الناس برسول الله –ﷺ– ، أصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، سنة إحدى وأربعين ، بويع بالخلافة ثم تنازل بها لمعاوية –رضي الله عنه– ، توفي سنة تسع وأربعين ، وقيل غير ذلك . انظر الإصابة (١١/٢) ، وتهذيب التهذيب (٤٠٣/١) .

(٢) هو أبو محمد ، الحسين بن علي بن أبي طالب ، سبط سول الله – ﷺ – وريحانته ، هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة ، ولد في شعبان ، سنة أربع من الهجرة ، وقتل في كربلاء يوم عاشوراء ، سنة إحدى وستين ، وله ست وخمسون سنة . انظر الإصابة (١٤/٢) ، وتهذيب التهذيب (٤٢٦/١) .

(٣) المرط : كساء من صوف خزٍّ ، والمرحَّل : الذي فيه خطوط كرحال الإبل . انظر الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٣٦٠/٣-٣٦١) ، وترتيب القاموس المحيط (٣١٦/٢) ، و(٢٢٩/٤) .

(٤) وقد جاء الحديث في صحيح مسلم بزيادة الحسين وفاطمة وعلي –رضي الله عنهم –، ولفظه "...فجاء الحسن ابن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أهل بيت النبي – ﷺ – رقم (٢٤٢٤) (١٨٨٣/٤) .

(٥) جامع البيان (٢٩٦/١٠-٢٩٨) .

١٠٨] وهو قباء ؛ لسبب النزول ، ويدخل مسجد النبي -ﷺ- من باب الأولى ، فأفاد وأجاد ، ومثل ذلك الشوكاني -رحمه الله -[(١)].

ودخول قرابة النبي ﷺ من النسب ليس من طريق الأولى فقط ، بل بنصّ السّنة فقد أدخل النبي ﷺ الحسن والحسين وفاطمة وعليّ في مرطٍ مُرَحَّل ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [(٢)].

والموضع الثاني : في قوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١] **قال-رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه - : وقلنا لعيسى : يا أيها الرسل كلوا من الحلال الذي طيّبه الله لكم دون الحرام ، ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ، تقول في الكلام للرجل الواحد : أيها القوم كفوا عنّا أذاكم ، وكما قال : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، وهو رجلٌ واحدٌ . " [(٣)]

ولكن قد عمّم النبي - ﷺ - الخطاب للرسل جميعاً ، و لم يخصّ الخطاب لأحدٍ بعينه فقال : "...وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الآية الماضية] وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] " الحديث...[(٤)]

فالسّنة جعلت الخطاب لعامة الرسل ، ويدخل عيسى - ﷺ - في عمومهم ، ولا شكّ أن أولى ما يفسر به القرآن السنة ، و لم يذكرها ابن جرير ، ولعل مندوحة ذلك أن الحديث لم يبلغه ، أما الآية من سورة الأحزاب الماضية فقد أورد النصوص و لم يرجحها على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦٥-٤٦٨) ، وفتح القدير (٤/٢٧٨-٢٨٠) طبع دار المعرفة .

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أهل بيت النبي - ﷺ - رقم (٢٤٢٤) (٤/١٨٨٣) ، والآية من الأحزاب (٣٣) .

(٣) جامع البيان (٩/٢٢٠) .

(٤) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة ، في كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم (١٠١٥) صفحة (٢/٧٠٣) .

غيرها أو يذكر رأيه فيها ، كما هي عادته -رحمه الله -، وقد عوّد قرّاءه على التحقيق والتدقيق والترجيح .

٣- ترك اتصال السياق لقول الصحابة -رضي الله عنهم- ، عند قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٠] **قال-رحمه الله-** : " وقوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : [كمسروق[1]] معناه : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ وهو موسى بن عمران - عليه السلام - ، ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ يعني : على مثل القرآن ، قالوا : ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق التوراة ...وقال آخرون : عُني بقوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ عبد الله بن سلام [2] **قالوا** : ومعنى الكلام : وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق . **قالوا** : ومثل القرآن التوراة...

والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ في سياق توبيخ الله -تعالى ذِكْرُه - مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم لنبيّه- ﷺ- ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها ، و لم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر ، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت ، ولا دلّ على انصراف الكلام - عن قصص الذين

(١) هو أبو عائشة ، مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، أسلم في حياة النبي - ﷺ- وهو من المخضرمين ، ومن كبار التابعين الثقاة ، من أهل اليمن ، حدّث عن جمعٍ من الصحابة ، شلت يده يوم القادسية، وتوفي سنة ثلاث وستين ، وقيل اثنتين . انظر سير أعلام النبلاء (٦٣/٤) ، وتهذيب التهذيب (٥٩/٤) .

(٢) هو أبو يوسف ، عبد الله بن سلام بن الحارث -رضي الله عنه- ، من ذرية يوسف -عليه السلام- حليف الخزرج ، كان من يهود بني قينقاع ، أسلم أول مقدم النبي - ﷺ - المدينة ، وشهد له الرسول بالجنة ، توفي سنة ثلاث وأربعين . انظر الإصابة (٨٠/٤) .

تقدّم الخبر عنهم – معنى ، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله – ﷺ – بأن ذلك عني به : عبد الله بن سلام ، وعليه أكثر أهل التأويل [ومنهم : عبد الله بن سلام نفسه ، وابن عباس ، وسعد بن أبي وقاص(١)، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك(٢)، والحسن(٣)، وابن زيد ، ومالك بن أنس ، وغيرهم(٤)] ، قال ابن جرير : وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن ، والسّبب الذي فيه نزل ، وما أريد به ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك : وشهد عبد الله بن سلام ، وهو الشاهد من بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ ، يعني : على مثل القرآن ، وهو التوراة ، وذلك شهادته أن محمّداً مكتوب في التوراة أنه نبيّ ، تجده اليهود مكتوباً عندهم في التوراة ، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبيّ . " (٥)

وذهب ابن كثير –رحمه الله– إلى أن الشاهد اسم جنس يعمُّ عبد الله بن سلام وغيره؛ لمكية السورة ، وإنما أسلم عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – بالمدينة .(٦)

---

(١) هو أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقاص ، وأبو وقاص اسمه مالك بن وهيب ، ويقال : أهيب ، أحد العشرة المبشرين بالجنة والسابقين ، شهد بدراً والحديبية ، قال له النبي – ﷺ –فداك أبي وأمي ، وهو أحد الستة أهل الشورى ، توفي سنة خمس وخمسين ، وقيل غير ذلك . انظر تاريخ بغداد (١٤٤/١) ، وحلية الأولياء (٩٢/١) ، والإصابة (٨٣/٣) ، وغاية النهاية (٣٠٤/١) .

(٢) هو أبو القاسم ، الضحاك بن مزاحم الهلالي ، المفسر ، كان من أوعية العلم ، وليس من المجود حديثه ، وهو صدوق في نفسه ، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما ، وحديثه في السنن ، له تفسير رواه عنه عبيد بن سليمان ، توفي اثنتين ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٥٩٨/٤) ، وتهذيب التهذيب (٢٢٦/٢) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢١٦/١) .

(٣) هو أبو سعيد ، الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، الواعظ المفسر ، تابعي مولى ، ولد سنة إحدى وعشرين ، له كتاب في التفسير ، رواه عنه جماعة ، توفي سنة عشر ومائة . انظر معرفة القراء الكبار (٦٥/١) ، وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٣٥/١) ، وسير أعلام النبلاء (٥٦٣/٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١٤٧/١) .

(٤) انظر جامع البيان (٢٧٨/١١–٢٨٠) ، وتفسير القرآن العظيم (٢٦٢/٧) ، وفتح القدير (١٩/٥) ، وحكى الآلوسي أنه مذهب الجمهور في روح المعاني (جزء٢٦/٢٠) ، دار الفكر ١٤١٤هـ .

(٥) جامع البيان (٢٧٨/١١–٢٨١) .

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/٧) .

وقال الكلبي : بمدنية الآية في سورة مكية [١] ، ورجح ذلك الشنقيطي [٢]، ونسب الشوكاني لابن جرير القول : بأنه رجل آمَن مِن أهل الكتاب بمكة [٣] ، وليس هذا في تفسير ابن جرير كما سبق .

٤- ترك اتصال السياق ؛ لما عبّر عنه بالإجماع عند أهل التأويل : ففي قوله -تعالى- : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠] **قال -رحمه الله-**: "...اختلف أهل التأويل في الشركاء التي جعلاها فيما أوتيا من المولود : فقال بعضهم: جعلا له شركاء في الاسم [أي : أنهما آدم وحواء]...وقال آخرون: بل المعنيّ بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم ، جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد ، وقالوا : معنى الكلام : هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها : أي هذا الرجل الكافر ، حملت حملاً خفيفاً ، فلما أثقلت دعوتما الله ربكما ، قالوا : وهذا مما ابتدئ به الكلام على وجه الخطاب ، ثم ردّ إلى الخبر عن الغائب ، كما قيل : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] ...

قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب : قول من قال : عني بقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ في الاسم لا في العبادة ، وأن المعنيّ بذلك آدم وحوّاء ؛ لإجماع الحجة

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٢٥/٥) .

(٢) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣٦/٥) ، والشنقيطي هو : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الحافظ الزاهد، ولد بموريتانيا ، سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ، أصولي فقيه مفسر لغوي ، له هذا التفسير ، ومذكرة في أصول الفقه ، وغيرهما ،درّس في كلية الشريعة واللغة العربية بجامعة الإمام ،ودرّس بالجامعة الإسلامية والحرم النبوي الشريف ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر ترجمته في مقدمة أضواء البيان (٣/١) ، لتلميذه الشيخ القاضي عطية سالم -رحمه الله- ، وكتاب علماء ومفكرون عرفتهم صفحة (١٧١) .

(٣) فتح القدير (١٦/٥) .

من أهل التأويل على ذلك ." [١]

ومعنى الإجماع عند الطبري – رحمه الله– : عدم الاعتداد بمخالفة الواحد والاثنين، وليس الإجماع بمعناه الاصطلاحي عند الأصوليين [٢] ، وإلا فقد أورد قول من قال : بأنه غير آدم ، ورواه عن الحسن –رحمه الله – ، ورجح ابنُ كثير : قولَ الحسن ؛ لأن الروايات في تعيين أن المراد آدم وحواء ليست مرفوعة ، وأصلها مأخوذ من أهل الكتاب كأبي بن كعب فإن ابن عباس رواه عنه [٣] ، وإلى مثل هذا القول ذهب القرطبي[٤]، وقال الآلوسي : وهذا الموضع عندي من المشكلات،ورجح التسليم بالرواية ؛ لأنها مما لا يقال فيها بالرأي.[٥]

٥- ترك اتصال السياق لسبب النزول : ففي قوله –تعالى- : ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾** ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠] **قال –رحمه الله–** : " يقول –تعالى ذِكْرُه – لنبيّه محمد –ﷺ -: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود ، وما يفترون على الله ويكذبون عليه ، فإن الله لهم بالمِرصاد..."[٦].

ويؤيّد قول الإمام –رحمه الله– ما مضى في السياق من ذكر اليهود ، في قوله –تعالى- : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾** ﴾ [ق: ٣٨] التي دلّ سبب النزول على أنها في اليهود ، وهو عن أبي بكر ، قال : جاءت اليهود إلى

---

(١) جامع البيان (٦/١٤٤-١٤٧) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٠٨) .

(٢) انظر الإجماع في التفسير صفحة (١٣٩-١٤١) للشيخ : محمد بن عبد العزيز الخضيري ، رسالة ماجستير ، في جامعة الإمام، ١٤١٦هـ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٣-٢٦٤) . وأبي بن كعب هو : بن قيس بن عبيد ، أبو المنذر الأنصاري ، سيّد القراء ، قال له النبي – ﷺ -: ليهْنك العلم أبا المنذر ، وقال : إن الله أمرني أن أقرأ عليك ، توفي سنة تسع عشرة وقيل غير ذلك . انظر معرفة القراء الكبار (١/٢٨) ، وسير أعلام النبلاء (١/٣٤٩) ، والإصابة (١/١٦) ، وغاية النهاية (١/٣١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٧/٢١٥) .

(٥) روح المعاني (٦/٢٠٢)و(٢٠٦-٢٠٧) .

(٦) جامع البيان (١١/٤٣٥) .

النبيّ - ﷺ - ، فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ . فقال : «خَلَقَ اللّهُ الأرْضَ يَوْمَ الأحَدِ وَالإِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الجِبالَ يَوْمَ الثّلاثاءِ ، وَخَلَقَ المَدائِنَ والأَقْوَاتَ والأنهارَ وعُمْرانَها وَخَرَابَها يَوْمَ الأرْبعاءِ ، وَخَلَقَ السّمَوَاتِ وَالمَلائِكَةَ يَوْمَ الخَمِيس إلى ثَلاثِ ساعاتٍ ، يعْنِي مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ، وَخَلَقَ فِي أوّلِ الثّلاثِ السّاعاتِ الآجالَ، وفي الثّانيَةِ الآفَةَ ، وفي الثّالِثَةِ آدَمَ ، قالوا : صدقت إن أتممت ، فعرف النبيّ - ﷺ - ما يريدون ، فغضب ، فأنزل الله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨ - ٣٩]".[(١)]

فالذي قطع الحديث عن البعث وهو - في سياق الحديث عن المشركين إلى اليهود- هو سبب النزول ، ولكن يبقى ملاحظة أن سبب النزول ضعيف — والله أعلم -.

ولكن لا يلزم من سبب النزول قطع السياق على الإطلاق : فعند قوله -تعالى-: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾** ﴾ [النساء: ٦٥] **قال —رحمه الله-**: "...اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية وفيمن نزلت ، فقال بعضهم : نزلت في الزبير بن العوّام [(٢)] وخصمٍ له من

---

(١) رجال السند كما قال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، قال : ثنا مهران، عن أبي سنان ، عن أبي بكر ، فابن حميد، اسمه محمد، ضعيف (في تقريب التهذيب:٦٩/٢) ووثّقه شاكر ، وقال : الأغلاط في أحاديثه من جهة مشايخه ، انظر تحقيق شاكر (٤٦/٣و١٨١) ، ومهران بن أبي عمرو : صدوق له أوهام سيئ الحفظ (في تقريب التهذيب:٢١٨/٢) ، وأبو سنان، هو : سعيد بن سنان ، صدوق له أوهام ، (في تقريب التهذيب:٣٥٦/١) وقال شاكر : يخطئ بعض الخطأ (تحقيق شاكر :١٧٢/١) ، وهو من الطبقة السادسة الذين لم يثبت لهم إدراك الصحابة ؛ إذن : فالحديث مرسل وهو ضعيف — والله أعلم —ولكن ورد من طريق آخر عند الحاكم في المستدرك (٥٤٣/٢) قال : أخبرنا أبو سعيد أحمد ابن محمد بن عمرو الأحمسي بالكوفة ، ثنا الحسين بن الربيع ، ثنا حماد بن السري ، ثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي سعيد ، عن عكرمة، عن ابن عباس...الحديث ، قال الذهبي في التلخيص : أبو سعيد البقال قال ابن معين : لا يكتب حديثه (٥٤٣/٢) ، فالظاهر ضعفه —والله أعلم -. وانظر أسباب النزول للواحدي ، تحقيق عصام الحميدان صفحة (٣٩٧) .

(٢) هو أبو عبد الله ، الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، حواريّ رسول الله - ﷺ - ، وابن عمته صفية ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، قيل أسلم وعمره ثلاث عشرة سنة ، وهو أول من سلّ سيفا في سبيل الله ، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، قتله ابن جرموز غدراً في وادي السباع ، سنة ست وثلاثين . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣٢١/٢) ، =

الأنصار، اختصما إلى النبيّ – ﷺ – في بعض الأمـور...وقـال آخـرون : بـل نـزلت هـذه الآية في المنافق واليهودي اللـذين وصـف الله صـفتهما في قولـه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٦٠]...

قال أبو جعفر : وهذا القول : أعني قول من قـال : عـني بـه المحتكمـان إلى الطـاغوت –اللذان وصف الله شـأنهما في قولـه :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ – أولى بالصـواب ؛ لأن قولـه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في سياق قصة الذين ابتدأ اللّه الخـبر عنـهم بقولـه : :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ، ولا دلالة تدلّ على انقطاع قصتهم ، فإلحاق بعض ذلك بـبعض –مـا لم تـأت دلالة على انقطاعه– أَوْلَى .

فإن ظنّ ظانّ أن في الذي رُوي عن الزبير...من قصّـته وقصّـة الأنصـاري [١] في شـراج الحرّة [٢] ، وقول مـن قـال في خبرهمـا ، فنـزلت : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ما ينبئ عن انقطاع حكم هذه الآية وقصتها مـن قصـة الآيـات قبلـها ، فإنـه غير مستحيل أن تكون الآية نـزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت ، ويكـون فيهـا بيـان مـا

=

ومعرفة الصحابة (٣٤٣/١) ، والإصابة (٥/٣) ، وشذرات الذهب (٤٣/١).

(١) القصة بين الزبير بن العوّام ورجل من الأنصار : أنهما اختصما في شراج من الحرّة كانا يسقيان به النخل، فقال الأنصاريّ : سرّح الماء يمرّ! فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ: «اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمّ أرسِلِ المَاءَ إلى جارِكَ!» فغضب الأنصاريّ وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمّ احْبِسِ المَاءَ حتى يَرْجِعَ إلى الجَدْرِ ثُمّ أرْسِلِ المَاءَ إلى جارِكَ!» واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .(انظر جامع البيان (١٦١/٤) وقد أورد البخاري نحوها في صحيحه عند تفسير هذه الآية صفحة (٩٥٠) حديث (٤٥٨٥) .

(٢) الشرج : مسيل ماء من الحرة إلى السهل ، ترتيب القاموس (٦٩١/٢) مادة (ش ر ج) ، والمراد به هنا : مسيل الماء ، قـال أبو عبيد : "كان بالمدينة واديان يسيلان بماء المطر فيتنافس الناس فيه ، فقضى رسول الله ﷺ للأعلى فالأعلى". انظر فـتح الباري (٣٦/٥) ، ومعجم البلدان لياقوت (٣٣١/٣) .

احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاريّ ، إذ كانت الآية دلالةً دالّة ، وإذ كان ذلك غير مستحيل ، كان إلحاق معنى بعضٍ ذلك ببعضٍ أولى ، ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد ، إلا أن تأتي دلالة على انقطاع بعضِ ذلك من بعضٍ ، فيُعدَل به عن معنى ما قبله"(١).

٦- دليل انقطاع السياق من اللغة : فقد يترك طلب اتصال السياق للعموم :

ففي قوله -تعالى- : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] **قال أبو جعفر:** " يعني بذلك -جلّ ثناؤه - : قل يا محمد لأهل الكتاب -وهم أهل التوراة والإنجيل-...واختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية : فقال بعضهم : نزلت في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي مدينة رسول الله -ﷺ- ...وقال آخرون : بل نزلت في الوفد من نصارى نجران...

قال أبو جعفر : وإنما قلنا : عنى بقوله : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : أهل الكتابين ؛ لأنهما جميعاً من أهل الكتاب ، ولم يخصص -جلّ ثناؤه- بقوله : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بَعْضاً دون بعض ، فليس بأن يكون موجّهاً ذلك إلى أنه مقصود به أهل التوراة بأولى منه بأن يكون موجّهاً إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل ، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دون غيرهم من أهل التوراة . وإذ لم يكن أحد الفريقين بذلك بأولى من الآخر ؛ لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح ، فالواجب أن يكون كل كتابي معنيّاً به ؛ لأن إفراد العبادة لله وحده ، وإخلاص التوحيد له ، واجب على كل مأمور منهيّ من خلق الله ، واسم أهل الكتاب يلزم أهل التوراة وأهل الإنجيل ، فكان معلوماً بذلك أنه عني به الفريقان جميعاً . " (٢).

---

(١) جامع البيان (٤/١٦١-١٦٣) ، وتحقيق شاكر (٨/٥١٨) .

(٢) جامع البيان (٣/٣٠٠) ، وتحقيق شاكر (٦/٤٨٣) . ومثله في الأحزاب (٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآية ، جامع البيان (١٠/٢٨٨) ، والطلاق (٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ =

٧- ويترك طلب اتصال السياق لحمل الكلام على الأغلب :

فعند قوله -تعالى- : ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١] **قال أبو جعفر** :"...واختُلف في الفرج الذي عنى الله -جلّ ثناؤه- أنها أحصنته : فقال بعضهم : عَنَى بذلك فَرْجَ نفسها أنها حفظته من الفاحشة ، وقال آخرون: عَنَى بذلك جيب درعها أنها منعت جبرئيل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها ، وقبل أن تثبته معرفة ، قالوا : والذي يدلّ على ذلك قوله : ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ ويعقب ذلك قوله : ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ قالوا : وكان معلوماً بذلك أن معنى الكلام : والتي أحصنت جيبها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا .

قال أبو جعفر : والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك : قول من قال : أحصنت فرجها من الفاحشة ؛ لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه ، والأظهر في ظاهر الكلام ، ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يقول : فنفخنا في جيب درعها من روحنا ." [(١)]

٨- ومن أدلة ترك اتصال السياق : الإعراب :

كما في قوله -تعالى- : ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: ١١٣] **حيث قال أبو جعفر -رحمه الله-** : " يعني بقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ ليس فريقا أهل الكتاب - أهل الإيمان منهم والكفر - سواء، يعني بذلك : أنهم غير متساوين، يقول : ليسوا متعادلين ، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشرّ . وإنما قيل: ليسوا سواء ؛ لأن فيه ذكر الفريقَين من أهل الكتاب اللذَيْن ذكرهما الله في قوله : ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ

=

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢/١٣٦) .

(١) جامع البيان (٩/٨٠) . وانظر مثله : في الحديد (١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[الحديد: ١٩] الآية ، جامع البيان (١١/٦٨٤) .

ﱡﭐ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﱠ [آل عمران: ١١٠] ثم أخبر -جلّ ثناؤه- عن حال الفريقين عنده ، المؤمنة منهما والكافرة ، فقال : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي : ليس هؤلاء سواء ، المؤمنون منهم والكافرون ، ثم ابتدأ الخبر -جلّ ثناؤه- عن صفة الفرقة المؤمنة من أهل الكتاب ومدحهم وأثنى عليهم ، بعد ما وصف الفرقة الفاسقة منهم بما وصفها به من الهلع ونَخْب الجَنان[1] ، ومحالفة الذلّ والصغار ، وملازمة الفاقة والمسكنة ، وتحمّل خزي الدنيا وفضيحة الآخرة ، فقال : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الآيات الثلاث ، إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٥] فقوله : ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مرفوعة بقوله : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ . وقد توهم جماعة من نحويي الكوفة والبصرة والمقدّمين منهم في صناعتهم ، أن ما بعد ﴿سَوَاءً﴾ في هذا الموضع من قوله : ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ ترجمة عن ﴿سَوَاءً﴾ ، وتفسيرٌ عنه ، بمعنى : لا يستوي من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ، وأخرى كافرة ، وزعموا أن ذكر الفرقة الأخرى تُرِكَ اكتفاءً بذكر إحدى الفرقتين ، وهي: الأمة القائمة...وأخطئوا تأويل الآية ، فسواء في هذا الموضع بمعنى التمام والاكتفاء ، لا بالمعنى الذي تأوله من حكينا قوله ." [2]

وكالاستئناف في قوله -تعالى-: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠] **قال -رحمه الله-:** " وقوله : ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ خبر مبتدأ غير مردود على قوله : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ ؛ لأن ذلك لو كان معطوفاً على الكلمة الأولى لكان نصبا " [1] .

---

(١) النخب : الجبن وضعف القلب .

(٢) جامع البيان (٣/٣٩٧-٣٩٨) ، وتحقيق شاكر (٧/١١٨) .

(١) جامع البيان (٦/٣٧٦) ، وتحقيق شاكر (١٤/٢٦١) . ومثله في : إبراهيم (٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ
=

فاستدل بالرفع في قوله -تعالى- : ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ على أن الجملة مستأنفة جديدة ، منقطعة عما قبلها من الكلام ؛ لأن ما قبلها منصوب وهي مرفوعة .

والاستئناف ليس دليلاً على انقطاع السياق على إطلاقه : ففي قوله -تعالى- : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢] **قال أبو جعفر** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين أنفسهم وأموالهم ؛ ولكنه رفع، إذ كان مبتدأ به بعد تمام أخرى مثلها ، والعرب تفعل ذلك..." [(١)]

وقد يتساوى المعنى بين القطع والوصل : **قال -رحمه الله -** : " واختلفت القرّاء في قراءة قوله : ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات: ١٢٦] فقرأته عامة قرّاء مكة والمدينة والبصرة وبعض قرّاء الكوفة :{ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } رفعاً على الاستئناف ، وأن الخبر قد تناهى عند قوله : **{أحْسَنُ الخَالِقِينَ}**[(٢)] ، وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة : ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ نصباً ، على الردّ على قوله : ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] على أن ذلك كله كلام واحد .[(٣)]

والصواب من القول في ذلك عندنا : أنهما قراءتان متقاربتا المعنى ، مع استفاضة القراءة بهما في القرّاء ، فبأيّ ذلك قرأ القارئ فمصيب ، وتأويل الكلام : ذلك معبودكم أيها

=

﴿لَيُبَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ الآية ،جامع البيان (٤١٥/٧) . وقد يحتمل الوصل والقطع إعراباً ويصح الوجهان ، كما في : الصافات (٧٨-٧٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ جامع البيان (٤٩٨/١٠) ، و(١٠٨-١٠٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ جامع البيان (٥١٧/٩) .

(١) جامع البيان (٤٨٢/٦-٤٨٣) ، وتحقيق شاكر (٥٠٠/١٤) .

(٢) الصافات (١٢٥) .

(٣) النصب قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف ، والباقون بالرفع . انظر كتاب السبعة صفحة (٥٤٩)، والنشر في القراءات العشر (٣٦٠/٢) ، والمهذب في القراءات العشر (١٧٧/٢) .

الناس الذي يستحقّ عليكم العبادة ، ربكم الذي خلقكم ، وربّ آبائكم الماضين قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئاً ، ولا يضرّ ولا ينفع ."(١)

وَبَعْدُ فقد ذكرت أدلة الانقطاع التي ذكرها الطبري -رحمه الله -في تفسيره ، وليس معنى ذلك حصرها في هذه الأدلة .

وقد تبين أن الأصل : اتصال الكلام ما لم يدل دليل على انقطاعه ، ومن أمثلة ذلك: كون النصّ لا يحتمل أن يكون المتكلم به واحداً ، أو دلّت الأحاديث عن النبي - ﷺ- على انقطاع السياق عما قبله ، أو صح عن جمع من الصحابة -رضي الله عنهم - التفسير بانقطاع السياق ، أو أجمع أهل التفسير عليه ، أو كان سبب النزول دالاً عليه ، أو دلت اللغة على عدم وصل الكلام ، أو كان أغلب استعمال اللغة على معنى منقطع عما قبله ، أو دل الإعراب على الانقطاع ، على ما سبق تفصيله في الأدلة الماضية.-والله أعلم-.

---

(١) جامع البيان (١٠/٥٢٣) .

المطلب الرابع: مواضع محتملة لاتصال السياق وانقطاعه:

هذا وإن كان الأصل اتصال السياق ، فإن هناك مواضع يمكن تفسيرها على الانقطاع أو الانفصال ؛ لاحتمالها الوجهين ، مما يدل على أن السياق هو الأصل والأغلب، ولا حرج من ذكر احتمال الوجهين .

كما في قوله -تعالى- :﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النبأ: ٢٣] **قال -رحمه الله-** : " وقد اختلف أهل التأويل في مبلغ مدة الحُقْب ، فقال بعضهم : مدة ثلاثمائة سنة...**وقال آخرون**: بل مدة الحُقْب الواحد : ثمانون سنة...**وقال آخرون** : الحُقْب الواحد : سبعون ألف سنة... ورُوي عن خالد بن معدان [1] في قوله : ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ ، وقوله :﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[هود: ١٠٧] : أنهما في أهل التوحيد أهل القِبلة ، فإن قال قائل : فما للكفار عند الله عذاب إلاّ أحقاباً ، قيل : إن الربيع [2] وقتادة قد قالا : إن هذه الأحقاب لا انقضاء لها ، ولا انقطاع ، وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك : لابثين فيها أحقاباً ، في هذا النوع من العذاب، هو أنهم : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٥] فإذا انقضت تلك الأحقاب ، صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك ، كما قال -جلّ ثناؤه- في كتابه : ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص: ٥٥ – ٥٨] وهذا القول عندي أشبه بمعنى الآية..." [3]

---

(١) هو أبو عبد الله ، خالد بن معدان بن أبي كريب الكلاعي ، الشامي الفقيه ، تابعي أدرك سبعين من الصحابة ، وثقه العجلي وغيره ، قال بالقدر ، توفي سنة ثلاث ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر المعارف صفحة (٦٢٥) ، وسير أعلام النبلاء (٥٣٦/٤) ، وتهذيب التهذيب (٥٣٢/١) .

(٢) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي ، قال الذهبي : كان عالم مرو في زمانه ، وفي تقريب التهذيب : صدوق له أوهام رمي بالتشيع ، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (١٦٩/٦) ، وتقريب التهذيب (٢٤٣/١) .

(٣) جامع البيان (٤٠٤/١٢-٤٠٥) .

وقال –رحمه الله – : " وفي قوله : ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ ﴾ [يس: ٤] وجهان أحدهما: أن يكون معناه :إنك لمن المرسلين على استقامة من الحقّ ، فيكون حينئذٍ ﴿ عَلَىٰ ﴾ من قوله: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ ﴾ من صلة الإرسال ، والآخر : أن يكون خبراً مبتدأ ، كأنه قيل : إنك لمن المرسلين . إنك على صراط مستقيم ." [1]

وكذلك فعل القرطبي[2]، وذكر الزمخشري أنها خبر وصلة [3]، ووصلها ابن كثير بالآية التي قبلها[4]، وأما الرازي والشوكاني فقالا : خبرٌ بعد خبر .[5]

---

(١) جامع البيان (١٠/٤٢٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (جزء١٥/٦) طبع دار الكتب العلمية .

(٣) الكشاف (٣/٣١٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٤١) .

(٥) مفاتيح الغيب (جزء٢٦/٤١) وفتح القدير (٤/٣٦٠) .وانظر أمثلة أخرى في : آل عمران (١٥) ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣/٢٠٦) ، والأحزاب (٦) ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ جامع البيان (١٠/٢٦٠) ، و (٦١) ﴿ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ ﴾ ، جامع البيان (١٠/٣٣٤).

المطلب الخامس : مواضع لم يطبق فيها الإمام قاعدة : الكلام على اتصال السياق ما لم يدل دليل على انقطاعه :

كان الإمام الطبري -رحمه الله -يؤكد على اتصال الكلام بما قبله وبما بعده ، ولا يعيده إلى متقدم بعيد إلا بدليل ، وهناك من المواضع ما كان خارجاً عن هذا الاستعمال ، وهي كالتالي :

في قوله -تعالى- : ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾** ﴾ [النساء: ١٣١] **قال أبو جعفر** : " يعني بذلك -جلّ ثناؤه- : ولله ملك جميع ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها ، وإنما ذكر -جلّ ثناؤه- ذلك بعقب قوله : ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ** ﴾[النساء: ١٣٠] تنبيهاً منه خلقه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته ؛ ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجته ، وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياء كلها ، وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذّر عليه أن يغنيَه وكلَّ ذي فاقة وحاجة، ويؤنسَ كلَّ ذي وحشة، ثم رجع -جلّ ثناؤه — إلى عذل من سعى في أمر بني أبيرق [(١)]، وتوبيخهم ، ووعيد من فعل ما فعل المرتدّ منهم ، فقال : ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾ يقول : ولقد أمرنا أهل الكتاب وهم أهل التوراة والإنجيل ﴿**وَإِيَّاكُمْ** ﴾ يقول : وأمرناكم وقلنا لكم ولهم : ﴿**ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ** ﴾ ، يقول : احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه، ﴿**وَإِن تَكْفُرُوا۟** ﴾ يقول : وإن تجحدوا وصيته إياكم أيها المؤمنون فتخالفوها ، ﴿**فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ** ﴾ ، يقول : فإنكم لا تضرون بخلافكم وصيته غير أنفسكم ، ولا تَعْدون في كفركم ذلك أن تكونوا أمثال اليهود

---

(١) هم : بشرٌ وبشيرٌ ومبشّرٌ ، وكان بشير رجلاً منافقاً ، وقيل اسمه : طعمة بن أبيرق ، ارتدّ ومات كافراً . انظر جامع البيان (٤/٢٦٥و٢٦٧و٢٦٩) .

والنصارى ، في نـزول عقوبته بكم ، وحلول غضبه عليكم ، كما حلّ بهم..." (١)

والآية التي في بني أبيرق مضت قبل آيات كثيرة ، وهي قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥] ، وأما الآية التي أرجعها إلى بني أبيرق فهي قوله -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والفاصل بينهما بعيد ، و لم أجد من خص بني أبيرق مع عموم الخطاب ، فيما اطلعت عليه ، غير ابن جرير -رحمه الله- ، إلا أن يكون مراده أن بني أبيرق أولى من يدخل في هذا الخطاب مع دخول غيرهم -كما هي عادته-.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢] **قال -رحمه الله-:** "وقوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ يقول -تعالى- لنبيّه محمد -ﷺ- : وحياتك يا محمد ، إن قومك من قريش ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، يقول : لفي ضلالتهم وجهلهم يتردّدون ." (٢)

والسباق واللحاق لهذه الآية ينفي أن يكون هذا الخطاب حاكياً حال قريش مع النبي - ﷺ - ، بل هو يحكي فعل قوم لوط مع لوط - عليه السلام - على الصحيح ، كما ذكر ذلك ابن عطية ، ونقله الآلوسي عنه .(٣)

وفي قوله -تعالى-﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف: ٥٢] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ يقول [أي: يوسف عليه السلام] : فعلت ذلك ؛ ليعلم سيدي أني لم أخنه بالغيب ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ : يقول : وأن الله لا يسدّد صنيع من خان الأمانات ، ولا يرشد فعالهم في خيانتهموها ، واتصل قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ بقول امرأة العزيز : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١] ؛ لمعرفة السامعين لمعناه ، كاتصال قول الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٣٤]

---

(١) جامع البيان (٤/٣١٦-٣١٧) ، وتحقيق شاكر (٩/٢٩٥) .

(٢) جامع البيان (٧/٥٢٦) .

(٣) المحرر الوجيز (١٠/١٤٤) ، وروح المعاني (٨/١٠٨) .

بقول المرأة : ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ ﴾[النمل: ٣٤] ، وذلك أن قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾ خبر مبتدأ ، وكذلك قول فرعون لأصحابه في سورة الأعراف: ﴿ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ وهو متصل بقول الملأ : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ ﴾[الأعراف: ١١٠] " [١].

فجَعَل هذا الكلام من قول يوسف–عليه السلام–،مع أن سياق القصة والحادثة ليس فيه ذكرٌ ليوسف معهم ، بل إن يوسف وقتها كان في السجن ، وقد رجّح ذلك ابن كثير ؛ بدلالة السياق ، وأنه الأنسب والأليق بالكلام ، وقال :" حكاه الماوردي[٢] في تفسيره [٣]، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية –رحمه الله – فأفرده بتصنيف على حِدَةٍ " [٤]

(١) جامع البيان (٧/٢٣٥-٢٣٦) ، وتحقيق شاكر (١٦/١٤١) .

(٢) هو أبو الحسن ، علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي الماوردي ؛ لأنه كان يبيع ماء الورد أو يصنعه ، له : تفسير النكت والعيون والحاوي في الفقه الشافعي ، والأحكام السلطانية ، وغيرهما ، توفي سنة خمسين وأربعمائة . انظر الأنساب (٥/١٨١) ، وسير أعلام النبلاء (١٨/٦٤) ، وطبقات المفسرين للسيوطي صفحة (٧١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (١/٤٢٣) ، وشذرات الذهب (٣/٢٨٥) .

(٣) انظر تفسير النكت والعيون للماوردي (٣/٤٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٤٦٣) طبع دار عالم الكتب ، وانظر بعض هذا البحث لشيخ الإسلام في الآية في الفتاوى (١٥/١٣٨-١٥٦) ومن أدلته : على أن اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ليس مرجعه إلى يوسف عليه السلام أنه لم يتقدم من يوسف كلام، ولم يتقدم ذكر عفاف ،بل تقدم قول النسوة : ﴿ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ ﴾ [يوسف: ٥١] ، وقولها : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٥١] فقط ، ويلزم من القول بأن اسم الإشارة عائد ليوسف أن ترك يوسف للفاحشة إنما كان من أجل العزيز ، ولكن الله–عز وجل–أخبر أنه تركها خوفاً من الله ورجاء لثوابه ولعلمه بأن الله يراه ،لا لأجل مجرد علم مخلوق قال الله –تعالى– : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ ﴾ [يوسف: ٢٤] ، ثم حال العزيز ليس الغيرة على امرأته بل عكس ذلك ، فلا ينفع هذا الفعل عنده ، ثم الخيانة ضد الأمانة وهما من جنس الصدق والكذب ، وأما فعل الفاحشة فهو من الظلم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾ [يوسف: ٢٣] ﴿ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤] ، ثم قد صدق على المرأة وصف النفس الأمارة بالسوء ، وأما يوسف فإن لم تكن نفسه مرحومة عن هذا الوصف فما في الأنفس مرحوم ...باختصار وتصرف .

وهذه الآية موضع خلاف بين المفسرين ، ولكن ابن جرير –رحمه الله–، لم يذكر فيها إلا قولاً واحداً ، والراجح فيها أن الكلام كلّه كلام المرأة ؛ لاتصاله بكلامها .

وفي سورة المطففين موضعان متشابهان :

الأول: قوله –تعالى– : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ [المطففين : ٨ – ٩] **قال ابن جرير:** "يقول –تعالى ذِكْرُه –لنبيّه محمد– ﷺ –:وأيّ شيء أدراك يا محمد ؟،أيّ شيء ذلك الكتاب؟ثم بين ذلك–تعالى ذِكْرُه–فقال:هو ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ وعنى بالمرقوم : المكتوب ." [(١)]

والثاني : قوله –تعالى– : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾ [المطففين:١٩ – ٢٠] **قال:** " يقول –تعالى ذِكْرُه –لنبيّه محمد الله ، مُعَجّبه من علّيين : وأيّ شيء أشعرك يا محمد ما عليون ؟ وقوله : ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ يقول –جلّ ثناؤه– : إن كتاب الأبرار لفي عِلّيين ، ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ : أي مكتوب بأمان من الله إيّاه من النار يوم القيامة ، والفوز بالجنة ." [(٢)]

فهذان الاستفهامان في السورة : عن المكان ، فكيف يكون الجواب عن المكان بوصف الكتاب ! ، والظاهر من السياق : أن الجواب محذوف تعظيماً ، وما بعده وصف للكتاب ، لا لمكان الكتاب . –والله أعلم–[(٣)].

وقد جاء في الحديث القدسي عن النبي –ﷺ– أنه قال عن العبد الكافر حين يصعد به إلى السماء : "اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى" وعن العبد المؤمن : "اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة "[(٤)].

قال الراغب الأصفهاني –رحمه الله– : والسجّين اسم لجهنم بإزاء علّيين...وقد

---

(١) جامع البيان (٤٨٨/١٢) .

(٢) جامع البيان (٤٩٥/١٢) .

(٣) انظر معالم التنزيل للبغوي (٤٥٩/٤) ، وتفسير القرآن العظيم (٤٨٦/٤) ، وبصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي (١٩٤/٣)، وتفسير التحرير والتنوير (١٩٥/٣٠–١٩٦) .

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان للبيهقي (٣٥٧/١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "ورجال أحمد رجال الصحيح "(٥٠/٣) .

قيل: إن كل شيء ذكره الله -تعالى- بقوله : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فسَّره [١]، وكل ما ذكر بقوله : ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ تركه مبهماً ، وفي هذا الموضع ذكر : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ وكذا في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [٢] ثم فسَّر الكتاب لا السجين والعليين[٣].

وفي ختام هذا المبحث يتبين أهمية قاعدة : الكلام على اتصاله ما لم يدل دليل على انقطاعه ، وأن هناك أدلة لغوية على اتصال السياق وانقطاعه يجب مراعاتها ، وهناك أشياء أخرى يترك السياق لأجلها -سبق الحديث عنها- ، وهذا المبحث أساس دلالة السياق ؛ ولذلك طال عرض الأمثلة فيه ، مع محاولتي الاختصار والاقتصار على أهم المواضع التي فيها توضيحٌ لطريقة التعامل مع المواضع المماثلة —والله تعالى أعلم -.

---

(١) وقد وردت جملة : ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في : الحاقة (٣) ، والمدثر (٢٧) ، والمرسلات (١٤) ، والانفطار (١٧-١٨) ، والمطففين (٨و١٩) ، والطارق (٢) ، والبلد (١٢) ، والقدر (٢) ، والقارعة (٣و١٠) ، والهمزة (٥) .

(٢) المطففين (١٩) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٣٩٩) .

المبحث الثاني : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها :

معنى القاعدة : أَنَّ توارد مفردتين متجاورتين يجعل حمل الثانية نعتاً للمفردة الأولى أفضل من جعلها لمعنى آخر بعيد ، وسبب ذلك طلب اتصال السياق وعدم انقطاعه، ويتضح ذلك بالأمثلة :

ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٥٣] **قال أبو جعفر** : " يعني بقوله: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ واذكروا أيضاً : إذ آتينا موسى الكتاب والفرقان . ويعني بالكتاب : التوراة ، وبالفرقان : الفصل بين الحقّ والباطل...[ولما سُئل ابن زيد عن هذه الآية قال]...: أما الفرقان الذي قال الله -جل وعز- : ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾[الأنفال: ٤١] فذلك يوم بدر ، يوم فرق الله بين الحق والباطل ، والقضاءُ الذي فرق به بين الحق والباطل . قال : فكذلك أعطى الله موسى الفرقان ، فرق الله بينهم ، وسلمه وأنجاه ، فرق بينهم بالنصر ، فكما جعل الله ذلك بين محمد -ﷺ- والمشركين ، فكذلك جعله بين موسى وفرعون .

قال أبو جعفر: وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية...أن الفرقان الذي ذكر الله أنه آتاه موسى في هذا الموضع : هو الكتاب الذي فرق به بين الحقّ والباطل ، وهو نعت للتوراة وصفة لها . فيكون تأويل الآية حينئذ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح ، وفرقنا بها بين الحقّ والباطل ، فيكون الكتاب نعتاً للتوراة ، أقيم مقامها استغناءً به عن ذكر التوراة ، ثم عطف عليه بالفرقان ، إذ كان من نعتها...وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالآية وإن كان محتملاً غيره من التأويل ؛ لأن الذي قبله من ذكر الكتاب ، وأن معنى الفرقان الفصل...فإلحاقه إذ كان كذلك بصفة ما وليه أَوْلى من إلحاقه بصفة ما بعد منه..." (١)

وهكذا جعل الإمام الكتاب : التوراة ، والفرقان : وصفاً لها ، إلحاقاً للكلام

---

(١) جامع البيان (٣٢٣/١) ، وتحقيق شاكر (٧٠/٢) .

بالقريب الأولى من البعيد ؛ ليتصل الكلام بعضه ببعض ، مع احتمال الأوجه الأخرى ، وهو قول الراغب [١] . ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] [٢] وذكر نحوه ابن كثير [٣]، وهو القول في تفسير الجلالين[٤]، ورجح ابن القيم والشوكاني التفريق بينهما ، بل جزم ابن القيم بتصحيح هذا القول دون غيره [٥]، فالكتاب : هو التوراة ، والفرقان : الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما ، وقال : وهذا أولى وأرجح ، ويكون العطف على بابه[٦]؛ ولكن يشكل عليه الآية الماضية الظاهرة من سورة الأنبياء ، في أن الفرقان والتوراة والضياء والذكر أوصاف وأسماء لشيء واحد على القول الراجح ، وسيأتي تفصيل هذه الآية بعد قليل –بإذن الله تعالى– .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠ – ١١] **قال –رحمه الله–** : "اختلف أهل التأويل في المعنيّ بالذكر والرسول في هذا الموضع ، فقال بعضهم : الذكر : هو القرآن ، والرسول : محمد –ﷺ–...وقال آخرون : الذكر : هو الرسول .

والصواب من القول في ذلك : أن الرسول ترجمة عن الذكر ، وذلك نصب ؛ لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة ، فتأويل الكلام إذاً : قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذِكراً من الله لكم ، يذكركم به ، وينبهكم على حظكم ، من الإيمان بالله والعمل بطاعته ، رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه..." [٧]

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٦٣٤) .

(٢) انظر روح المعاني (جزء ٤١٠/١) فقد ذكره أول الأقوال وقال : ويؤيده .. .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٨٨/١) .

(٤) تفسير الجلالين صفحة (١١) .

(٥) بدائع التفسير (٢٣٠/١) .

(٦) فتح القدير (٨٥/١-٨٦) .

(٧) جامع البيان (١٤٤/١٢) .

وقال ابن كثير –رحمه الله – : " الذكر : القرآن ، كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر: ٩] والرسول مبلّغه " ، وساق رأي ابن جرير و لم يعلّق عليه [(١)]، وفي تفسير الجلالين فرّق بين الذكر والرسول : فالذكر القرآن ، والرسول : منصوب بفعل مقدر ، أي : وأرسل[(٢)] .

وذكر الراغب –رحمه الله –: احتمالهما وجهين من الإعراب : إمّا على البدل ، وهو مثل قول ابن جرير ، أو أنّ ﴿رَسُولًا ﴾ منتصب بـ ﴿ذِكْرًا ﴾ كأنه قال : قد أنزل الله إليكم كتاباً ذكراً رسولاً يتلو ، نحو قوله : ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ﴾ [البلد: ١٤ – ١٥] فيتيماً نصب بقوله : ﴿إِطْعَٰمٌ ﴾ [(٣)] ، كما أشار الشوكانيّ –رحمه الله – إلى أنّه : يختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب [(٤)].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] **قال –رحمه الله–** : " يقول – تعالى ذِكْرُه– : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ﴾ العدل وهو ﴿ٱلْقِسْطَ ﴾ ، وجعْلُ القسط وهو مُوَحَّدٌ من نعت الموازين وهو جمع ؛ لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر ." [(٥)]

ففسَّر–رحمه الله – الموازين بالعدل ، وأن معنى الموازين : القسط ، فهما كلمتان ، بمعنى واحد .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٨١/٨–١٨٢) .

(٢) تفسير الجلالين صفحة (٤٩٧) .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن صفحة (٣٢٨) .

(٤) فتح القدير (٢٤٧/٥) .

(٥) جامع البيان (٣٣/٩) . وانظر مواضع أخرى مشابهة : في النحل (٦٩) ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ الآية جامع البيان (٦١٣/٧) ، ولقمان (٢–٣) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٢٠١/١٠) ، وفصلت (٢٨) ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ﴾ الآية جامع البيان (١٠٥/١١) ، والواقعة (٩٥) ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ جامع البيان (٦٦٨/١١).

وذكر القرطبي -رحمه الله- الحكمة من وصف الموازين بالقسط -العدل- : فقال: " لينبّه على مخالفتها لما يكون في وزن الدنيا من بخس وظلم ." [(١)]

فهل يلزم من كلمة : ميزان معنى العدل ! ، بحيث يكون ذكر القسط بعد الميزان تأكيداً ؟ أم لابد من تقييد الوزن بالقسط ؟ ؛ لنعرف سبب تفسير ابن جرير للميزان بالعدل، وكون القسط نعتاً للموازين لم أَرَ من خالف فيه من المفسّرين . -والله أعلم-.

وثَمَّةَ تفريعات تلحق بهذه القاعدة ومنها :

- لو وجد بين المفردتين عاطف فإنها قد تلحق بسابقتها ، وقد لا تلحق :

- **فمثال ما تلحق بسابقتها** : ما في قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٦] **قال أبو جعفر** : " يعني - جلّ ثناؤه - بقوله : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ وبين الجنة والنار حجاب ، يقول : حاجز ، وهو السّور الذي ذكره الله -تعالى- فقال : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد: ١٣] وهو الأعراف التي يقول الله فيها : ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ كذلك "[(٢)].

وهذا القول هو الأشهر ، وهو الثابت عن الصحابة : أنه المكان المرتفع ، بين الجنة والنار ، عليه أهل الأعراف [(٣)] ، وقيل الأعراف : من عرفوا أهل الجنة والنار ، والحق أنه مكان .[(١)]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٩٤) .

(٢) جامع البيان (٥/٤٩٧) ، وتحقيق شاكر (١٢/٤٤٩) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (٧٩) ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية جامع البيان (٣/٣٢٦) ، والحجر (٨٧) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الآية جامع البيان (٧/٥٤١) ، وطه (١٠٧) ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ جامع البيان (٨/٤٥٨-٤٥٩) .

(٣) انظر بدائع التفسير ، الجامع لتفسير ابن القيم (٢/٢١٤) ، جمع يسري السيد محمد .

(١) روح المعاني للآلوسي (جزء ٨/١٨٤) .

وترجيح أن الأعراف مكان مرتفع وأنه أيضا الحجاب المذكور بين الجنة والنار في الآية، تطبيق لقاعدة المبحث : إذا تتالت كلمتان والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها ، فالكلمة الأولى : هي كلمة : ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ ، والكلمة الثانية هي : ﴿حِجَابٌ﴾ .

وقد لا تلحق المفردة بما قبلها ؛ لأن المعنى ليس هو الأغلب في الاستعمال : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] **قال –رحمه الله–** : " يقول – تعالى ذِكْرُه – : ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني به : الكتاب الذي يفرق بين الحقّ والباطل ، وذلك هو التّوراة في قول بعضهم...وكان ابن زيد يقول في ذلك...: الفرقان : الحق آتاه الله موسى وهارون ، فرق بينهما وبين فرعون ، فقضى بينهم بالحقّ ، وقرأ : ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١] قال : يوم بدر .

قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل ؛ وذلك لدخول الواو في الضياء ، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك ، لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء ؛ لأن الضياء الذي آتى الله موسى وهارون هو التوراة ، التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم، فبصرّهم الحلال والحرام ، و لم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الأبصار ، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء .

فإن قال قائل : وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان ، وإن كانت فيه واو فيكون معناه : وضياء آتيناه ذلك ، كما قال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا ﴾ [الصافات: ٦ – ٧] ؟ قيل له : إن ذلك وإن كان الكلام يحتمله ، فإن الأغلب من معانيه ما قلنا، والواجب أن يوجه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوهها المعروفة عند العرب ، ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له ، من حجة خبر ، أو عقل ." (١)

---

(١) جامع البيان (٩/٣٤) .

فلم يحمل معنى الضياء على أنه التوراة ؛ لوجود العطف بالواو ، الدال على المغايرة بين المتعاطفين ، فلا يحمل أحدهما على الآخر ؛ لأن ذلك ليس هو الأشهر في استعمال اللغة.

وقال ابن كثير -رحمه الله- : " وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ؛ ولهذا قال : ﴿**ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [1] " وعلى هذا القول الآلوسي ، وأبو السعود ، وصاحبا تفسير الجلالين [2]، وهذا هو الراجح -والله أعلم-، أن الضياء من آثار التوراة ، فلا مانع من أن تكون ضياء أيضاً نعتاً للفرقان ، والعطف وإن كان يعني المغايرة فإنه يحمل على المعطوف عليه ، كما سبق تفسير : الكتاب والفرقان : بالتوراة مع وجود العطف ، في قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ** ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨] [3] ، فلا مانع من ذلك هنا ؛ لتشابه الموضعين[4]، ولابن القيم -رحمه الله -تفريق بينهما فأحدهما : النصر بالقوة واليد ، والثاني بالحجة والبرهان [5].

وتوقف ابن جرير -رحمه الله- في معنى الرجز: من قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤] **فقال** : "...اختلف أهل التأويل في ذلك الرّجز الذي أخبر الله أنه وقع بهؤلاء القوم ، فقال بعضهم : كان ذلك طاعوناً...وقال آخرون : هو العذاب...

قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال : إن الله – تعالى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٧٧/٣) .

(٢) روح المعاني (جزء ٨٥/١٧) ، وإرشاد العقل السليم ذكره أول قول ، وذكر غيره .(١٧٥/١) ، وتفسير الجلالين صفحة (٢٨٩).

(٣) انظر روح المعاني (جزء ٤١٠/١) .

(٤) انظر أول القاعدة صفحة (٢٠٧-٢٠٨) .

(٥) انظر بدائع التفسير (٢٣٠/١) .

ذِكْرُه- أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز ، وهو العذاب والسخط من الله عليهم ، فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم ، وجائز أن يكون ذلك الرجز كان: الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ؛ لأن كل ذلك كان عذاباً عليهم، وجائزٌ أن يكون ذلك الرّجز كان طاعوناً ، و لم يخبرنا الله أيّ ذلك كان ، ولا صحّ عن رسول الله -ﷺ- بأيّ ذلك كان- خبرٌ فنسلم له ، فالصواب أن نقول فيه كما قال – جلّ ثناؤه- : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ ولا نتعدّاه إلاّ بالبيان الذي لا تمانع فيه بين أهل التأويل ، وهو لما حلّ بهم عذاب الله وسخطه ، ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ يقول: بما أوصاك وأمرك به... ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ ﴾ يقول : لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه..." [1]

فكلمة الرّجز لم يفسِّرها بما سبقها في الآية الماضية في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، و لم يفسِّرها بالطاعون ؛ لعدم الحجة عن النبي-ﷺ -ولا حجّة لأحد الأقوال على الآخر .

وقد رجّح الرازي -رحمه الله- صرف الرجز إلى ما سبق ؛ لأن لفظ الرجز لفظ مفرد محلى بالألف واللام ، فينصرف إلى المعهود السابق ، وهاهنا المعهود السابق هو الأنواع الخمسة التي تقدم ذكرها ، وأما غيرها فمشكوك فيه [2] ، وحمل : الآلوسي وأبو السعود : معنى الرجز على كل عقوبة وقعت عليهم من العقوبات السابقة حتى طلبوا من موسى أن يدعو لهم . [3]

(١) جامع البيان (٤٢/٦) ، وتحقيق شاكر (٧٠/١٣) .

(٢) مفاتيح الغيب (جزء ١٧٩/١٤) .

(٣) انظر روح المعاني (جزء ٥٤/٩) ، وإرشاد العقل السليم (٣٩٥/٢) .

المبحث الثالث : أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة :

حال تتبّعك للسياق عند الإمام الطبري -رحمه الله- من خلال تفسيره جامع البيان تجده يشير إلى أن الأولى في تفسير الآية ما ورد في السورة نفسها دون ما ورد في غيرها .

وسأعرض لأمثلة هذه القاعدة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة ، وما يتعلق بها من تفصيل .

المطلب الثاني : تفسيره الآية بما ورد في السورة نفسها .

المطلب الثالث : تفسيره الآية بما ورد في السورة وغيرها من القرآن .

المطلب الرابع : تفسيره الآية بما ورد في القرآن كله .

المطلب الأول : نص القاعدة وما يتعلق بها من تفصيل :

١- نص القاعدة : واضح في تفسير ابن جرير -رحمه الله - لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦]' قال أبو جعفر :"**اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أنـــزل الله - جلّ ثناؤه- فيه هذه الآية وفي تأويلها : فقال بعضهم...[كابن عباس وابن مسعود[1]] : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ،- يعني قوله:** ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا** ﴾، **وقوله :** ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ** ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث -، قال المنافقون: الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنـــزل الله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال آخرون...[كالرّبيع بن أنس] : هذا مثلٌ ضربه الله للدنيا ، إن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلئوا من الدنيا رِيّاً أخذهم الله عند ذلك ، قال : ثم تلا: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤]...وقال آخرون [كقتادة]...: لما ذكر الله العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنـــزل الله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٦] .

وقد ذهب كل قائل ممن ذكرنا قولـــه في هـــذه الآيـــة وفي المعـــنى الـــذي نـــــزلت فيـــه مذهباً، غير أن أولى ذلك بالصواب وأشبهه بالحقّ ما ذكرنا من قول ابـــن مســـعود وابـــن عبـــاس،

---

(١) هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، كان قصيراً جداً ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكـــة ، خدم النبي -ﷺ- في بيته ، نظر إليه عمر الفاروق فقال: وعاء ملئ علما ، تولى بيت مال الكوفة بعد وفاة الـــنبي -ﷺ- ، توفي بالمدينة ، سنة اثنتين وثلاثين ، وقد جاوز الستين . انظر الإصابة (٣٦٠/٢) ، ومعرفة القراء الكبار (٣٢/١) ، وغاية النهاية (٤٥٨/١) ، وشذرات الذهب (٣٨/١) ، والأعلام (٢٨٠/٤) .

وذلك أن الله جل ذكره أخبر عباده : أنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، عقيب أمثال قد تقدمت في هذه السورة ضربها للمنافقين ، دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها ، فلأن يكون هذا القول ،- أعني قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴾ - جواباً لنكير الكفار والمنافقين ما ضُرب لهم من الأمثال في هذه السورة أحقّ وأولى من أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال في غيرها من السور ، فإن قال قائل: إنما أوجب أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب من الأمثال في سائر السور؛لأن الأمثال التي ضربها الله لهم ولآلهتهم في سائر السور أمثال موافقة المعنى، لما أخبر عنه أنه : لا يستحي أن يضربه مثلاً ، إذْ كان بعضها تمثيلاً لآلهتهم بالعنكبوت، وبعضها تشبيها لها في الضعف والمهانة بالذباب ، وليس ذكر شيء من ذلك بموجود في هذه السورة فيجوز أن يقال : إن الله لا يستحيي أن يضربه مثلاً ما ، فإن ذلك بخلاف ما ظن ، وذلك أن قول الله - جلّ ثناؤه- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ إنما هو خبر منه جل ذكره أنه لا يستحيي أن يضرب في الحقّ من الأمثال صغيرها وكبيرها ، ابتلاءً بذلك عباده واختباراً منه لهم ؛ ليميز به أهل الإيمان والتصديق به، من أهل الضلال والكفر به ، إضلالاً منه به لقوم ، وهدايةً منه به لآخرين..." (١)

ففسَّر -رحمه الله- المراد بالأمثال بما سبق حديث الآيات عنه في سورة البقرة ، مع أن هناك أمثالاً في سور أخرى تنصّ على أحقر المخلوقات ؛ وسبب ذلك : أن تفسير الآية بما ورد في السورة نفسها أولى من تفسيرها بما ورد في غيرها ، وهذه الآية فيها ذكر البعوضة وما فوقها فيدخل في المثل الصغير والكبير ، وقال ابن كثير : في سبب اختيار ابن جرير ؛ لأنه أمس بالسورة وهو مناسب (٢) ، وقدم الرازي والشوكاني لهذه الآية بربطها بما تقدم من

(١) جامع البيان (١/٢١٣-٢١٤) ، وتحقيق شاكر (١/٣٩٨) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٦٢) .

الأمثال [١] ، وضعف الآلوسي ما لم يكن فيه ربط بما تقدم وإن جاز ، فالمناسب لكل آية أن ترتبط بما قبلها [٢] .

٢- السياق الإعرابي لا يكون بين سورتين بل في سورة واحدة : ففي قوله تعالى : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] **قال -رحمه الله-** :"...اختلف أهل العربية في المعنى الجالب هذه اللام في قوله : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ ، فكان بعض نحويي البصرة يقول : الجالب لها قوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥] ، فهي في قول هذا القائل صلة لقوله : **جعلهم** ، فالواجب على هذا القول ، أن يكون معنى الكلام : ففعلنا بأصحاب الفيل هذا الفعل ، نعمة منا على أهل هذا البيت ، وإحساناً منّا إليهم ، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف ، فتكون اللام في قوله : ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ بمعنى إلى ، كأنه قيل : نعمة لنعمة وإلى نعمة؛ لأن إلى موضع اللام ، واللام موضع إلى ، وقد قال معنى هذا القول بعض أهل التأويل...وكان بعض نحويي الكوفة يقول : قد قيل هذا القول ، ويقال : إنّه -تبارك وتعالى- عجّب نبيّه -ﷺ- فقال : اعجب يا محمد لنِعَم الله على قريش ، في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، ثم قال:فلا يتشاغلوا بذلك عن الإيمان واتباعك،يستدل بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، وكان بعض أهل التأويل يوجّه تأويل قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ إلى أُلفة بعضهم بعضاً...

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن هذه اللام بمعنى التعجب ، وأن معنى الكلام : اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ، فليعبدوا ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف . والعرب إذا جاءت بهذه اللام ، فأدخلوها في الكلام للتعجب ، اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها...وأما القول الذي قاله من حَكينا قوله : أنه من صلة قوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] فإن ذلك لو كان كذلك ،

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (جزء ١٤٤/٢) ، وفتح القدير (٥٦/١) .

(٢) روح المعاني (٣٢٩/١) .

لوجب أن يكون ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ بعض ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفيل: ١]، وأن لا تكون سورة منفصلة من ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامّتان ، كلّ واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك [1]. ولو كان قوله : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ من صلة قوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ لم تكن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تامّة حتى توصلَ بقوله : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ؛ لأن الكلام لا يتمّ إلاّ بانقضاء الخبر الذي ذُكر..." [2]

فتبيّن أن وصل السورة بسورة أخرى وصلاً إعرابيّاً خطأ ؛ لإجماع المسلمين على أن هذه سورة ، وتلك سورة أخرى مستقلة عنها ، فلا يمكن أن يكون سياق بين سورتين. —والله أعلم— .

وقد ذكر بعض المفسرين أن مما يؤيّد الاتصال بين السورتين : أن سورة الفيل وقريش في مصحف أبيّ بلا فصل [3] ، وضعّف الرازي هذا القول وما يؤيده ؛ لمخالفة مصحف أبيّ لما أطبقت عليه المصاحف [4] .

وقال ابن كثير —رحمه الله— : " قد فُصِل بينهما في المصاحف بالبسملة ، وهذا لا يمنع تعلقها بما قبلها في المناسبات والارتباط ، لا في الإعراب ، وقد جزم بهذا محمد بن إسحاق[5]، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ."[6]

(١) انظر كلام ابن النحاس في القطع والائتناف صفحة (٧٨٤) ، تحقيق أحمد خطاب العمر .

(٢) جامع البيان (١٢/٧٠٠-٧٠٢) .

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/٥٧٨) .

(٤) مفاتيح الغيب (جزء ٩٨/٣٢) الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية ١٤١١هـ .

(٥) هو أبو بكر ، وقيل أبو عبد الله ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، مولاهم المدني ، إمام حافظ في المغازي والسير ، كثر اختلاف أئمة الجرح والتعديل فيه ، مع اتفاقهم على سعة علمه ، وكثرة اطلاعه ، وجلالته ، وفي تقريب التهذيب : صدوق يدلس ورمي بالتشيع ، توفي سنة إحدى وخمسين ومائتين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٧/٣٣) ، وتقريب التهذيب (٢/٥٤) ، ووفيات الأعيان (٤/٢٧٦) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/٥٥٧) .

٣- تفسير ما ورد في سورة بما سبق بيانه قبلها فهذا ليس ممنوع : قال-رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦] : " يعني - تعالى ذِكْرُه- بذلك : فلعلك يا محمد قاتلُ نفسك ومهلكها- على آثار قومك الذين قالوا لك : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠] تمرّداً منهم على ربهم ، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك ، فيصدّقوا بأنه من عند الله - حزناً وتلهّفاً ووجداً ، بإدبارهم عنك ، وإعراضهم عما أتيتهم به ، وتركهم الإيمان بك..."(١)

ففي هذا المثال ذكر ما يقرب من معنى هذه الآية مع سورة سابقة لها ، وهذا القرب في المعنى فقط ، وليس في ارتباط الكلام واتصاله في التركيب الإعرابي ، و هذا مذهب كثير من العلماء في المناسبات بين الآيات والسور ، والفارق واضح بين هذا والقول باتصال سورة قريش بسورة الفيل .-والله أعلم- .

(١) جامع البيان (١٧٧/٨) ، ومثله في الجاثية (٩) ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ الآية جامع البيان (٢٥٤/١١) .

المطلب الثاني : تفسيره الآية بما ورد في السورة نفسها، وهو على نوعين :

النوع الأول : بدون تضعيف لما لم يرد فيها .

النوع الثاني : قد يورد ما في السورة ويضعف غيره .

النوع الأول : بدون تضعيف لما لم يرد فيها : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص: ٨٧] **حيث قال –رحمه الله– :** " يقول – تعالى ذكره–: ولا يصرفنّك عن تبليغ آيات الله وحججه بعد أن أنزلها إليك ربك يا محمد هؤلاء المشركون بقولهم :﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٤٨] وادع إلى ربك وبلغ رسالته إلى من أرسلك إليه بها..."(١)

ففسر صدّ النبي –ﷺ –عن آيات الله بعد إذ أنزلت عليه ، بقول المشركين له في آية وردت في السورة نفسها ، وفيها صدٌّ وصرفٌ عن رسالته ، بحجّة أنّ القرآن ليس مثل التوراة في قولهم :﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ .

–وقد يفسّر الآية بشبيهها في السورة ، فعند قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام: ٩١] **قال –رحمه الله– :** " وأمّا قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ فإنه أمرٌ من الله – جلّ ثناؤه – نبيّه محمداً – ﷺ – أن يجيب استفهامه هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه ، بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ بقيل : الله ، كأمره إيّاه في موضع آخر في هذه السورة بقوله :﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣] ، فأمره باستفهام المشركين عن ذلك ، كما أمره باستفهامهم

---

(١) جامع البيان (١١٩/١٠) .

إذْ قالُوا : ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٩١] عمن أنزل الكتاب الذي به موسى نُوراً وهدى للناس ، ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقيله : ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٤] ، كما أمره بالإجابة هاهنا عن ذلك بقيله : ﴿ٱللَّهُ﴾ أنزله على موسى ." [(١)]

ففسّر هذه الآية بأنها مشتملة على أمر بسؤال المشركين وأمر بالجواب الصحيح عليه في قضية التنزيل ، تماماً كما سبق في السورة نفسها ، أمر بالسؤال وأمر بالجواب في قضية التصرف في الكون وإنجاء المسافر من ظلمات البرّ والبحر في آية ماضية من هذه السورة .

- **وقد يفسر الآية بمعنى ما ورد في السورة وهو الأغلب** ، قال في قوله تعالى : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠] "يعني - جل ثناؤه- بقوله : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ يا محمد هوى هؤلاء اليهود والنصارى ، فيما يرضيهم عنك من تهوّد وتنصّر ، فصرت من ذلك إلى إرضائهم ، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم ، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبأهم في هذه السورة... "[(٢)]

وفي قوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣] **قال أبو جعفر** : " يعني - تعالى ذِكْرُه- بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الرّسُلَ الذين قصّ الله قصصهم في هذه السورة ، كموسى بن عمران ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وشمويل [(٣)] ، وداود ،

---

(١) جامع البيان (٢٦٦/٥) ، وتحقيق شاكر (٥٢٨/١١) .

(٢) جامع البيان (٥٦٥/١) ، وتحقيق شاكر (٥٦٣/٢) .

(٣) هو النبي الذي قص الله -تعالى- قصته ، وكان في بني إسرائيل من بعد موسى -ﷺ- ، وقيل اسمه يوشع بن نون ، وقد =

وسائر من ذكر نبأهم في هذه السورة..." (١)

وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٤] قال –رحمه الله– :"...وقوله : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه– : لله الأسماء الحسنى ، وهي هذه الأسماء التي سمّى الله بها نفسه ، التي ذكرها في هاتين الآيتين..." (٢)

=

روى ذلك عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (جزء١/٩٧) ، ورجّح ذلك ابن كثير في تفسيره (١/٢٨٤).

(١) جامع البيان (٣/٣) ، وتحقيق شاكر (٥/٣٧٨) .

(٢) جامع البيان (١٢/٥٤) . وانظر أمثلة أخرى في : آل عمران (٤٤) {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} الآية ، جامع البيان (٣/٢٦٥) ، والنساء (١٧٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ جامع البيان (٤/٣٧٧) ، والمائدة (١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٤٨٥) ، و(٣٢) ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٥٤٦) ، و(٦٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٦٤٦) ، و(٦٨) ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/٦٤٩) ، والأنعام (١٠٤) ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥/٢٩٩) ، والتوبة (١٢٤) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ الآية ، جامع البيان (٦/٥١٨) ، وهود (١٠٠) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ، جامع البيان (٧/١١٠) ، و(١١٦) ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/ ١٣٥) ، ويوسف (١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣١٠) ، والرعد (٣٤) ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٣٩٥) ، وإبراهيم (٥٢) ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، جامع البيان (٧/٤٨٧) ، والحجر (٨٥) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٥٣٢) ، والنحل (٢٣) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٧/٥٧٤) ، و(٧٣) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ، جامع
=

فهذه الأمثلة وما في معناها تؤكد وتوضح منهج التفسير للآية بما ورد في السورة نفسها قبل غيرها من السور ، وإن كان غير باطل التفسير بغيره -كما في تنوّع تفسيرات الإمام للآيات - حسب التقسيم الوارد في هذا المبحث -والله أعلم -.

النوع الثاني : قد يورد ما في السورة ويضعف غيره :

كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٤٦] **قال -رحمه الله-**:"...اختلف في تأويل الرجوع الذي في قوله : ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ : فقال...[بعضهم كأبي العالية [1]] : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة . وقال آخرون: معنى ذلك أنهم إليه يرجعون بموتهم .

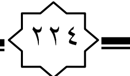
وأولى التأويلين بالآية القول الذي قاله أبو العالية ؛ لأن الله – تعالى ذِكْرُه- ، قال في الآية التي قبلها : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨] فأخبر – جلّ ثناؤه – أنَّ مرجعهم إليه بعد نشرهم وإحيائهم من مماتهم ، وذلك لا شك يوم القيامة ، فكذلك تأويل قوله : ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ " . [2]

=

البيان (٦٢٠/٧) ، ومريم (٥٨) ﴿ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٥٣/٨) ، وطه (٩٩) ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤٥٥/٨) ، والنمل (٥٩) ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ الآية ، جامع البيان (٤/١٠) ، والذاريات (٥٠) ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ، جامع البيان (٤٧٣/١١) ، والنجم (٢٣) ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾ الآية جامع البيان (٥٢٣/١١) ، والإنسان (٢٩) ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ ، جامع البيان (٣٧٥/١٢) .

(١) هو رفيع بن مهران البصري ، مقرئ مفسر ، من كبار التابعين ، أدرك زمن النبي -ﷺ- وهو شاب ، وأسلم في خلافة الصديق ، قرأ على أبي بن كعب وغيره ، توفي سنة ثلاث وتسعين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٢٠٧/٤) ، وغاية النهاية (٢٨٤/١) .

(٢) جامع البيان (٣٠٢/١) ، وتحقيق شاكر (٢٢/٢) .



وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات: ١٥٨]

قال –رحمه الله– :"...وقوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معناه : ولقد علمت الجنة إنهم لَمُشهدون الحساب...وقال آخرون : معناه : إنّ قائلي هذا القول سيُحضرون العذاب في النار...

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب : قول من قال : إنّهم لمحضَرُون العذاب ؛ لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة ، إنّما عُنِيَ به الإحضار في العذاب [(١)]، فكذلك في هذا الموضع ." [(٢)]

وفي هذين المثالين تضعيف التفسير الذي لم يرد في السورة ؛ لأنه يتغير المعنى معه أو يبعد ، وهناك فرق بين أمثلة هذا القسم وبقية الأقسام التي لا يضعّف فيها الوارد في غير السورة ، أما التفسير بالتمثيل على شيءٍ وَرَد ذِكْره في الآية فإنه كثيرٌ في القرآن ، وكتاب الله –عزّ وجلّ– يفسّر بعضه بعضاً .

---

(١) في قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾ [الصافات: ٥٧] وقوله :﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾[الصافات: ١٢٧] ، وهذه الآية مثلهما .

(٢) جامع البيان (١٠/٥٣٥-٥٣٦) . ومثلهما في البقرة (١٢٤) ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[البقرة: ١٢٤] الآية ، جامع البيان (١/٥٧٧) .

المطلب الثالث : تفسيره الآية بما ورد في السورة وغيرها من القرآن :

فقد حكى ابن جرير –رحمه الله – الإجماع من أهل التأويل على تفسير آية بما ورد في السورة ، مع الجزم بدخول غيرها من السور في معناها : فعند قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود: ١٢٠] **قال أبو جعفر** : " يقول – تعالى ذِكْرُه– : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يا **محمد** ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ ﴾ الذين كانوا قبلك ، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ فلا تجزع من تكذيب من كذّبك من قومك ، وردّ عليك ما جئتهم به ، ولا يضق صدرك فتترك بعض ما أنزلت إليك، من أجل أن قالوا : ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[هود: ١٢] ، إذا علمت ما لقي من قبلك من رسلي من أممها...وأما قوله : ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله : فقال بعضهم: معناه : وجاءك في هذه السورة الحقّ...وقال آخرون : معنى ذلك: وجاءك في هذه الدنيا الحقّ...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في تأويل ذلك : قول من قال : وجاءك في هذه السورة الحقّ ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله ، فإن قال قائل : أو لم يجيء النبي –ﷺ– الحقّ من سور القرآن إلا في هذه السورة ؛ فيقال : وجاءك في هذه السورة الحقّ ؟ قيل له : بلى قد جاءه فيها كلها ، فإن قال : فما وجه خصوصه إذاً في هذه السورة بقوله : ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾ ؟ قيل : إن معنى الكلام : وجاءك في هذه السورة الحقّ مع ما جاءك في سائر سور القرآن ، أو إلى ما جاءك من الحقّ في سائر سور القرآن ، لا أن معناه : وجاءك في هذه السورة الحقّ دون سائر سور القرآن ." (١)

وفي هذا الموضع حكى الإجماع **ابن جرير –رحمه الله–** على أن اسم الإشارة راجع إلى السورة ذاتها دون غيرها ، وأن هذا التثبيت لـئلا يزيغ بما قالوا سابقاً :﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ

---

(١) جامع البيان (١٤٢/٧–١٤٤) ، وتحقيق شاكر (٥٣٩/١٥) .

جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[هود: ١٢] ، ولا يعني ذلك خروج غيرها من السور عن الحق -حاشا وكلا- وإنما المراد جاءك في هذه السورة مع غيرها ، فهو حق مضاف إلى حق .

وفي قوله تعالى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾ [الصافات: ١٨١] **قال -رحمه الله-** : " يقول : وأمَنَة من الله للمرسلين الذين أرسلهم إلى أممهم الذين ذَكَرهم في هذه السورة وغيرهم ، من فزع يوم العذاب الأكبر ، وغير ذلك من مكروه أن ينالهم من قِبل الله -تبارك وتعالى- . " (١)

وهذه الأمثلة توضح أنه ينبغي ذكر ما ورد في سياق السورة مما يتصل بالمعنى ، ولا يمتنع دخول غيره إن كان المعنى متماثلاً .

---

(١) جامع البيان (٥٤٣/١٠) . وانظر بقية الأمثلة في : الأنعام (١٢٦) ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ ، جامع البيان (٣٤١/٥) ، والأعراف (١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الآية ، جامع البيان (١٢٨/٦) ، والرعد(٣٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد: ٣٨] الآية جامع البيان (٣٩٨/٧) ، والنحل (٤٩) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ ، جامع البيان (٥٩٤/٧) ، و(١٢٥) ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية ، جامع البيان (٦٦٣/٧) ، والأنبياء (٣٧) ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ ، جامع البيان (٢٨/٩) .

المطلب الرابع : تفسيره الآية بما ورد في القرآن كله :

ففي قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٩] **قال أبو جعفر** :"... يعني بقوله – عزّ ذِكْره – : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ هكذا يبيّن ، أي : كما بينت لكم أعلامي وحججي ، وهي آياته في هذه السورة ، وعرفتكم فيها ما فيه خلاصكم من عقابي ، وبينت لكم حدودي وفرائضي ، ونبهتكم فيها على الأدلة على وحدانيتي ، ثم على حجج رسولي إليكم ، فأرشدتكم إلى ظهور الهدى ، فكذلك أبين لكم في سائر كتابي الذي أنزلته على نبيي محمد -ﷺ- آياتي وحججي ، وأوضحها لكم لتتفكروا في وعدي ووعيدي وثوابي وعقابي ، فتختاروا طاعتي التي تنالون بها ثوابي في الدار الآخرة ، والفوز بنعيم الأبد على القليل من اللذات ، واليسير من الشهوات ، بركوب معصيتي في الدنيا الفانية، التي من ركبها كان معاده إليّ ، ومصيره إلى ما لا قِبَل له به من عقابي وعذابي ." (١)

وهذا النوع تدل عليه الكلمة : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ فهي تشبيه ما ورد في السورة بما جاء في القرآن كله .

وفي ختام المبحث : تبين أنّ منهج ابن جرير –رحمه الله– مراعاة اتصال السياق في السورة ، وأن كل سورة لها استقلالها في المعنى والتركيب اللغوي ، وأن الأولى تفسير الآية بما ورد في سياق السورة مما يتصل بمعناها ، وقد يضعف ما لم يرد في السورة وقد لا يضعفه، وقد يفسِّر الآية بما ورد في القرآن كله ، والسبب في مثل هذا التنوع –والله أعلم– وضوح المعنى في الآيات عند التفسير بما ورد في السورة وغيرها ، وأن التفسير قد يحتمل العموم وقد لا يحتمله .

---

(١) جامع البيان (٢/٣٨١) ، وتحقيق شاكر (٤/٣٤٧) . وانظر أمثلة أخرى في : الأنعام (٥٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ جامع البيان (٥/٢٠٧) ، والأعراف (١٧٤) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ جامع البيان (٦/١١٨) ، والروم (٢٩) ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/١٨٢).

المبحث الرابع : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها :

إن النظر إلى ابتداء الكلام الفصيح البليغ -وأولى ذلك كلام الله -مُعِيْنٌ على معرفة مناسبة ختامه ، ففواصل القرآن حين يُتَأَمَّل في مناسبة ختامها لابتدائها يخرج من هذا بفوائد كبيرة ، و لم تكن المناسبة هي آخر الفوائد بل يتلوها فوائد أعظم ، وأهمها معرفة المعنى .

هذا وإن النظر إلى أول الكلام وآخره هو تطبيق لمسألة السياق .

وسأسوق أمثلة هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول :ابتداء الآية معين على معرفة مناسبة ختامها : وهو قسمان :

١- ختام الآيات بالأسماء الحسنى .

٢- ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنى .

المطلب الثاني : ابتداء الآيات معين على معرفة معنى ما بعدها .

المطلب الثالث : ختام الآية يعين على معرفة معنى أولها .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير -رحمه الله- قاعدة النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها .

المطلب الأول:ابتداء الآية معين على معرفة مناسبة ختامها :وهو قسمان :

١- ختام الآيات بالأسماء الحسنى .

٢- ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنى .

١- ختام الآيات بالأسماء الحسنى :

سيأتي في الأمثلة توضيح لمنهج ابن جرير –رحمه الله- في تفسير الأسماء الحسنى ، بما يناسب ورودها في ختام الآية ، بعد سياق جمل متعددة في موضوع معين ، فهي تعتبر من قواعده في التفسير بالسياق ؛ مما يعطي الاهتمام بالسياق ووجوب مراعاته .

ففي قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢] **قال –رحمه الله-** في ختام الآية : " ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يقول : ذو علم بمصالح خلقه ومضارّهم ، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسبائه من ميراثه ، ومن يحرم ذلك منهم ، ومبلغ ما يستحقّ به كلّ من استحقّ منهم قسماً ، وغير ذلك من أمور عباده ومصالحهم . ﴿حَلِيمٌ﴾ يقول : ذو حلم على خلقه وذو أناة في تركه معاجلتهم بالعقوبة ، على ظلم بعضهم بعضاً في إعطائهم الميراث لأهل الجلد والقوّة من ولد الميت وأهل الغناء والبأس منهم ، دون أهل الضعف والعجز من صغار ولده وإناثهم ." (١)

فمع عموم علم الله –عز وجل – وحلمه على جميع الخلق ، إلا أن ورود الاسمين الجليلين في ختام آية المواريث يجعل تعيين العلم المقصود أولاً : العلم بحال الورثة ، ومن

---

(١) جامع البيان (٦٣١/٣) ، وتحقيق شاكر (٦٨/٨) .

أنفعهم للمورِّث ، ويجعل تعيين الحلم المقصود أولاً : الحلم في تـرك معاجلة المخالف في توزيع الإرث على خلاف ما شرعه الله تعالى ؛ لدلالة السياق .

وهكذا دواليك في الأمثلة التالية : في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] **قال -رحمه الله- :** " وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه- : إن الله كان ذا لطف بكنّ ، إذ جعلكنّ في البيوت التي تُتلى فيها آياته والحكمة ، خبيراً بكُنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً ." [١]

وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد: ٩] **قال -رحمه الله- :** " وقوله : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه- : وإن الله بإنزاله على عبده ما أنزل عليه من الآيات البيّنات – لهدايتكم وتبصيركم الرشاد- لذو رأفة بكم ورحمة ، فمن رأفته ورحمته بكم فَعَلَ ذلك ." [٢]

ففي الأمثلة الماضية ونحوها تلحظ أن أسماء الله –عزّ وجلّ- لها دلالاتها ومعانيها مطلقاً ، ومن السبل المهمة للوصول إلى معانيها الظاهرة الحاضرة في الآية : النظر إلى أول الآية ، إذ أن أول الآية أو ما يسبق من الكلام ، يعين على معرفة مناسبة الختام ، الجالب حتماً لمعرفة المعنى بدقة وصفاء وجلاء .

٢–ختام الآيات في قصة معينة بغير الأسماء الحسنى : سبق الحديث عن الختام بالأسماء الحسنى، وهنا عن ختم الآية بغير الأسماء الحسنى ، وتحت هذا النوع أمثلة كثيرة منها:

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ

---

(١) جامع البيان (١٠/٢٩٩) .

(٢) جامع البيان (١١/٦٧٣) . وانظر أمثلة أخرى في البقرة (٢٥٦) ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣/٢٣) ، والأنفال (٦١) ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ الآية ، جامع البيان (٦/٢٧٩) ، والحج (٧٤) ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ جامع البيان (٩/١٩٠) ، والشعراء (٢٢٠) ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ جامع البيان (٩/٤٨٧) ، وغيرها كثير .

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣] **قال -رحمه الله-** : في قوله -عزّ وجلّ- : ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فروي عن ابن عباس في ذلك...: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ يقول : أعلم السرّ كما أعلم العلانية ، يعني : ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار...وقال الحسن :...إن الله لما خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجيباً ، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء ، فأقبل بعضهم إلى بعض ، وأسرّوا ذلك بينهم ، فقالوا : وما يهمّكم من هذا المخلوق ، إن الله لم يخلق خلقاً إلا كنّا أكرم عليه منه...وعن قتادة [نحو قول الحسن] .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أن معنى قوله : ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرون بألسنتكم، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ وما كنتم تخفونه في أنفسكم ، فلا يخفى عليّ شيء ، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم ، والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبر الله - جلّ ثناؤه- عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم : ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠] والذي كانوا يكتمونه : ما كان منطوياً عليه إبليس ، من الخلاف على الله في أمره ، والتكبر عن طاعته ؛ لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت ...فإذْ كان لا قول في تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت ، ثم كان أحدهما غير موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذي يجب التسليم له ، صحّ الوجه الآخر...فالذي حكي عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك ، غير موجودة الدلالة على صحته من الكتاب ولا من خبر يجب به حجة ، والذي قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبر الله — جلّ ثناؤه- عن إبليس وعصيانه إياه إذ دعاه إلى السجود لآدم ، فأبى واستكبر ، وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره ، ما كان له كاتماً قبل ذلك..."(١)

---

(١) جامع البيان (١/٢٥٩-٢٦١) ، وتحقيق شاكر (١/٤٩٨) .

فمع أن علم الله -عز وجل- عام لكل ما يظهر ويسرّ من الخلق ، إلا أن السياق يجعل ذكر المناسب للسياق -بالنص عليه - له داع في التفسير ، وما لم يدل عليه دليل فيطّرح القول به .

وفي قوله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قال أبو جعفر : "وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ يقول : والله يعلم ما تصنعون أيها الناس في صلاتكم ، من إقامة حدودها وترك ذلك ، وغيره من أموركم ، وهو مجازيكم على ذلك ، يقول : فاتقوا أن تضيعوا شيئاً من حدودها . -والله أعلم- ." (١)

فجعل المتحدَّث فيه ، وهو الصلاة والأمر بإقامتها هو الذي يعلمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ، وأدخل غيرها من أمور العباد أيضاً .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قال -رحمه الله- : " يقول - تعالى ذِكْرُه- : وإن تعدّوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها ، والقيام بشكرها إلاّ بعون الله لكم عليها . ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ يقول : إن الإنسان الذي بدّل نعمة الله كفراً ﴿ لَظَلُومٌ ﴾ : يقول : لَشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه ، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم واستحقّ عليه إخلاص العبادة له ، فعبد غيره ، وجعل له أنداداً ليضلّ عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وقوله : ﴿ كَفَّارٌ ﴾ يقول : هو جحود نعمة الله التي أنعم بها عليه ؛ لصرفه العبادة إلى غير من أنعم عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه ." (٢)

فقول الإمام : إنّه الإنسان الذي بدل نعمة الله كفراً ، رجوع إلى الآيات السابقات ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]

---

(١) جامع البيان (١٠/١٤٨) .

(٢) جامع البيان (٧/٤٥٩) .

الآيات [1].

---

(١) إبراهيم (٢٨-٣٠) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٤٨) ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، جامع البيان (٣٠٦/١) ، والأعراف (٢٠٥) ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ جامع البيان (١٦٦/٦) ، والتوبة (٤٧) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٥/٦) ، و(٤٩) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٨٧/٦) ، و(١١٢) ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ جامع البيان (٤٨٧/٦) ، ويونس (٣٦) ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٦١/٦)، و(٣٩) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ الآية، جامع البيان (٥٦٢/٦) ، و(٩٠) ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ جامع البيان (٦٠٤/٦) ، و(١٠٠) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية ، جامع البيان (٦١٦/٦) ، وهود (٥٠) ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ جامع البيان (٥٧/٧) ، ويوسف (٨)﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾جامع البيان (١٥٢/٧) ، و(١٤) ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ جامع البيان (١٥٧/٧) ، و(١٨) ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴾ جامع البيان (١٦٢/٧) ، و(٢١) ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ الآية ، جامع البيان (١٧٤/٧) ، و(٤٤) ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ جامع البيان (٢٢٤/٧) ، والنحل (٣٥) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾، جامع البيان (٥٨٢/٧) ، و(٤٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، جامع البيان (٥٨٧/٧) ، ومريم (٣٧) ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ جامع البيان (٣٤٣/٨) ، والحج (٥٤) ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾جامع البيان (١٧٩/٩) ، والمؤمنون (١٧) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ جامع البيان (٢٠٦/٩) ، والشعراء (٢٠٩) ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ جامع البيان (٤٨٠/٩) ، والقصص (٤) ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ جامع البيان (٢٧/١٠) ، و(٩) ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ الآية ، جامع البيان (٣٣/١٠) ، و(٥٧) ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ جامع البيان (٩٠/١٠) ،
=

المطلب الثاني : ابتداء الآيات معين على معرفة معنى ما بعدها :

١- وقد يكون ذلك بعد طول فصل : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩] **قال -رحمه الله-** : " يقول : فقرأ هذا القرآن على كفار قومك يا محمد ، الذين حتّمتُ عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : لم يكونوا ليؤمنوا به ؛ لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء ، وهذا تسلية من الله نبيه محمّداً - ﷺ - عن قومه ؛ لئلا يشتدّ وجده بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن ؛ لأنه كان - ﷺ - شديداً حرصه على قبولهم منه ، والدخول فيما دعاهم إليه ، حتى عاتبه ربه على شدّة حرصه على ذلك منهم ، فقال له: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣] ، ثم قال مؤْيِسَه من إيمانهم وأنهم هالكون ببعض مثلاته ، كما هلك بعض الأمم الذين قصّ عليهم قصصهم في هذه السورة: ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا محمد لا عليك ، فإنك رجل منهم ، ويقولون لك : ما

=

والعنكبوت (١٣) ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾الآية ، جامع البيان (١٠/١٢٦) ، و(٣٤) ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾جامع البيان (١٠/١٣٩) ، و(٤٢) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، جامع البيان (١٠/١٤٣) ، و(٦٣) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾جامع البيان (١٠/١٥٩) ، و(٦٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾الآية ، جامع البيان (١٠/١٦٠) ، ولقمان (٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الآية ، جامع البيان (١٠/٢٢٠) ، والزمر (٢٦) ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾الآية جامع البيان (١٠/٦٣٠) و(٦٣) ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/٢٢) ، والدخان (٢٠-٢١) ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ جامع البيان (١١/٢٣٣) ، والجاثية (١٩) ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/٢٥٩) ، والملك (٢٨) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/١٧٤) ، والمرسلات (١٥) ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

أنت إلا بشر مثلنا ، وهلا نـزل به مَلَك ، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن ، و لم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حقّ ، وأنه تنـزيل من عندي ، ما كانوا به مصدّقين ، فخفِّضْ من حرصك على إيمانهم به ." (١)

فاتضح المراد من قوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ بما افتتحت به السورة ، من تسلية النبي -ﷺ -؛ لعدم إيمانهم بقوله تعالى له : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ، مما أكد أن المعنى أن هدايتهم التوفيقية ليست بيد النبي ﷺ بل هي بيد الله -عز وجل - ، وهذا الفاصل بين الآيتين بعيد محله ، لكنه فاصل بقصص كلها لتأكيد لهذا المعنى ، فليس بعيداً على الحقيقة ، خاصة إذا استحضر المتأمل : أن فواتح السور وخواتمها تخدم مقاطعها ، وتتحد بهذا محاور السورة ومواضيعها .-والله أعلم -.

٢- وقد يكون المعِيْن على معرفة المعنى قريباً في الآية نفسها وهو الأكثر :

كما في قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] **قال -رحمه الله -** : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم...وما كان الله ليطلع محمداً على الغيب ، ولكن الله اجتباه فجعله رسولاً ، وقال آخرون :...أي : فيما يريد أن يبتليكم به ؛ لتحذروا ما يدخل عليكم فيه ، : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ يعلمه .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بتأويله : وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده ، فتعرفوا المؤمنين منهم ، من المنافق والكافر ، ولكنه يميزُ بينهم بالمحن والابتلاء -كما ميز بينهم بالبأساء يوم أُحد - وجهاد عدوّه ، وما أشبه ذلك من صنوف المحن ، حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، غير أنه - تعالى ذِكْرُه- يجتبي من رسله من يشاء ،

---

(١) جامع البيان (٤٧٨/٩) .

فيصطفيه ، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم بوحيه ذلك إليه ورسالته...وإنما قلنا هذا التأويل أولى بتأويل الآية ؛ لأن ابتداءَها خبر من الله – تعالى ذِكْرُه- أنه غير تارك عباده – يعني : بغير مِحَن –حتى يفرّق بالابتلاء بين مؤمنهم وكافرهم وأهل نفاقهم ، ثم عقّب ذلك بقوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ، فكان فيما افتتح به من صفة إظهار الله نفاق المنافق وكفر الكافر ، دلالة واضحة على أن الذي ولي ذلك هو الخبر عن أنه لم يكن ليطلعهم على ما يخفي عنهم من باطن سرائرهم ، إلا بالذي ذكر أنه مميِّز به نعتَهم ، إلا من استثناه من رسله الذي خصه بعلمه ." (١)

فلما نظر الإمام الطبري –رحمه الله- إلى ما سبقها من الجمل ، تبين له أن المراد بالغيب : ظهور كفر الكافر ونفاق المنافق ، إذاً الافتتاح بأي خبر الأولى في معنى ما وليه أن يكون متعلقاً به ، فيحمل معنى قوله : ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على معرفة ضمائر قلوب العباد ، وتمييز المؤمن من الكافر والمنافق ، وهذا النظر الدقيق إذا اتّبع فهو المعين على المعنى الصحيح السليم – إن شاء الله –.

وفي قوله تعالى : ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧] **قال –رحمه الله- :** " وقوله : ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه-: وادع يا محمد منازعيك من المشركين بالله في نسكك وذبحك إلى اتباع أمر ربك في ذلك ، بأن لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك ، وبعد التصديق بما جئتهم به من عند الله ، وتجنبوا الذبح للآلهة والأوثان وتبرّءوا منها ، إنّكَ لَعَلَىَ طريقٍ مسْتَقِيمٍ ، غير زائل عن محجة الحقّ والصواب في نسكك الذي جعله لك ولأمتك ربك ، وهم الضلاّل على قصد السبيل ؛ لمخالفتهم أمر الله في ذبائحهم ، ومطاعمهم ، وعبادهم الآلهة ." (٢)

وهنا جعل الإمام الطبري –رحمه الله- المقصود بالدعوة في قوله تعالى : ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) جامع البيان (٣/٥٢٩-٥٣٠) ، وتحقيق شاكر (٧/٤٢٦) .

(٢) جامع البيان (٩/١٨٦) .

رَبِّكَ ﴾ الدعوة إلى المنسك وهو الذبح ؛ لأن الجملة الماضية مخبرة عن أن الأمم كلها لها منسك، فالذي يؤمر به الرسول - ﷺ - هنا هو الدعوة إلى توحيد الله في المنسك ، وعدم الاكتراث لشبه المشركين فيه قبل أن يكون المعنى الدعوة المطلقة .

وفي آيتين متشابهتين وهما قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٥] .

قال-رحمه الله- في الآية الأولى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ " يقول - تعالى ذِكْرُه- للمؤمنين : واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خوّلكموها الله ، وأولادكم التي وهبها الله لكم ، اختبار وبلاء ، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم ؛ لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حقّ الله عليكم فيها ، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول : واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم ، في أموالكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا ، وأطيعوا الله فيما لكم فيها ، تنالوا به الجزيل من ثوابه في معادكم . " (١)

وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ **قال-رحمه الله-** : "يقول - تعالى ذِكْرُه- : ما أموالكم أيها الناس وأولادكم إلا فتنة ، يعني : بلاء عليكم في الدنيا ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول : والله عنده ثوابٌ لكم عظيم ، إذا أنتم خالفتم أولادكم وأزواجكم في طاعة الله ربكم ، وأطعتم الله -عزّ وجلّ- وأدّيتم حقّ الله في أموالكم ، والأجر العظيم الذي عند الله الجنة ." (٢)

(١) جامع البيان (٦/٢٢٢) .

(٢) جامع البيان (١٢/١١٨-١١٩) ، وتحقيق شاكر (١٣/٤٨٦) . وانظر مواضع أخرى في النساء (١١٩-١٢٠) ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (٤/٢٨٥) ، والزمر (٣-٤) ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ الآيتين ، جامع البيان (١٠/٦١٢) .

فخصّ المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ بما كان السياق فيه ، وهو الحديث عن الموفق والمستقيم عند حصول الفتنة في الأموال والأولاد .

المطلب الثالث:ختام الآية يعين على معرفة معنى أولها :

الكلام المتتابع يجب أن يكون مرتبطاً بعضه ببعض ، وقد سبق أن أول الكلام يعين على الوصول إلى المعنى ، فكذلك آخر الكلام يعين على الوصول إلى معنى أوله ، وإليك بعض الأمثلة :

ففي قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧٠** ﴾ [المائدة: ٧٠] **قال أبو جعفر** : "يقول – تعالى ذِكْرُه– : أقسم لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على الإخلاص وتوحيدنا ، والعمل بما أمرناهم به ، والانتهاء عما نهيناهم عنه ، وأرسلنا إليهم بذلك رُسُلاً ، ووعدناهم على ألسنِ رسلِنا إليهم على العمل بطاعتنا الجزيلَ من الثّواب ، وأوعدناهم على العمل بمعصيتنا الشديد من العقاب ، كلّما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ، ولا يوافق محبّتهم ، كذّبوا منهم فريقاً ، ويقتلون منهم فريقاً ، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجرأةً علينا ، وعلى خلاف أمرنا ." (١)

فالميثاق المذكور في أول الآية في قوله : ﴿ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾ يُفهَم معناه بالشيء المنصوص عليه الذي هم نقضوه ، من فعل القتل والتكذيب في قوله : ﴿ **كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ** ﴾ فعكس نقض العهد والميثاق بالتكذيب والتقتيل للأنبياء ، إمضاؤه بالتصديق والنصر والتأييد .

ومن طريقة الإمام –رحمه الله– في مواضع : أن يشير في أول الآية إلى ما سيرد في آخرها ، حرصاً على التوضيح ، والفهم الكامل للآية :

كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧** ﴾ [فصلت: ٣٧] **قال –رحمه الله–:**

---

(١) جامع البيان (٤/٦٥٠) ، وتحقيق شاكر (١٠/٤٧٧) .

" يقول – تعالى ذِكْرُه– : ومن حجج الله تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه ، اختلاف الليل والنهار ، ومعاقبة كلّ واحد منهما صاحبه ، والشمس والقمر ، لا الشمس تدرك القمر ، وَلا اللّيْلُ سابِقُ النّهارِ ، وكُلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر ، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان بها لكم بإجراء الله إياهما لكم ، طائعين له في جريهما ومسيرهما ، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما ، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضرّاً ، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم ، فله فاسجدوا ، وإياه فاعبدوا دونهما..." [(١)]

فقوله في أول تفسير الآية : ومن حجج الله تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته، وعظيم سلطانه ، اختلاف الليل والنهار...: هو المنصوص عليه في ختام الآية : ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فكان ذكر الآيات من خلق الله ؛ ليستدل بها على تفرد الله وحده ، واستحقاقه للعبادة بدليل ختم الآية بالنهي عن السجود لهذه المخلوقات ، فعظمتها ليست دليلاً على أنها آلهة، بل دليل على استحقاق خالقها للعبادة .

---

(١) جامع البيان (١١/١١٢) . وانظر موضعاً آخر في فصلت (٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ الآية ، جامع البيان (١١/١١٣) .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير –رحمه الله– قاعدة : النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها:

لقد ظهرت طريقة الإمام ابن جرير –رحمه الله – في الاستعانة بجميع الألفاظ وكيفية ترتيبها على توضيح معاني كتاب الله– عزّ وجل – ، وكان هذا الأعمّ الأغلب ، ولكن هناك بعض المواضع التي ظهر أنها خرجت عن هذا التعامل الذي قرّره –رحمه الله– ، والأولى السير بها على الطريقة الماضية ، ومن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١ ﴾ [الإسراء: ٢١] **قال –رحمه الله–** : " يقول – تعالى ذِكْرُه– لنبيّه محمد –ﷺ – : انظر يا محمد بعين قلبك إلى هذين الفريقين اللذين همّ أحدهما الدار العاجلة ، وإياها يطلب ، ولها يعمل ، والآخر الذي يريد الدار الآخرة ، ولها يسعى ، موقناً بثواب الله على سعيه ، كيف فضّلنا أحد الفريقين على الآخر ، بأن بصرّنا هذا رشده ، وهديناه للسبيل التي هي أقوم ، ويسرناه للذي هو أهدى وأرشد ، وخذلنا هذا الآخر ، فأضللناه عن طريق الحقّ ، وأغشينا بصره عن سبيل الرشد ، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ يقول : وفريق مريد الآخرة أكبر في الدار الآخرة درجات ، بعضهم على بعض ؛ لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة ، وأكبر تفضيلاً بتفضيل الله بعضهم على بعض ، من هؤلاء الفريق الآخرين في الدنيا ، فيما بسطنا لهم فيها ." (١)

وهذا التفضيل في هذه الآية واقع في الدنيا بين المؤمنين والكافرين ، فما الذي يمنع من أن يكون التفاضل في الآخرة بينهم أيضاً – أعني : الكفار والمؤمنين – المؤمنون يتفاضلون في الدرجات ، والكفار يتفاضلون في الدركات ، فيتفاوت كل فريق في مرتبته ودرجته ، ويتفاوت الفريقان المؤمنون مع الكافرين من باب الأولى .(٢)

---

(١) جامع البيان (٥٧/٨) .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٣٣/٣-٣٤) .

وإن كان ثَمَّ سبب لتخصيص المؤمنين عند ابن جرير –رحمه الله– ، فقد يكون تسمية المتفاضَل عليه بالدرجة على أنها مراتب الجنان ، وأما في النار فتسمّى دركات –نعوذ بالله من النار ونسأل الله الجنة والله أعلم – .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] **قال –رحمه الله– :** " ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقول : فعلنا ذلك بهم ، بتكذيبهم بحججنا وأعلامنا [(١)] التي أريناهموها ، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ يقول : وكانوا عن النقمة التي أحللناها بهم غافلين قبل حلولها بهم ، أنها بهم حالّة ، والهاء والألف في قوله : ﴿عَنْهَا﴾ كناية من ذكر النقمة ، فلو قال قائل : هي كناية من ذكر الآيات ، ووجه تأويل الكلام إلى : وكانوا عنها معرضين ، فجعل إعراضهم عنها غفولاً منهم إذ لم يقبلوها ، كان مذهباً..." [(٢)]

ثم قال في آية بعدها شبيهة بها : وهي قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] " ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه– : صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها، فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا ، عقوبة منا لهم على تكذيبهم بآياتنا ، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ يقول : وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه غافلين ، لا يتفكّرون فيها ، لاهين عنها ، لا يعتبرون بها ، فحقّ عليهم حينئذ قول ربنا ، فعطبوا ." [(٣)]

---

(١) هي الآيات والعلامات والمعجزات الدالة على صدق الرسل –عليهم الصلاة والسلام– .

(٢) جامع البيان (٦/٤٣) ، وتحقيق شاكر (١٣/٧٥) .

(٣) جامع البيان (٦/٦١–٦٢) وتحقيق شاكر (١٣/١١٥) .

والجملتان متماثلتان [(١)]، فالأولى أن يكون مرجع الهاء من : ﴿عَنْهَا﴾ في الآية الأولى إلى الآيات ، كما كان مرجعها في تفسيره للآية الثانية ؛ لأن الجملتين تعليل للإغراق [(٢)]، وقد ذكره ابن جرير –رحمه الله– لكن على وجه الاحتمال ، و لم يقدّمه .

والقول برجوع الهاء إلى الانتقام ، مروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما –، ويستدل له بكلمة : انتقمنا في قوله : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [(٣)].

ومثلهما تأويله قوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٤ – ٦٨] قال –رحمه الله–: " ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول : وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما آتاك الله من الحق المبين ." [(٤)]

ثم في قوله تعالى عن عاد : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٩] قال –رحمه الله– : " ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ يقول – تعالى ذِكْرُه– : إنّ في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها ، لعبرةً وموعظةً لقومك يا محمد ، المكذّبيك فيما أتيتهم به من عند ربك ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول : وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله" [(٥)].

والموضع الأول فيه خلاف بين المفسرين ، والمقصود : أن الأولى في المواطن المتشابهة أن يتشابه تفسيرها أيضاً ، إلا ما دلّ الدليل على افتراق فيفارَق بينها . [(٦)]

---

(١) في تفسير الجلالين قال عند تفسير الآية المتأخرة:"تقدم مثله"صفحة (١٥٥) ،والموضع الأول في صفحة (١٥٣).
(٢) فتح القدير (٢/٢٣٨) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (جزء ٧/٢٧٢) ، والموضع الثاني في (٧/٢٨٣) ، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ .
(٤) جامع البيان (٩/٤٥٠) .
(٥) جامع البيان (٩/٤٦٤) .
(٦) يراجع تفصيل الآلوسي –رحمه الله–عند الآية (٦٧) من الشعراء (١١/١٣٤–١٣٨) فقد ذكر رأي أبي السعود، أن المقصود بالأكثر قوم محمد –ﷺ– وأنه الذي تقتضيه جزالة النظم من مطلع السورة إلى آخرها ، وضعف قول من قال: الأكثر من =

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٠]

قال -رحمه الله- : " يقول - تعالى ذِكْرُه- : ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهوراً ؛ لنحيي به الميت من الأرض ، بين عبادي ليتذكروا نعمي عليهم ، ويشكروا أياديّ عندهم ، وإحساني إليهم ، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يقول : إلا جحوداً لنعمي عليهم، وأياديّ عليهم ." [(١)]

والمقصود أن الختام في الأولى : إن كان الحديث عن الماء أن يدخل أولاً ، وتذكر هذه النعمة ، ولا مانع من ذكر غيرها ؛ لعموم الختام في قوله : ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ، فيقال مثلاً في المعنى هنا : فأبى أكثر الناس إلا كفراً بنعمة الماء ، فنسبوا السقيا إلى الأنواء [(٢)] ، ثم يذكر العموم فيقال : وهذه فعلة الإنسان الكافر .

وفي ختام القاعدة : يتبين المنهج السديد في تفسير الآية بالنظر والتأمل في الجمل كلها ، سواء كان النظر إلى الجمل الأولى ، أو إلى الجمل الأخيرة ، وقد ذكرت أمثلة على القسمين ، وتفسير كل هذه الجمل يجب أن يكون بما يكون معه سياق الكلام على أحسن بيان ، وأجمل نظام ، فيظهر الالتئام والتماسك ، فيؤيد الكلام بعضه بعضاً .

=

القوم المتحدث عنهم ؛ لأن الحديث عن القوم المكذبين ، ووقوع العذاب عليهم ، فكيف يخبر أن أكثرهم لم يؤمنوا بعد الإخبار عن هلاكهم وإنجاء المؤمنين من العذاب ؟ واختار الآلوسي هذا مستدلاً بأن صدر السورة وآخرها تسلية وتثبيت للنبي -ﷺ- عن تكذيب قومه له وكفرهم بالكتاب الم ل عليه ، ونهيه أن يهلك نفسه إن لم يؤمنوا ، ثم قال : وكذا يقال في جميع ما يأتي . وانظر إرشاد العقل السليم (٢١٥/٤) .

(١) جامع البيان (٣٩٧/٩) .

(٢) جمع نوء ، وهو النجم إذا سقط في المغرب ، وطلع الذي بعده في المشرق ، وبين كل نجم والآخر ثلاثة عشر يوماً ، إلا نجمة الجبهة فتزيد يوماً . انظر مختار الصحاح مادة (ن و أ) .

المبحث الخامس : إذا لزِم من تفسير الآيات التّكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ يُنَزَّهُ القرآن عنه:

لقد فاق القرآن كل أنواع الكلام إعجازاً وبلاغةً ، ومن تمام الكلام وكماله أن لا يكون فيه تكرار بلا فائدة ، فإن لزم من التفسير التّكرار الذي لا فائدة منه فذلك مما ينزّه القرآن عنه ، مما يعني خطأ ذلك التفسير ووجوب إبداله بما يليق بكلام الله العزيز.

وسيكون الحديث في هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : الأمثلة على القاعدة .

المطلب الثالث : الجواب على ما تكرر في القرآن .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها ابن جرير -رحمه الله- قاعدة : إذا لزم من تفسير الآيات التّكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ ينزه القرآن عنه .

المطلب الأول : نص القاعدة :

أبدأ الدخول إلى نص القاعدة من خلال هذا المثال الذي يعتبـــر تطبيقاً لها :

ففي قوله –تعالى– : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] **قـــال أبـــو جعفـــر –رحمـــه الله–** : "... و لم نحتج إلى الإبانة عن وجه تكريـــر الله ذلك في هـــذا الموضـــع ، إذ كنـــا لا نـــرى أن : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] من فاتحة الكتاب آية ، فيكون علينا لســائلٍ مســألة بــأن يقــول : مــا وجه تكريـــر ذلك في هذا الموضع ، وقد مضى وصف الله – عزّ وجــلّ – بــه نفســه في قولــه : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، مع قرب مكان إحدى الآيتين من الأخـــرى، ومجاورتهــا لصــاحبتها ؟ بــل ذلك لنا حجة على خطأ دعوى من ادعى أن : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مـــن فاتحـــة الكتـــاب آيـــة ، إذ لو كان ذلك كذلك لكان ذلك إعادة آية بمعنى واحد ، ولفـــظ واحـــد مـــرتين ، مـــن غيـــــر فصل يفصل بينهما ، وغيـــر موجود في شيء مـــن كتـــاب الله آيتـــان متجاورتـــان مكرّرتـــان ، بلفظ واحد ، ومعنى واحد ، لا فصل بينهما من كـــلام يخـــالف معنـــاه معناهمـــا ، وإنمـــا يـــؤتى بتكريـــر آية بكمالها في السورة الواحدة، مع فصول تفصل بـــين ذلـــك ، وكـــلام يُعتـــرض بـــه بغيـــر معنى الآيات المكرّرات ، أو غيـــر ألفاظها ، ولا فاصـــل بـــين قـــول الله –تبـــارك وتعـــالى اسمـــــه –: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مـــــن: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، وقـــول الله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، مـــن : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ." [١]

فهنا قد استدلّ الإمام الطبـــري –رحمه الله – بالسياق علـــى أن البســـملة ليســـت مـــن الفاتحة ؛ لما يلزم مـــن تكـــرار في تفسيـــــر : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البســـملة ، وفي وســـط ســـورة الفاتحة،بلا فائدة محصلة من ذلك، مما ينـــزه عنه الكلام البليغ ، فضلاً عن المعجز.[٢]

---

(١) جامع البيان (١/٩٣-٩٤) ، وتحقيق شاكر (١/١٤٦) .

(٢) مسألة هل البسملة من الفاتحة ؟ محل خلاف بين العلماء : فقد عدّها الشافعي وابن المبارك آية من الفاتحة ؛ واســـتدلوا بـــأن الصحابة أثبتوها في المصاحف ، و لم يعدّها أبو حنيفة ومالك والأوزاعي آية ، واختلفت الرواية عن أحمد ، والمنصور عنـــد =

وقد اعتبر الإمامُ ابن جرير –رحمه الله– هذا التكرار دليلاً على أن البسملةَ ليست مِنَ الفاتحةِ ؛ لعدم الفاصلِ بينها وقوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، ولعدم وجود معنى جديد في هذا التّكرار .

=

أصحابه عدم عدّها آية ؛ لحديث : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" رواه مسلم وغيره، فلو كانت آية لعدّها وبدأ بها ، ولا يتحقق التنصيف بعدّها كما في الحديث ؛ ولأن مواضع الآي تثبت بالتواتر ولم ينقل التواتر فيها. انظر المغني لابن قدامة (٤٨٠/١-٤٨٢) بتصرف .

وقيل : لا يصح الاستدلال بعدّها آية في المصحف ؛ لأن المصاحف العثمانية قد وضعت على هذين القولين : فعدّت البسملة آية: في المصحف المكي والكوفي. ولم يعد ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] آية ، ولم تعد البسملة آية : في المصحف المدني والبصري والشامي، وقد عدّها آية من القراء : ابن كثير وعاصم والكسائي . انظر إتحاف فضلاء البشر (٣٥٧/١) .

وهناك قول آخر : بأن عدّ الآيات لم يكن في المصاحف العثمانية ، وإنما هذا مأخوذ عن أهل العد في الأمصار ، وهو مأخوذ عن الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا أقرب والله أعلم ، وقد أشرت لنحو هذا في كتاب سورة الصلاة ترتج بها المساجد والمصليات ولكن في الطبعة الأخيرة صفحة (٢٠) .

المطلب الثاني : الأمثلة على القاعدة :

لقد تعدّدت الأمثلة على هذه القاعدة ، وتبيّن أن التّكرار فيها ، يكونُ مَرجِعه إلى شيئين : إمّا الكلمات ، وإمّا الحروف ، وسيكون التمثيل عليهما :

– ١ – الأمثلة على القاعدة من الكلمات :

في قوله -تعالى- : ﴿**إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠**﴾ [التوبة: ٦٠]

قال أبو جعفر : " يقول -تعالى ذِكْرُه- : ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سمّاهم الله -جلّ ثناؤه- ، ثم اختلف أهل التأويل في صفة الفقير والمسكين ، فقال بعضهم : الفقير: المحتاج المتعفف عن المسألة ، والمسكين : المحتاج السائل...وقال آخرون : الفقير : هو ذو الزمانة من أهل الحاجة ، والمسكين : هو الصحيح الجسم منهم...وقال آخرون : الفقراء: فقراء المهاجرين ، والمساكين : من لم يهاجر من المسلمين وهو محتاج...وقال آخرون : المسكين : الضعيف الكَسْب...وقال بعضهم : الفقير من المسلمين ، والمسكين من أهل الكتاب...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب : قول من قال : الفقير : هو ذو الفقر والحاجة ، ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم في هذا الموضع ، والمسكين : هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم ؛ وإنما قلنا إن ذلك كذلك وإن كان الفريقان لم يعطيا إلا بالفقر والحاجة دون الذلة والمسألة ، لإجماع الجميع من أهل العلم أن المسكين إنما يعطى من الصدقة المفروضة بالفقر ، وأن معنى المسكنة عند العرب : الذّلة ، كما قال الله -جلّ ثناؤه- : ﴿**وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ**﴾ [البقرة: ٦١] يعني بذلك الهون ، والذّلة لا الفقر . فإذْ كان الله -جلّ ثناؤه- قد صنّف من قسم له من الصدقة المفروضة قسماً بالفقر ، فجعلهم صنفين ، كان معلوماً أن كل صنف منهم غير الآخر ، وإذْ كان ذلك كذلك كان لا شكّ أن المقسوم له باسم الفقير غير المقسوم له باسم الفقر والمسكنة ، والفقير

المعطى ذلك باسم الفقير المطلق هو الذي لا مسكنة فيه ، والمعطى باسم المسكنة والفقر هو الجامع إلى فقره المسكنة ، وهي الذلّ بالطلب والمسألة ، فتأويل الكلام إذ كان ذلك معناه : إنما الصدقات للفقراء المتعفّف منهم الذي لا يسأل ، والمتذلل منهم الذي يسأل..." [(١)]

والمقصد من المثال طريقة التعامل مع المعطوفات : ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ فهؤلاء غير أولئك ، وأما الفرق بينهما فهو محل خلاف بين العلماء ، وليس هذا محل تفصيله . -والله أعلم- .

وفي قوله -تعالى- : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٩٦] **قال أبو جعفر** : "يقول -تعالى ذِكْرُه- : أُحِلّ لَكُمْ : أيها المؤمنون ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ وهو ما صيد طريّا ، وعني بالبحر في هذا الموضع الأنهار كلها...**قال أبو جعفر** : فتأويل الكلام : أحلّ لكم أيها المؤمنون طريّ سمك الأنهار ، الذي صدتموه في حال حلكم وحرمكم ، وما لم تصيدوه من طعامه الذي قَتَله ثم رَمَى به إلى ساحله ، واختلف أهل التأويل في معنى قوله : ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ فقال بعضهم: عُني بذلك: ما قذف به إلى ساحله ميتاً... وقال آخرون : عني بقوله : ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ : المليح من السمك [أي : المَلَّح] ، فيكون تأويل الكلام على ذلك من تأويلهم: أحلّ لكم سمك البحر ومليحه في كلّ حال ، في حال إحلالكم وإحرامكم...وقال آخرون: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ : ما فيه...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا : قول من قال : طعامه : ما قذفه البحر ، أو حسر عنه فوجد ميتاً على ساحله ، وذلك أن الله -تعالى ذِكْرُه - ذَكَر قبله صيد الذي يصاد ، فقال : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ فالذي يجب أن يعطف عليه في المفهوم ما لم يصد منه ، فقال : أحلّ لكم ما صدتموه من البحر ، وما لم تصيدوه منه . وأما المليح ، فإنه ما كان منه ملّح بعد الاصطياد فقد دخل في جملة قوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ فلا وجه

(١) جامع البيان (٣٩٦/٦-٣٩٧) ، وتحقيق شاكر (٣٠٥/١٤) .

لتكريره ؛ إذ لا فائدة فيه ، وقد أعلم عباده – تعالى ذِكْرُه – إحلاله ما صيد من البحر بقوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ فلا فائدة أن يقال لهم بعد ذلك : ومليحه الذي صيد حلال لكم ؛ لأن ما صيد منه فقد بيّن تحليله طريّاً كان أو مليحاً ، بقوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ والله يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة..." (١)

---

(١) جامع البيان (٥/٦٩-٧٠) ، وتحقيق شاكر (١١/٥٧) . وانظر بقية المواضع في : البقرة (٤٨) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ جامع البيان (١/٣٠٨) ، و(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ الآية جامع البيان (١/٣٩٤-٣٩٥) ، و(٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾الآية جامع البيان (١/٤٤٩) ، و(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ الآية جامع البيان (٢/١٠٣) ، وآل عمران (٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾﴾ جامع البيان (٣/١٦٨) ، و(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جامع البيان (٣/٢٧٢-٢٧٣) ، والنساء (٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٨٩) ، والمائدة (٤) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾الآية جامع البيان (٤/٤٣٠) ، و(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾الآية جامع البيان (٤/٤٧٨) ، و(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية جامع البيان (٥/٣٧-٣٩) ، و(٩٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾الآية جامع البيان (٥/٥٦) ، و(١٠٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] الآية جامع البيان (٥/١٠٦-١٠٨) ، و(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ الآية جامع البيان (٥/١٢٨)، والأنعام (١٣) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ الآية جامع البيان (٥/١٥٩) ، و(٦٩) ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾الآية جامع البيان (٥/٢٨٠)، والأعراف (١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾الآية جامع البيان (٥/٤٤٠) ، وطه (١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ الآية جامع البيان (٨/٤٧٢) ، والأحقاف (١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾الآية جامع البيان (١١/٢٨٤-٢٨٥) ، والحشر (٧) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية جامع البيان (١٢/٣٧) ، والقيامة (١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ جامع البيان (١٢/٣٤٠-٣٤١) .

فضعّف قول من قال : معنى : الطّعام المُمَلَّح ؛ لأن الصيد قد يملّح فيدخل معناه في معنى الطعام المعطوف على الصيد ، فيلزم منه التّكرار بلا فائدة ، وكلام الله -عزّ وجلّ- ينزّه عن ذلك .

- ٢ - الأمثلة على ما يقرب من معنى القاعدة ، بذكر حروف قيل فيها : إنها زائدة لا معنى لها :

وإنما ذكرت هذه المسألة هنا ؛ لقربها وشبهها في الضعف من القول الذي يلزم منه تكرار بلا فائدة : ففي قوله -تعالى- : ﴿**أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠**﴾ [البقرة: ١٠٠] **قال أبو جعفر** : " اختلف أهل العربية في حكم «الواو» التي في قوله : ﴿**أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا**﴾ ، فقال بعض نحويي البصريين : هي واو تجعل مع حروف الاستفهام ، وهي مثل «الفاء» في قوله : ﴿**أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ**﴾ [البقرة: ٨٧] ، قال : وهما زائدتان في هذا الوجه ، وهي مثل «الفاء» التي في قوله : فالله لتصنعنّ كذا وكذا ، وكقولك للرجل : أفلا تقوم ، وإن شئت جعلت الفاء والواو هاهنا حرف عطف، وقال بعض نحويي الكوفيين : هي حرف عطف أدخل عليها حرف الاستفهام .

والصواب في ذلك عندي من القول : أنها واو عطف أدخلت عليها ألف الاستفهام ، كأنه قال -جلّ ثناؤه- : وَإِذْ أخَذْنَا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُورَ خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وكُلّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، ثم أدخل ألف الاستفهام على «وكلما» ، فقال : قالوا : سمعنا وعصينا أَوَكُلّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فريقٌ مِنْهُمْ ، وقد بيّنا فيما مضى أنه غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له ، فأغنى ذلك عن إعادة البيان على فساد قول من زعم أن الواو والفاء من قوله : ﴿**أَوَكُلَّمَا**﴾ و ﴿**أَفَكُلَّمَا**﴾ زائداتان لا معنى لهما ." [1]

---

(١) جامع البيان (٤٨٧/١) ، وتحقيق شاكر (٣٩٩/٢) .

ووجه الزيادة المنفيّة في هذا المثال : إذا قلنا : إن الــواو والفــاء مــن قولــه : ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ و﴿أَفَكُلَّمَا﴾ لا معنى لهما ، حيث بين الإمام الطبــــري –رحمــه الله- ، أنــه غيــــر جــائزٍ أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له ، والصواب أنهما حرفا عطف بعد همزة استفهام .[1]

(١) وانظر موضعين آخرين في : المائدة(٤) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية جامع البيان (٤/٤٣٩) ، والقلم (٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ جامع البيان (١٢/١٨١) .

المطلب الثالث:الجواب على ما تكرر لفظه في القرآن :

من خلال المواضع المتعلقة بقاعدة نفي التكرار بلا فائدة ، أجاب الإمام الطبري –رحمه الله– عن مواضع فيها تكرار ، وبين الفائدة منه ، فكان على هذا النحو :

–١– التكرار قد يكون مراعاة لتناسب ختام كل آية مع ما قبلها من الجمل :

كما في قوله –تعالى– : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾ [النساء: ١٣٢] **قال أبو جعفر** : " يعني بذلك –جلّ ثناؤه– : ولله ملك جميع ما حوته السموات والأرض ، وهو القيم بجميعه ، والحافظ لذلك كله ، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره...فإن قال قائل : وما وجه تكرار قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ في آيتين إحداهما في إثر الأخرى ؟ [1] قيل : كرّر ذلك ؛ لاختلاف معنى الخبرين عما في السموات والأرض في الآيتين ، وذلك أن الخبر عنه في إحدى الآيتين ذكر حاجته إلى بارئه، وغنى بارئه عنه ، وفي الأخرى حفظ بارئه إياه ، وعلمه به بتدبيره ، فإن قال : أفلا قيل : وكان الله غنيّاً حميداً ، وكفى بالله وكيلاً ؟ قيل: إن الذي في الآية التي قال فيها : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١] مما صلح أن يختم ما ختم به من وصف الله بالغني وأنه محمود، و لم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفه معه بالحفظ والتدبير ؛ فلذلك كرّر قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ . " [2]

ومن هنا يتبيّن أن التكرار الموجود في بعض المواضع لحِكَم ، منها : مراعاة تناسب ختام كل آية مع ما قبلها من الجمل ، فأسماء الله –عزّ وجلّ– في ختام الآيات لها معنى مناسب لما قبلها ، ولا تجمع الأسماء بغير مناسبة ؛ ولذلك تعاد الجملة مرة أخرى ، كما

---

(١) النساء (١٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ .

(٢) جامع البيان (٤/٣١٧–٣١٨) ، وتحقيق شاكر (٩/٢٩٧) .

في تكرار قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ لتختم بما يناسبها من الأسماء الحسنى .

– ٢ – جعل الآيات المكررة في سورتي الرحمن والمرسلات ترجع كل جملة مكرّرة منها إلى ما قبلها :

لقد كان ابن جرير –رحمه الله–يفسر ما تكرر في سورة الرحمن والمرسلات بجعل الآية المكررة من سورة الرحمن والمرسلات عائدة إلى ما قبلها .

فقوله : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمن : راجعة على كل نعمة سبقتها :

ففي قوله –تعالى– : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرحمن: ١٧ – ٢١].

قال –رحمه الله– في الآية الأولى : " وقوله : ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٨] يقول : فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس من هذه النعم التي أنعم بها عليكم – من تسخيره الشمس لكم في هذين المشرقين والمغربين ، تجري لكما دائبة بمرافقكما ، ومصالح دنياكما ومعايشكما – تكذبان ."

وقال في الثانية:"وقوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٢١]يقول –تعالى ذِكْرُه –: فبأيّ نعم الله ربكما معشر الجنّ والإنس تكذّبان من هذه النعم التي أنعم عليكم ، من مَرْجه البحرين ، حتى جعل لكم بذلك حلية تلبسونها كذلك ." [(١)] وهكذا بقيّة المواضع .

وفي قوله –تعالى– : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ من سورة المرسلات ، راجعة إلى ما ذكر قبلها من الأخبار :

كما في قوله –تعالى– : ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المرسلات:١١ – ١٥] **قال –رحمه الله–** : " وقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يقول –تعالى ذِكْرُه –: الوادي الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها للمكذبين

---

(١) جامع البيان (١١/٥٨٥و٥٨٨) .

بيوم الفصل ." [١]

وفي قوله -تعالى- : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩] **قال -رحمه الله-** : " ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأخبار الله التي ذكرناها في هذه الآية ، الجاحدين قُدرته على ما يشاء ." [٢]وهكذا بقية المواضع .

وأستطرد فأسوق مثالا آخر من كتب المتشابه : قال الكرماني في حكمة تكرار قوله -تعالى- : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٧-٤٨ ، ١٢٢-١٢٣] : " لأنّ كلّ واحدة صادفت معصية تقتضي تنبيهاً ووعظاً ، وكل واحدةٍ وقعت في غير وقت الأخرى، فالمعصية الأولى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] والثانية : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[البقرة: ١٢٠] " [٣].

– ٤ – وقد تذكر كلمة مشابهة للأولى في المعنى –وليس في اللفظ كما سبق– فيفسر الثانية بالأولى :

فمن ذلك قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] **قال أبو جعفر** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -لنبيّه محمّدٍ - ﷺ - : قل يا محمد لسائليك عن الساعة أيّان مرساها : ﴿ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ يقول : لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي ، ولا دفع ضرّ يحلّ بها عنها ، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن أملكه من ذلك بأن يقوّيني عليه ويعينني...وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ يقول : وما مسني الضرّ..." [٤]

---

(١) جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

(٢) جامع البيان (١٢/٣٨٤) .

(٣) انظر البرهان في متشابه القرآن للكرماني صفحة (٤٢) .

(٤) جامع البيان (٦/١٤١) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٠١) . ومثله في الحجر (٦٣-٦٤) ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ الآيتين جامع البيان (٧/٥٢٤) .

ففسّر الضرّ الأول ، والسّوء التالي : بالضر ، وهما متقاربان ، فالضرّ سوء الحال ، وهو مقابل النفع ، والسّوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ، ومن الأحوال النفسية ، والبدنية ، والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميمٍ (١) ، وكلّ سوءٍ فهو ضررٌ ، وفيه نقصُ نفعٍ .

– ٥ – وقد يفسر كلمتين متتاليتين بأنهما من باب إضافة الشيء إلى نفسه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق: ١٥ – ١٦] **قال –رحمه الله–**:"وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه -: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدّث به نفسه ، فلا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يقول : ونحن أقرب للإنسان من حبل العاتق ، والوريد : عرق بين الحلقوم والعلباوين ، والحبل : هو الوريد ، فأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه . " (٢)

هذه بعض الأسباب التي ذكرها الطبري -رحمه الله- **وقد ذكر الكرماني –رحمه الله–** أسباباً غيرها ، منها : قطع الاشتراك : كقوله -تعالى- : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] (٣).

وكذلك المطابقة : كقوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١] خص السمع بالذكر ؛ لما في الآية من قوله : ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾ [البقرة: ١٨١] ؛ ليكون مطابقاً (٤).

وقد يكون التّكرار لاختلاف الأقوال : كقوله -تعالى- : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن ، مادة ضرَّ ، صفحة (٥٠٣-٥٠٤) ، ومادة سوأ صفحة (٤٤١) .

(٢) جامع البيان (٤١٥/١١) . ومثله أيضا آية (١٩) ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ جامع البيان (٤١٨/١١) .

(٣) البرهان في متشابه القرآن صفحة (٢٠) .

(٤) المرجع السابق صفحة (٣٦) .

[المائدة: ٧٢، ٧٣] قالوا : إن كل قول لفرقة من فرق النصارى .[١]ا.هـ .

وقد يكون الفرق بين بعض المفردات غير واضح فيظهره ويبرزه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣ - ١٤] **قال -رحمه الله-** :

" يقول -تعالى ذِكْرُه -: إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنا اللّهُ الــذي لا إلــه غيـــره ، ثُـمّ اسْتَقامُوا على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك ، و لم يخالفوا الله في أمره ونهيه ..." [٢]

فقول : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ وعطف الاستقامة عليه ، دال على فرق ، ففعل الإيمان لا يلزم منه المداومة ، فأكدها بالاستقامة ، وهي أمر زائد على إعلان الإيمان .

---

(١) المرجع السابق صفحة (٥٥-٥٦) .

(٢) جامع البيان (٢٨٣/١١) . وانظر مواضع أخرى في هود (٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ جامع البيان (٦١/٧) ، والحج (٥٥) ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ جامع البيان (١٨١/٩) .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري –رحمه الله– قاعدة إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ ينزه القرآن عنه :

لقد برزت طريقة ابن جرير –رحمه الله–وفكرته ، ولكن هناك مواضع قد تكون بخلاف القاعدة ، ومنها :

في قوله –تعالى– : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت: ٦ – ٧]... قال –رحمه الله– : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ " اختلف أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم : معناه : الذي لا يعطون الله الطاعة التي تطهرهم ، وتزَكّي أبدانهم ، ولا يوحّدونه...وقال آخرون : بل معنى ذلك : الذين لا يقرّون بزكاة أموالهم التي فرضها الله فيها ، ولا يعطونها أهلها...

والصواب من القول في ذلك : ما قاله الذين قالوا : معناه : لا يؤدّون زكاة أموالهم، وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وأنّ قوله في : ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ دليلاً على أن ذلك كذلك ؛ لأنّ الكفار الذين عُنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، فلو كان قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ مراداً به الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، لم يكن لقوله : ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ معنى ؛ لأنه معلوم أن من لا يشهد أن لا إله إلا الله لا يؤمن بالآخرة ، وفي إتباع الله قوله : ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ما ينبئ عن أن الزكاة في هذا الموضع معنيّ بها زكاة الأموال..."[(١)].

وموضع الضّعف في هذا التفسير ليس عدم تطبيق القاعدة ، بل إن تطبيقها هنا واضح ؛ ولكن تعارضها مع وقت النزول هو القادح ، وذلك أنّ زكاة المال : إنّما فرضت

---

(١) جامع البيان (٨٦/١١) .

بالمدينة ، والآية من أول المكي [١]، وأكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم ، على أنّ الزّكاة هنا : هي التّوحيد...وهو أصل كلّ زكاة ونماء [٢] ، وهذا الوجه أوفق لتأليف النظم.[٣] فلا يلزم من الشهادة بالتوحيد إثبات اليوم الآخر .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ [البروج: ٤] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ يقول : لعن أصحاب الأخدود ، وكان بعضهم يقول : معنى قوله : ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ خبر من الله عن النار أنها قتلتهم . وقد اختلف أهل العلم في أصحاب الأخدود من هم ؟ . فقال بعضهم : قوم كانوا أهل كتاب من بقايا المجوس...وقال آخرون: بل الذين أحرقتهم النار هم الكفار الذين فَتَنوا المؤمنين...عن الرّبيع بن أنس قال : كان أصحاب الأخدود قوماً مؤمنين ، اعتزلوا الناس في الفتر ، وإنّ جباراً من عبدة الأوثان أرسل إليهم ، فعرض عليهم الدخول في دينه ، فأبوا ، فخدّ أخدوداً [٤]، وأوقد فيه ناراً ، ثم خيّرهم بين الدّخول في دينه ، وبين إلقائهم في النار ، فاختاروا إلقاءهم في النار ، على الرجوع عن دينهم ، فألقوا في النار ، فنجّى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار من الحريق ، بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ، فذلك قول الله : ﴿ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ [البروج: ١٠] في الآخرة ، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] في الدنيا...

وأولى التأويلين بقوله : ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ : لُعِن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود ، وإنما قلت : ذلك أولى التأويلين بالصواب ؛ للذي ذكرنا عن الربيع من العلة ، وهو أن الله أخبر أن لهم عذاب الحريق مع عذاب جهنم ، ولو لم

---

(١) انظر المحرر الوجيز (١٤/١٦٤) .

(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم (٤/٩٥) ، وعزاه لإغاثة اللهفان صفحة (٤٩) .

(٣) روح المعاني للآلوسي (٢٣/١٥١) .

(٤) الأخدود : الشقّ في الأرض ، والحفرة المستطيلة فيها . انظر مقاييس اللغة (٢/١٤٩) مادة خدّ ، وترتيب القاموس (٢/٢٠) مادة خدد .

يكونوا أحرقوا في الدنيا لم يكن لقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ معنى مفهوم ، مع إخباره أن لهم عذاب جهنم ؛ لأن عذابَ جهنم هو عذاب الحريق مع سائر أنواع عذابها في الآخرة..." [1]

ولكن ختام السورة يدل على أن الله لم يوقع على أصحاب الأخدود الكفرة العقاب الدنيوي ؛ ولذلك نبّه الله -عزّ وجلّ- على كمال قدرته بإيقاع العذاب في الدنيا بما فعل بالجنود ، فرعون وثمود ، ولو شاء لفعل بأصحاب الأخدود مثل ذلك ، ولكنه -تعالى- لم يشأ ذلك .[2]

وهكذا يتّضح للقارئ قاعدة : إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له فذلك خُلفٌ ينزّه القرآن عنه ، فقد اتضح نص القاعدة ، وأتبع بأمثلة على نوعيه : الكلمات الني قيل فيها : إن فيها تكرار ، والأحرف التي قيل فيها : إنها زائدة ، ثم ذكرت إجابة الإمام الطبري على ما تكرّر في القرآن بأجوبة سديدة ، ثم جاءت الإشارة إلى بعض ما خرج عن القاعدة والأَولى خلافه . -والله أعلم -.

---

(١) جامع البيان (٥٢٣/١٢-٥٢٦) .

(٢) انظر في ظلال القرآن لسيد قطب (جزء٣٠/١١٣و١١٦) طبعة الحلبي الأولى .

المبحث السادس : يختار من المعاني ما اتّسَق وانتظم معه الكلام :

تتنوع معاني الجمل على اختلاف مساقات الكلام ؛ ولذلك يجب على المفسِّر اختيار الأنسب للمقام ، والمتفق مع حال الكلام .

وسيكون عرض الأمثلة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : يختار من المعاني ما يناسب سياق الكلام .

المطلب الثالث : المعنى المضاد والمقابل للجمل والكلمات .

المطلب الرابع : ذكر معنى ما سيجيء في مستقبل الجمل والآيات المتأخرة أوّلَ ورود مقطعها.

المطلب الخامس : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري –رحمه الله– قاعدة : اختيار المعاني التي يتّسق وينتظم معها الكلام .

المطلب الأول : نص القاعدة :

على المفسِّر لكلام الله -عزّ وجلّ- أن يبذل جهده في حمل معاني الآيات على المعاني التي ينتظم معها الكلام ، ويكون على مساقٍ واحدٍ لا يتنافى ولا يتنافر .

يوضِّح هذا تفسيره لقوله -تعالى- : ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾[البقرة: ٢٨٢] **قال أبو جعفر** : " يعني بقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ فإن كان المدين الذي عليه المال ﴿ سَفِيهًا ﴾ : يعني جاهلاً بالصواب في الذي عليه أن يملّه على الكاتب...وقال آخرون : بل السّفيه في هذا الموضع الذي عناه الله : الطفل الصغير...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالآية : تأويل من قال : السفيه في هذا الموضع : الجاهل بالإملاء ، وموضع صواب ذلك من خطئه ؛ لما قد بيّنّا قبل من أن معنى السفه في كلام العرب : الجهل ، وقد يدخل في قوله : ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ كلّ جاهل بصواب ما يملّ من خطئه ، من صغير وكبير ، وذكر وأنثى ، غير أن الذي هو أولى بظاهر الآية أن يكون مراداً بها كل جاهل -بموضع خطأ ما يمل وصوابه -من بالغي الرجال الذين لا يولّى عليهم والنساء ؛ لأنه جل ذكره ابتدأ الآية بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[البقرة: ٢٨٢] والصبيّ ومن يولّى عليه لا يجوز مداينته ، وأن الله - عزّ وجلّ - قد استثنى من الذين أمرهم بإملال كتاب الدين مع السفيه : الضعيف ، ومن لا يستطيع إملاله ، ففي فصله -جل ثناؤه - الضعيف من السفيه ، ومن لا يستطيع إملاء الكتاب ، في الصفة التي وصف بها كل واحد منهم ، ما أنبأ عن أن كل واحد من الأصناف الثلاثة الذين ميّز بين صفاتهم ، غير الصنفين الآخرين ، وإذا كان ذلك كذلك، كان معلوماً أن الموصوف بالسفه منهم دون الضعف هو ذو القوّة على الإملال ، غير أنه وضع عنه فرض الإملال بجهله بموضع صواب ذلك من خطئه ، وأن الموصوف بالضعف منهم هو العاجز عن إملاله وإن كان شديداً رشيداً ، إما لعيّ لسانه أو خرس به ، وأن الموصوف بأنه

لا يستطيع أن يمل : هو الممنوع من إملاله ، إما بالحبس الذي لا يقدر معه على حضور الكاتب الذي يكتب الكتاب فيمل عليه ، وإما لغيبته عن موضع الإملال فهو غير قادر من أجل غيبته عن إملال الكتاب ، فوضع الله –عزّ وجلّ– عنهم فرض إملال ذلك ؛ للعلل التي وصفنا إذا كانت بهم ، وعذرهم بترك الإملال من أجلها ، وأمر عند سقوط فرض ذلك عليهم وليَّ الحقّ بإملاله ، فقال : ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني : وليّ الحقّ ، ولا وجه لقول من زعم أن السفيه في هذا الموضع هو الصغير ، وأن الضعيف هو الكبير الأحمق ؛ لأن ذلك إن كان كما قال يوجب أن يكون قوله : ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ هو العاجز من الرجال – العقلاء الجائزي الأمر في أموالهم وأنفسهم – عن الإملال ، إما لعلة بلسانه من خرس أو غيره من العلل ، وإما لغيبته عن موضع الكتاب ، وإذا كان ذلك كذلك معناه ، لبطل معنى قوله : ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ ؛ لأن العاقل الرّشيد لا يولّى عليه في ماله ، وإن كان أخرسَ أو غائباً ، ولا يجوز حكم أحدٍ في ماله إلا بأمره ، وفي صحة معنى ذلك ما يقضي على فساد قول من زعم أن السّفيه في هذا الموضع: هو الطفل الصغير ، أو الكبير الأحمق..." (1)

فنفى تفسير السفيه : بالصغير ، والضعيف : بالكبير الأحمق ؛ لأنه يوجب تفسير : قوله ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بالعاجز من الرجال ؛ والرشيد لا يولى عليه في ماله ، ولو كان أخرس أو غائباً ؛ لأن بعد هذه الجملة : ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ ففسد بذلك تفسير الذي لا يستطيع أن يمل بالعاجز من الرجال جائزي التصرف ؛ لتناقضه مع الحكم بإملال وليه ، فهذا لا يكون إلا بإذن الولي صاحب المال العاقل و لم يذكر ذلك في الآية ، بالإضافة إلى أن الصّغار لم يدخلوا في الآية ابتداء ؛ لأن الخطاب في ابتدائها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والصبيّ ومن يولّى عليه لا يجوز مداينته .

(1) جامع البيان (٣/١٢١-١٢٢) ، وتحقيق شاكر (٦/٥٧) .

المطلب الثاني: يُختار من المعاني ما يُناسب سياق الكلام :

لقد كان الإمام الطبري –رحمه الله يختار المعاني المناسبة ، ويقتنصها بدقة من خلال سياقات الآيات ، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله –تعالى– : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢] ... " ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ **قال أبو جعفر** : إن قال لنا قائل : أَوَ إلى بني آدم الموت والحياة فيُنهى أحدهم أن يموت إلا على حالة دون حالة ؟ قيل له: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت ، وإنما معنى : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : فلا تفارقوا هذا الدين وهو الإسلام أيام حياتكم ، وذلك أن أحدا لا يدري متى تأتيه منيته ؛ فلذلك قال لهم : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ؛ لأنكم لا تدرون متى تأتيكم مناياكم من ليل أو نهار ، فلا تفارقوا الإسلام فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم ، فتموتوا وربكم ساخط عليكم ، فتهلكوا ." [(١)]

فاختار المعنى المناسب للمخاطب ، الذي لا يستطيع تقديم الموت ، ولا ردّه عن نفسه ، فبيّن أن المراد هو مداومة الاستقامة حتى إذا جاء الموت كان على أحسنِ حال منها، وليس مدافعة الموت الذي ليس له به قدرة .

وفي قوله –تعالى– : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] قال أبو جعفر : " يعني –تعالى ذِكْرُه –[بقوله] : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أيام بدر وأُحد ، ويعني بقوله : ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ نجعلها دولاً بين الناس مصرَّفة ، ويعني بالناس : المسلمين والمشركين ، وذلك أن الله – عزّ وجلّ – أدال المسلمين من المشركين ببدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا سبعين ، وأدال المشركين من المسلمين بأُحد، فقتلوا منهم سبعين ، سوى

---

(١) جامع البيان (٦١٢/١) ، وتحقيق شاكر (٩٦/٣) .

من جرحوا منهم ، يقال منه : أدال الله فلاناً من فلان فهو يديله منه إدالةً ، إذا ظفِرَ به فانتصر منه ، مما كان نال منه المدَال منه..." (١)

ولما كانت السورة تتحدث عن وقائع غزوة أحد ، وتسلي المؤمنين ، وتوجّههم وتقوِّمهم ،دل على أن المراد ما وقع من انتصار في بدر ، وهزيمة في أحد.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] **قال أبو جعفر** : " يعني بذلك -تعالى ذِكْرُه -: فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم ، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم ، وعلى جهاد عدوّهم ، والاستعانة بالله في أمورهم ، واقتفائهم مناهج إمامهم ، على ما أبلوا في الله – ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : جزاءً في الدنيا ، وذلك النصر على عدوّهم وعدوّ الله ، والظفر والفتح عليهم ، والتمكين لهم في البلاد ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ يعني : وخير جزاء الآخرة ، على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك الجنة ونعيمها..." (٢)

فذكر –رحمه الله– أن الثواب الذي لهم في الدنيا في قوله : ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ هو النصر، وقد تقدم في الآية أنهم قاتلوا نصرة للدين ، بل وذكر الله قولهم فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٧] وأمّا : ثوابهم في الآخرة في قوله : ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ فقد طلبوا في دعائهم : مغفرة ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم –كما سبق– . (٣)

(١) جامع البيان (٣/٤٤٨-٤٤٩) ، وتحقيق شاكر (٧/٢٣٩) .

(٢) جامع البيان (٣/٤٦٦) ، وتحقيق شاكر (٧/٢٧٥) .

(٣) وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٩) ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ جامع البيان (١/١٥١) ، و(١٣) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾الآية جامع البيان (١/١٦١) ، والنساء (٢٨) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ جامع البيان (٤/٣٢) .

المطلب الثالث : المعنى المضادّ والمقابِل للجمل والكلمات :

لقد وصف الله -عزّ وجلّ- كتابه بأنه مثاني فقال : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر: ٢٣] **قال ابن كثير -رحمه الله-** عند تفسير هذه الآية : " **قال مجاهد** : يعني : القرآن كلّه متشابه مثاني ، **وقال قتادة** : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ، **وقال الضحاك** : ﴿مَّثَانِىَ ﴾ ترديد القول ؛ ليفهموا عن ربهم -تبارك وتعالى -، **وقال عكرمة والحسن** : ثنّى الله فيه القضاء ، زاد الحسن : تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها ، **وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم** : ﴿مَّثَانِىَ ﴾ مردّد ، ردّد موسى في القرآن ، وصالح ، وهود ، والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – في أمكنة كثيرة، **وقال سعيد بن جبير** : عن ابن عباس-رضي الله عنهما- : ﴿مَّثَانِىَ ﴾ قال : القرآن يشبه بعضه بعضاً ، ويردّ بعضه على بعض ، **وقال بعض العلماء** : **ويروى عن سفيان بن عيينة** [1] : معنى قوله -تعالى- : ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ أنّ سياقات القرآن تارة : تكون في معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارة : تكون بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثاني ، كقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار: ١٣ – ١٤] ، وكقوله – عزّ وجلّ- : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [المطففين: ٧] إلى أن قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المطففين: ١٨] ، ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص: ٤٩] إلى أن قال : ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص: ٥٥] ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثاني ، أي : في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً ، فهو المتشابه ، وليس هذا

---

(١) هو أبو محمد ، سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي المكي ، الحافظ ، مولى ، ولد سنة سبع ومائة ، محدّثٌ مفسر ، يدلّس عن الثقات ، عاش إحدى وتسعين سنة ، وتوفي سنة ثمان وتسعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٨) ، ووفيات الأعيان (٣٩١/٢) ، وشذرات الذهب (٣٥٤/١) .

من المتشابه المذكور في قولـــه -تعـــالى- : ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمـــران: ٧] ذاك معـــنى آخر ." (١)

ومن المثاني -كما سبق -: أن يذكر الشـــيء وضـــده ، كـــذكر المـــؤمنين ثم الكـــافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا مثانٍ .

ويشبه هذا إلى حدٍّ مـــا ، عطـــف بعـــض الجمـــل علـــى بعـــض في : جـــزاء المـــؤمنين والكافرين، وفي تنويع العقاب وتقابله مع الثواب .

والأمثلة على ذلك قد تكون كلماتٍ أو جملاً :

- ١ - الأمثلة عل المعنى المتقابل بين الكلمات :

في قولـــــــه -تعـــــــالى- : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٥] **قال أبو جعفر** : " يقـــول -تعـــالى ذِكْـــرُه -: ثم بدّلنا أهل القرية التي أخذنا أهلـــها بالبأســـاء والضـــرّاء ، مكـــان الســـيئة : وهـــي البأســـاء والضرّاء. وإنما جعل ذلك سيئة ؛ لأنه مما يسوء النـــاس ، ولا تســـوؤهم الحســـنة، وهـــي الرخـــاء والنعمة والسعة في المعيشة..." (٢)

فاستدلّ على أن الحسنة الرخاء وسعة المعيشة ؛ لأنها ضـــد مـــا أخـــذوا بـــه مـــن قبـــل ، أعني: البأساء والضراء .

وقـــال -تعـــالى- : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الجن: ١٣] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يقول-: قـــالوا : وأنّـــا لّمـــا سمعنا القرآن - الذي يهدي إلى الطريق المستقيم - آمنّا به ، يقول: وصـــدّقنا بـــه ، وأقررنـــا أنـــه حقٌ من عند الله ، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يقـــول : فمـــن يصـــدّق بربـــه : ﴿فَلَا

(١) تفسيـــر القرآن العظيم (٥٢/٤) .
(٢) جامع البيان (٨/٦) ، وتحقيق شاكر (٥٧٣/١٢) .

يَخَافُ بَخْسًا ﴾ يقول : لا يخاف أن ينقص من حسناته ، فلا يجازى عليها ، ﴿**وَلَا رَهَقًا**﴾ ولا إثماً يُحمل عليه من سيئات غيره ، أو سيئةً [لم] يعملها ." [1]

فالبخس : النّقص في الحسنات ، وضدّه الرّهق : وهو زيادة ؛ ولكن في السيئات .

وفي قوله –تعالى- : ﴿ **لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾** ﴾ [النبأ: ٢٤ – ٢٥]

قال –رحمه الله– : " وقوله : ﴿ **لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** ﴾ يقول : لا يَطْعَمون فيها برداً يُبَرّد حرّ السعير عنهم ، إلاّ الغسّاق ، ولا شراباً يرويهم من شدّة العطش الذي هم إلاّ الحميم...وقوله : ﴿ **إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا** ﴾ يقول –تعالى ذِكْرُه -: لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حميماً قد أغلي حتى انتهى حرّه ، فهو كالمُهْل يَشْوِي الوجوه ، ولا برداً إلاّ غَسّاقاً...فإن قال قائل : فإنك قد قلت : إن الغَسّاق : هو الزمهرير ، والزمهرير : هو غاية البرد ، فكيف يكون الزمهرير سائلاً ؟ . قيل : إن البرد الذي لا يُستطاع ولا يُطاق ، يكون في صفة السائل من أجساد القوم من القيح والصديد."[2]

فالغسّاق مقابل الحميم شديد الحرارة ؛ إذاً : هو باردٌ شديد البرودة ، وقد ورد في الحديث أن عذاب النار من الحرارة والبرودة ، فقال – ﷺ – : " اشتكت النار إلى ربّها ،

---

(١) جامع البيان (١٢/٢٦٧) .

(٢) جامع البيان (١٢/٤٠٥–٤٠٨) .وانظر بقية المواضع في : النور (٥٨) ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ** ﴾الآية جامع البيان (٩/٣٤٥) ، والشعراء (١٠٠–١٠١) ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾** ﴾ جامع البيان (٩/٤٥٦) ، وفاطر (٢١) ﴿ **وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾** ﴾ جامع البيان (١٠/٤٠٦) ، وغافر (٥٨) ﴿ **وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ** ﴾الآية جامع البيان (١١/٧٢) ، و(٧٨) ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾الآية جامع البيان (١١/٨٠) ، والرحمن (٦) ﴿ **وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾** ﴾ جامع البيان (١١/٥٧٥) ، والمجادلة (١٨) ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ** ﴾الآية جامع البيان (١٢/٢٤) ، والملك (٢٨) ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾** ﴾ جامع البيان (١٢/١٧٣) ، والنبأ (٤٠) ﴿ **إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ﴾ الآية جامع البيان (١٢/٤١٨) ، والتكوير (١٦) ﴿ **ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾** ﴾ جامع البيان (١٢/٤٦٩) .

فقالت : رب أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفسٌ في الشتاء ، ونفسٌ في الصّيف ، فهو أشدّ ما تجدون من الحرّ ، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير " [(١)] .

- ٢ - الأمثلة على المعنى المضاد والمقابل بين الجمل :

في قوله -تعالى- : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه -: فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات ، ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ وهم أتباعها الذين صدّقوها وآمنوا بها ، وقوله : ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه - : وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم ."[(٢)]

فالمسرفون هم المكذّبون بالرسل ، مقابلةً لهم بالذين أنجاهم الله ؛ لتصديقهم بالرسل .

وقد تكون المقابلة في جواب كلام :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٩ - ٥٠] **قال -رحمه الله-** : يقول-تعالى ذِكْرُه- لنبيّه محمّدٍ - ﷺ -: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علم، اتّباعاً منهم لكلّ شيطان مريد : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أنذركم عقاب الله أن ينزل بكم في الدنيا ، وعذابه في الآخرة أن تَصْلَوْه ، ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول : أبيّن لكم إنذاري ذلك وأُظهره ؛ لتنيبوا من شرككم وتحذروا ما أنذركم من ذلك ، لا أملك لكم غير ذلك ، فأما تعجيل العقاب وتأخيره -الذي تستعجلونني به -فإلى الله ، ليس ذلك إليّ ولا أقدر

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، صفحة (٦٦٦) ، حديث (٣٢٦٠) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر...،(٤٣١/١-٤٣٢) ، حديث (٦١٧) ، وهذا لفظ مسلم .

(٢) جامع البيان (٨/٩) .

عليه"[١].

فقوله : ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جواب لطلبهم العذاب المذكور في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] والجواب : مقابل السؤال ولا شكّ ؛ ولذلك صحّ قوله : فأمّا تعجيل العقاب وتأخيره –الذي تستعجلوني به – فإلى الله ، ليس ذلك إليّ ولا أقدر عليه .

(١) جامع البيان (٩/١٧٣) . وانظر مثله في النساء (١٦٢) ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾الآية جامع البيان (٤/٣٦٣) ، وانظر بقية مواضع هذا النوع عامة في : آل عمران (١٩٨) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾الآية جامع البيان (٣/٥٥٨) ، والمؤمنون (٢٩-٣٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الآيتين جامع البيان (٩/٢١١) ، والأحزاب (٢٣) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية جامع البيان (١٠/٢٨١) ، والزمر (٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الآية جامع البيان (١١/٤-٥) ، والنجم (٣٠) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾الآية جامع البيان (١١/٥٢٥) ، والممتحنة (٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾الآية جامع البيان (١٢/٦١) ، والجمعة (١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ الآية جامع البيان (١٢/٩٩) ، والأعلى (١٠-١١) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ جامع البيان (١٢/٥٤٦).

المطلب الرابع : يذكر معنى ما سيجيء في الجمل والآيـات المتـأخرة في أول ورود مقطعها :

وسبب ذلك النهج طلب توضيح المراد ، وهـذا الـوارد المتـأخر قـد يكـون في الآيـة الواحدة ، وقد يكون بعدها :

-١ - الأمثلة في الآية الواحدة على ذكر معنى الوارد المتأخر في أول تفسيـر الآية:

في قولـه -تعـالى- : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾**﴾ [محمد: ١٠] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْـرُه- : أفلـم يَسِـر هـؤلاء - المكذّبون محمّداً -ﷺ-، المنكرو ما أنـزلنا عليـه مـن الكتـاب - في الأرض سـفراً ، وإنّمـا هذا توبيخ من الله لهم ؛ لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشـام ، فيـرون نقمـة الله الـتي أحلّهـا بأهل حِجْرِ ثمود ، ويـرون في سفرهم إلى اليمن مـا أحـلّ الله بسَـبَأ ، فقـال لنبيـه - عليـه الصلاة والسلام - وللمؤمنين به : أفلم يسِر هؤلاء المشركون سـفراً في الـبلاد فينظـروا كيـف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم ، مـن الأمـم المكذّبـة رسـلها ، الـرّادّة نصـائحها ؟ . ألم نهلكها فندمّر عليها منازلها ونخرّبها ؟ . فيتعظوا بـذلك ، ويحـذروا أن يفعـل الله ذلـك بهـم في تكذيبهم إياه ، فينيبوا إلى طاعة الله في تصديقك ، ثم توعّـدهم -جـلّ ثنـاؤه- ، وأخبـرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله ، أنه مُحِلّ بهم من العذاب ما أحـلّ بالـذين كـانوا مـن قبلـهم من الأمم ، فقال : ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾ يقول : وللكافرين مـن قـريش المكـذبي رسـول الله -ﷺ- من العذاب العاجل ، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلـهم رسـلهم علـى تكذيبـهم رسوله محمّداً -ﷺ-. "(١)

فقول الإمام الطبـري -رحمه الله- : أنه تهديد للكفـار ووعـظ ، يـدل عليـه قولـه

---

(١) جامع البيان (٣١١/١١) .

-تعالى-: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ فاختار من المعاني والمقاصد ما ناسب السياق وانتظم معه الكلام.

وفي قوله -تعالى- : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد: ٢٠] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: ويقول الذين صدّقوا الله ورسوله :هلاّ نزلت سورةٌ من الله ، تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ يعني: أنّها محكمة بالبيان والفرائض...وقوله : ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ﴾ يقول : وذُكر فيها الأمر بقتال المشركين..." [1]

فالمقصود ليس طلب تنزيل سورة فقط أيّاً كانت ، وإنما المطلوب سورة معينة لها صفة أساسية ، وهي : أنها تأمر بالجهاد ؛ بدليل عتاب الله لهم على إعراضهم عما طلبوه من فرض الجهاد وتشريعه .

- ٢ - الأمثلة على ذكر المعنى الوارد المتأخر في آية مستقلة في أول تفسير للمقطع التي هي فيه ، وقد يكون ختام الآية بالأسماء الحسنى ، أو غيرها :

أ- فمثال تفسير ختام الآية بأسماء الله الحسنى بما يرد بعدها : قول الله -تعالى- : ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١٢] **قال-رحمه الله-**: "وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يقول -تعالى ذِكْرُه -: هذا الذي وصفتُ لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما ، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب على ما بيّنت ، تقدير العزيز في نقمته من أعدائه ، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم ، وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم ."[2]

ثم قال في قوله -تعالى- : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣] : "يقول -تعالى ذِكْرُه -: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن هذه الحجّة التي

(١) جامع البيان (٣١٨/١١) .

(٢) جامع البيان (٩٣/١١) .

بيّنتها لهم يا محمد ، ونبهتهم عليها ، فلم يؤمنوا بها ، و لم يقرّوا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره ، فقل لهم : أنذرتكم أيها الناس : صاعقة تهلككم ، مثل صاعقة عاد وثمود." (١)

ففسّر ختام الآية بالأسماء الحسنى في قوله -تعالى- : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بأنّ العزّة في انتقامه من الكفار ، وهذا التّفسير مناسب للتّعقيب بالآية التي بعدها في قوله -تعالى- : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

ب- ومثال تفسير ختم الآية بغير الأسماء الحسنى بما يدلّ عليه ما بعدها :

قوله -تعالى- : ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] قال -رحمه الله- : " يقول: وعاد عليهم ما استهزءوا به ، ونزل بهم ما سخروا به ، فاستعجلوا به من العذاب، وهذا وعيد من الله -جلّ ثناؤه- لقريش ، يقول لهم : فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله ما حلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة ." (٢)

ثم قال أول الآية التالية وهي قوله -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٧] : " يقول -تعالى ذِكْرُه- لكفار قريش محذّرهم بأسه وسطوته ، أن يحلّ بهم على كفرهم : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ﴾ أيها القوم من القُرَى ما حول قريتكم ، كحِجْرِ ثمود ، وأرض سدوم ، ومأرب ، ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمَثُلات ، وخرّبنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها ." (٣)

فالذي دلّ على المعنى التحذيري ما بعدها من ذكر أحوال المهلَكين قبل هذه الأمّة.

وفي قوله -تعالى- : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: إن هذا الذي خلقته وحيداً، فكّر فيما أنزل على

---

(١) جامع البيان (٩٣/١١) . ومثله في الحشر (١-٢) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾الآيتين جامع البيان (٢٧/١٢) .
(٢) جامع البيان (٢٩٥/١١) .
(٣) جامع البيان (٢٩٥/١١) .

عبده محمّدٍ -ﷺ-من القرآن ، وقدّر فيما يقول فيه..." [(١)]

فالتفكيـــر واقع من هذا الرجل -وهو الوليد بن المغيـــرة [(٢)]- في القـــرآن مـــاذا يقـــول فيه ؛ بدليل قوله – تعالى – بعدها حكايـــة عـــن الوليـــد : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ ؛ لأنه إنما قال هذا الكلام بعد تفكيـــره وتقديـــره، فـــالمفكَّر فيـــه هـــو المـــتكلم فيـــه قطعاً، وهو القرآن .

---

(١) جامع البيان (٣٠٨/١٢) . وانظر مواضع أخرى في : الفتح (١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾الآية جامع البيان (٣٣٨/١١) ، وسورة ق (٤١-٤٢) ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾الآيـــتين ، جـــامع البيـــان (٤٣٨/١١) ، والممتحنة (٤) ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾الآية جامع البيان (٥٩/١٢) ، والحاقة (٣٨-٤٠) ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾الآيات جامع البيان (٢٢٢/١٢) ، والإنسان (٢٣-٢٤) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٣٧٣/١٢) ، والمرسلات (٧-١٥) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾الآيات جامع البيان (٣٨٢/١٢) .

(٢) هو أبو عبد شمس ، المخزومي ، أحد رؤساء قريش ، ومن قضاة العرب ، وأول من خلع نعليه في الجاهلية لدخول الكعبـــة ، أدرك الإسلام شيخاً هرماً فعاداه ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ، وهو والد سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد . انظـــر المعارف صفحة (٥٥١) ، وجامع البيان (٣٠٩/١٢) ، وتفسيـــر القرآن العظيم (٤٤٣/٤) ، والأعلام (١٤٤/٩) .

المطلب الخامس : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري –رحمه الله – قاعدة : اختيار المعاني التي يتّسق وينتظم معها الكلام :

لقد حصل من عرض الأمثلة الماضية : أنّ الإمام الطبري –رحمه الله- يسير على قاعدة لها ميزها وفوائدها ، ويأتي تعليقه عليها واضحاً جليّاً ، وهذا في الأعم الأغلب ؛ ولكن هناك مواضع لم تكن على هذا النحو ، وهي قليلة منها :

في قوله –تعالى- : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٩] **قال –رحمه الله:**
"يقول –تعالى ذِكْرُه -: وفي أموال هؤلاء المحسنين الذين وصف صفتهم حقّ لسائلهم المحتاج إلى ما في أيديهم والمحروم ، وبنحو الذي قلنا في معنى السائل ، قال أهل التأويل ، وهم في معنى : المحروم مختلفون ، فمن قائل : هو المحارَف [1] الذي ليس له في الإسلام سهم...[أو] الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك...ومن قائلٍ : هو المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئاً...وقائلٍ : هو الذي لا سهم له في الغنيمة ...وقائلٍ : هو الذي لا ينمى له مال...وقائلٍ : هو الذي قد ذهب ثمره وزرعه...وكان الشعبيّ يقول في ذلك : أعياني أن أعرف ما المحروم .

والصواب من القول في ذلك عندي : أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره ، فصار ممن حرمه الله ذلك ، وقد يكون بسبب تعفّفه وتركه المسألة ، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة ؛ لغيبته عن الوقعة ، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعمّ ، كما قال –جلّ ثناؤه- : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [2] .

فهنا لم يقل بالتضادّ بين : السائل والمحروم –كما هي عادته في مواضع كثيرة غيرها- ، وكان الأولى : أن يُختار لمعنى المحروم ما يقابل السّائل ، فيقال : هو الذي لا

---

(١) المحارَف : هو المحدود المحروم ، الذي لا ينمى له مال ، وهو ضدّ المبارَك . انظر مختار الصحاح صفحة (١٠٥) .
(٢) جامع البيان (١١/٤٥٦-٤٥٩) .

يسأل وهو محتاج ، على أيِّ حال كان ، حتى ينتظم الكلام ويكون على معنى بيِّن مناسب.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم: ٤٨] **قال رحمه الله** - : " يقول -تعالى ذِكْرُه - : وأن ربّك ﴿ هُوَ أَغۡنَىٰ ﴾ : من أغنى من خلقه بالمال وأقناه ، فجعل له قُنية أصول أموال ، واختلف أهل التأويل في تأويله : فقال بعضهم بالذي قلنا في ذلك ...وقال آخرون : عُني بقوله : ﴿ أَغۡنَىٰ ﴾ : أخدم...وقال آخرون : بل عُني بذلك : أنه أغنى من المال ، وأقنى : رضي...وقال آخرون : بل عُني بذلك : أنه أغنى نفسه ، وأفقر خلقه إليه...وقال آخرون : بل عُني بذلك : أنه أغنى من شاء من خلقه ، وأفقر من شاء..."[(١)]

و لم يرجّح مقابلة الغنى مع الفقر ، وقد قال به جماعةٌ من المفسرين -كما أورد- وهي الأنسب والأوفق للكلام .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ ﴾ [العاديات: ٢] **قال -رحمه الله-**: " اختلف أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم : هي الخيل تُورِي النارَ بحوافرها...وقال آخرون : بل معنى ذلك : أنّ الخيل هِجْنَ الحرب بين أصحابهنّ ورُكْبانهنّ...وقال آخرون : بل عُني بذلك: الذين يُورون النار بعد انصرافهم من الحرب...وقال آخرون : بل معنى ذلك : مكر الرجال...وقال آخرون : هي الألسنة...وقال آخرون : هي الإبل حين تسير تَنْسِفَ بمناسمها الحصى[(٢)]...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله -تعالى ذِكْرُه -أقسم بالموريات التي توري النيران قدحاً ، فالخيل تُوري بحوافرها ، والناس يوروها بالزّند، واللسان مثلاً يوري بالمنطق ، والرجال يورون بالمكر مثلاً ، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها إذا التقت في الحرب ، و لم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعضٌ دون بعض ، فكلّ ما

(١) جامع البيان (١١/٥٣٥-٥٣٦) .

(٢) المنْسِم خفّ البعير . مختار الصحاح صفحة (٤٨٠) مادة (ن س م) .

أوْرت النارَ قدْحاً ، فداخلةٌ فيما أقسم به ؛ لعموم ذلك بالظاهر ." [١]

و لم يحمل ما أقسم الله به في سورة العاديات على محملٍ واحد ، مع عطف بعضها على بعض ، ولو قال : يدخل الخيل أولها في الوصف لكان أحسن .

هذه نقاط القاعدة السادسة ، عسى أن تكون واضحة فقد تبيّن فيها : نص القاعدة ، وطريقة البحث عن المقابل المضاد في الكلمات والجمل ، حيث إنه من طريقة القرآن ونهجه في عرض المثاني ، وكذا يحسن بالمفسر عرض ما سيرد متأخراً في تفسير أوّل الآية أو الآيات ؛ لأنه أوضح في بيان المراد ، ثم عرض لما خرج عن هذه القاعدة من التطبيق ، وأن الأولى اختيار ما يناسب المقام . -والحمد لله رب العالمين- .

(١) جامع البيان (١٢/٦٦٧-٦٦٩) . وانظر مثله في طه (٥٩-٦٠) ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ الآيتين جامع البيان (٨/٤٢٧) .

المبحث السابع : تعيين من نــزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يُشابههم :

يــربط الإمام الطبري –رحمه الله- كثيــراً الخطاب بمن نـــزلت فيــه الآيــات حســب سياقها ، وهنا يتضح أنه بهذا التعيين لا يقصد عــدم دخــول غيـــرهم في الخطــاب ، كــلا ؛ إذ القرآن نــزل لجميع الخلق ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التكوير: ٢٧].

وقبل الدخول للقاعدة أذكر نبذةً مختصرةً عن أصل هذا المبحــث ، وهــو قاعــدة أصــولية مختلف فيها : هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟.

وتتضح هذه القاعدة من خلال التمثيــل بآيــات اللعــان : وهــي قــول الله –تعــالى-: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النــور: ٦ - ٩] ، الآيــات الــتي نــــزلت في عــويمر العجلاني[1] أو هلال بن أمية[2] ، يرى الجمهور أن كلمة "الــذين" صــيغة مــن صــيغ العمــوم ، ولا حاجة إلى دليل آخر لإثبات العموم ، مــن قيــاس أو غيـــره ، بــل هــو ثابــت بعمــوم النص.[3] ، والقول الآخر : أن العبرة بخصوص السبب [4] ومعناه : أن لفظ الآيــة مقصــور علــى التي نــزلت فيه ، أما أشباهها فلا يعلم الحكم من نص الآية ، بل بــدليل آخــر هــو : القيــاس ، إذا استوفى شروطه ، أو بالحــديث النبــوي الــذي روي عنــه-ﷺ -:"حكمــي علــى الواحــد حكمي على الجماعة"[5].

---

(١) هو عويمر بن أبي أبيض بن العجلان ، وأبيض لقب لبعض آبائه . انظر الإصابة (٥/٤٥) .

(٢) هو هلال بن أمية بن عامر الأنصاري الواقفي ، شهد بدراً وما بعدها ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم . انظر الإصــابة (٦/٢٨٩) .

(٣) ويمثّلهم : الإمام أحمد والشافعي وأكثر المالكية والحنفية . انظر شرح الكوكب المنير (٣/١٧٧-١٧٨) .

(٤) ويمثله : الإمام مالك وأبو ثور والمزني والقفال والدقاق من الشافعية . انظر شرح الكوكب المنير (٣/١٧٨) .

(٥) هذا الحديث لا أصل له ، وفي معناه مما له أصل قوله ﷺ :" وما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمائة امــرأة "رواه الترمــذي =

فيلاحظ أنّ نهاية العمل مع النصّ عند الفريقين : هو القول بتعدي النص -الذي له سبب معيّن - مَنْ نزلت فيه إلى غيره ؛ ولكن : هل هذا التعدي بالنص نفسه ؟ أو بغيره ؟ هذا هو محل الخلاف(١).

ويشير شيخ الإسلام ابن تيميّة -رحمه الله- إلى نتيجة الخلاف فيقول : "والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب ، هل يختص بسببه أم لا ؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً ، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدحٍ أو ذمٍّ ، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته أيضاً " .(٢)

وسأعرض لأمثلة هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها .

المطلب الثاني : التعامل مع ما ورد فيه سبب نزول .

المطلب الثالث : التعامل مع ما ورد فيه لفظ عموم .

المطلب الرابع : موضع لم يستعمل فيه الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشابههم .

=

بنحوه في كتاب السير ، باب ما جاء في بيعة النساء (١٢٩/٤) ، (٤٣٦/١) حديث (١٥٩٧) ، وبين الدارقطني أن حديث الترمذي على شرط الشيخين ، وأحمد نحوه (٣٥٧/٦) حديث (٢٧٠٥١-٢٧٠٥٥) ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١١٧/٢) حديث (١٣٠٠) ، وانظر كشف الخفا للعجلوني بتصرف صفحة (٤٣٦) ، والمقاصد الحسنة صفحة (١٩٢-١٩٣) .

(١) انظر مناهل العرفان (١٢٥/١-١٢٦) دار إحياء الكتب العربية .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، (٣٣٨/١٣-٣٣٩) ، وانظر كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية صفحة (٣٣و٥٠) .

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها :

١- نص القاعدة : قد يحدِّد المفسِّر المخاطب بالآية بأنهم قوم معيَّنون ، ولكن لا يفهم من ذلك خروج غيرهم من الخطاب ، ولو كان ذلك لذهبت فوائد عظيمة من قصصٍ وأخبار كثيرة ، ساقها الله – عزّ وجلّ – في كتابه للعبرة ، والخطاب فيها لمعيَّنين :

ففي قوله –تعالى- : ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: ٢٧] **قال–رحمه الله–**: "...اختلف أهل المعرفة في معنى العهد الذي وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسوله –ﷺ– ، ونقضُهم ذلك تركهم العمل به . وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وإياهم عنى الله جل ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ [البقرة: ٦] وبقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ٨] ، فكلّ ما في هذه الآيات فعَذْلٌ لهم[١]، وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم ، قالوا : فعهد الله الذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة ، من العمل بما فيها ، واتباع محمد –ﷺ– إذا بعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك ، وكتمانهم علمَ ذلك النّاسَ، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننّه للناس ولا يكتمونه ، فأخبر الله –جلّ ثناؤه- : أنهم نبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، وقال بعضهم: إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيده : ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه : ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك :

(١) العذل : الملامة . وانظر معجم مقاييس اللغة (٢٥٨/٤) ، وترتيب القاموس المحيط (١٧٩/٣) .

تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق . وقال آخرون: العهد الذي ذكره الله جل ذكره ، هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم...

وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك : قول من قال : إن هذه الآيات نزلت في كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله -ﷺ- وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل ، ومن كان على شركه من أهل النفاق...وقد دللنا على أن قول الله -جلّ ثناؤه- : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيهم أنزلت ، وفي من كان على مثل الذي هم عليه من الشرك بالله ، غير أن هذه الآيات عندي وإن كانت فيهم نزلت، فإنه معنيّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال ، ومعنيّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصةً جميعُ المنافقين ، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيراً في كفرهم ، وذلك أن الله -جلّ ثناؤه- يعمّ أحياناً جميعهم بالصفة ؛ لتقديمه ذكر جميعهم في أول الآيات التي ذكرتْ قصصهم ، ويخصّ أحياناً بالصفة بعضهم لتفصيله في أول الآيات بين فريقيهم ، أعني : فريق المنافقين من عبدة الأوثان وأهل الشرك بالله ، وفريق كفار أحبار اليهود...وإنما قلت : إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عَنَى بها ؛ لأن الآيات من مبتدأ الآيات الخمس والستّ من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم ، وفي الآية التي بعد الخبر عن خلق آدم وبيانه في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] ، وخطابه إياهم - جلّ ذِكْره- بالوفاء بذلك خاصة دون سائر البشر ما يدلّ على أن قوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] مقصود به كفّارهم ومنافقوهم ، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم ، غير أن الخطاب وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل في أحكامهم وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذمّ والتوبيخ كلّ من كان على

سبيلهم ومنهاجهم ، من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي..." (١)

ففي هذا المثال يتضح كيفية التعامل مع الآيات المخاطبة لمعينين : حيث لا مانع من جعل الخطاب لأشخاص حال نزوله ، مثل : اليهود أو المنافقين ، ولكن لا يعني ذلك اختصاص محتوى الخطاب وتوجيهاته بهم ، بل يدخل من يشابههم ويشاكلهم في الوصف والعمل . وهذا هو معنى القاعدة .

- ٢ - الأمثلة الموضحة للقاعدة :

بعد ذكر نص القاعدة ومثالها الموضّح لها ، يحسن ذكر أمثلة أخرى يكون من مجموعها : إبراز معنى القاعدة ، وتأكيد العمل بها ، والأمثلة كثيرة منها :

في قوله -تعالى- : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٥] **قال -رحمه الله -:** "...اختلف أهل التأويل فيمن عُني بهذه الآية: فقال بعضهم : عُني بها المسلمون من أمة محمد - ﷺ - وفيهم نزلت...وقال آخرون : عُني ببعضها أهل الشرك وببعضها أهل الإسلام...

قال أبو جعفر : والصواب من القول عندي أن يقال : إن الله -تعالى ذِكْرُه - توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان ، وإياهم خاطب بها ؛ لأنها بين إخبارٍ عنهم وخطابٍ لهم ، وذلك أنها تتلو قوله : ﴿ **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾** ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] ويتلوها قوله : ﴿ **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** ﴾[الأنعام: ٦٦]، وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذّبين ، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك ، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين ، كان بيّناً أن ذلك وعيد لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك وتأخر الخبر عنه بالتكذيب ، لا لمن لم يجر له ذكر ، غير أن ذلك وإن كان كذلك فإنه قد عمّ وعيده

(١) جامع البيان (١/٢١٩-٢٢١) ، وتحقيق شاكر (١/٤٠١) .

بذلك : كل من سلك سبيلهم ، من أهل الخلاف على الله، وعلى رسوله ، والتكذيب بآيات الله ، من هذه وغيرها..." [١]

وهذا نصٌّ واضحٌ في الاهتمام بتحديدِ المخاطب من السّياقِ ، بمراعاة ما قبل الآية وما بعدها ، وأن الآية ونحوها تتبع بسباقها ولحاقها ، ومع القولِ بتحديد المخاطب ، فإنه يدخل في الخطاب كلّ من شابه المعيَّن في صفته ،وسلك سبيله ، فيشمله الوعيد ونحوه [٢].

وفي قوله -تعالى- : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

قال -رحمه الله- :"...فإن قال قائل : أفمنسوخ ذلك ؟ قيل : لا دلالة عندنا على أنه منسوخ، إذْ كان جائزاً أن يكون ، وإن كان الله أنزله على نبيّه -عليه السّلام- في تعريفه عِشْرةَ من لم يؤمر بقتاله من المشركين ، مراداً به تأديب نبيّ الله والمسلمين جميعاً في عِشْرة الناس وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم ، فيكون وإن كان من أجلهم نزل تعليماً من الله خلقه صفة عِشْرة بعضهم بعضاً ، [إذا] لم يجب استعمال الغلظة والشدّة في بعضهم ، فإذا وجب استعمال ذلك فيهم استعمل الواجب ، فيكون قوله : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾ أمراً بأخذه ما لم يجب غير العفو ، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك ، فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة...وأما قوله : ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ **فإنه أمر من الله -تعالى- نبيّه -ﷺ -أن يعرض عمن جهل . وذلك وإن كان أمراً من الله لنبيّه ، فإنه تأديب منه - عزّ ذكره- لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم** ، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حقّ الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين

(١) جامع البيان (٥/٢٢٣) ، وتحقيق شاكر (١١/٤٢١) .

(٢) اختلف المفسرون في المراد بالآية : فمنهم ذهب إلى العموم ، ومنهم من قال : هي في الكفار ، ومنهم من قال : هي في المسلمين ، فذهب القرطبي أن الصحيح أنها في المسلمين أهل الصلاة ٧/١٢-١٣، وأنكر ابن عاشور على من جعل الآية في المسلمين ، وساق حديث البخاري مرفوعاً لما نزلت : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: أعوذ بوجهك...، الحديث ، ووجهه بأنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف من أن يصل عذاب الكافرين إلى المؤمنين...وله في ذلك تفصيل ٤/٧/٢٨٥ ، والأول أولى على ما ذكر ابن جرير .

حَرْبٌ . " [(١)]

وفي قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [البروج: ١١] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه- : إنّ الذين أقرّوا بتوحيد الله ، وهم هؤلاء القوم الذين حرّقهم أصحاب الأخدود ، وغيرهم من سائر أهل التوحيد..." [(٢)]

ففي الأمثلة الماضية يتبين أن قول المفسر : إن الله -عزّ وجلّ- خاطب المشركين أو اليهود أو غيرهم بدليل سياق الآيات أو سبب النزول ، معناه : حال نزوله ، وأن هذا الخطاب لا يختص بهم بل يدخل غيرهم ممن هو على شاكلتهم إلى يوم القيامة ، بل حتى الخطاب للنبي -ﷺ- لا يعني اختصاصه بالخطاب ، إلا ما ورد الدليل على أنه خاص به -ﷺ- [(٣)].

---

(١) جامع البيان (٦/١٥٣-١٥٤) ، وتحقيق شاكر (١٣/٣٢٩) .

(٢) جامع البيان (١٢/٥٢٨) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ جامع البيان (٣/٣٥٣) ، والمائدة (٤٤) ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾الآية جامع البيان (٤/٥٨٨) ، والإسراء (٢٢) ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ جامع البيان (٧/٥٧)و(٣٣) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾الآية جامع البيان (٧/٧٦) ، و(٨٥) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية جامع البيان (٧/١٤٣-١٤٤) ، والإنسان (٨) ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/٣٦٠) .

(٣) فقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل: ١] خطاب للنبي- ﷺ- ؛ ولكنه عام للأمة عند الجمهور ، ولا يكون خاصّاً بالرسول إلا بدليل ، كما في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأحزاب: ٥٠] ، فـ ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ قرينة دلّت على خصوص الخطاب ، وعدم دخول الأمة فيه . انظر شرح الكوكب المنير (٣/٢١٨) ، والواضح في أصول الفقه للدكتور محمد الأشقر صفحة (١٩١-١٩٢) .

المطلب الثاني : التّعامل مع ما ورد فيه سبب نـــزول :

في قولـــه –تعـــالى– : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقـــرة: ١١] **قال –رحمه الله –**: " اختلف أهل التأويـــل في تأويـــل هـــذه الآيـــة : فـــروي عـــن ســـلمان الفارسي[(١)] أنه كان يقول : لم يجيءْ هؤلاء بعد...وقال آخرون :...هم المنافقون...

وأولى التأويلين بالآية : تأويل من قـــال : إن قـــول الله –تبـــارك اسمـــه– : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ نـــزلت في المنافقين الذين كانوا علـــى عهـــد رســـول الله –ﷺ –، وإن كان معنيّاً بها كل من كان بمثل صفتهم من المنـــافقين بعـــدهم إلى يـــوم القيامـــة، وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية : ما جاء هؤلاء بعد، أن يكـــون قالـــه : بعـــد فنـــاء الذين كانوا بهذه الصفة على عهد رسول الله –ﷺ –، خبراً منه عمـــن هـــو جـــاء منـــهم بعـــدهم ولما يجيء بعد ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن هذه صفته أحد ، وإنما قلنـــا أولى التـــأويلين بالآيـــة مـــا ذكرنا ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك صفة مـــن كـــان بـــين ظهـــراني أصـــحاب رسول الله –ﷺ –على عهد رسول الله –ﷺ – من المنافقين، وأن هـــذه الآيـــات فـــيهم نـــــزلت، والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القـــرآن مـــن قـــول لا دلالـــة علـــى صـــحته مـــن أصـــلٍ ولا نظيـــرٍ "[(٢)].

وإذا ثبت نـــزول الآية في معينين لم يجز أن يقـــال بنـــــزولها في غيـــــرهم ؛ لأن ســـبب النـــزول ليس بالاجتهاد وإنما هو بالنقل ، ولكن إنمـــا يقـــال بـــدخول غيـــــرهم إذا وافقـــوهم

(١) هو أبو عبد الله ، سلمان الفارسي ، أصله من رامهرمز أو أصبهان ، وقصّة إسلامه مليئة بالعبر ، فقـــد كـــان مجوســـياً ، ثم تنصّر، فلم يزل من راهب إلى آخر ، حتى سرق فبيع ، فسمع بمحمد – ﷺ – فامتحن صدقه ، ونظر صـــفاته، الـــتي في التوراة والإنجيل فآمن ، وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، وأول حضورٍ له الخندق ؛ لأنه كان مســـترقّاً قبلـــها، وهـــو صاحب فكرة الخندق ، توفي سنة ست أو سبع وثلاثين . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٢٨/١–٢٣٦) ، وتاريخ بغداد (١٦٣/١) ، وسير أعلام النبلاء (٥٠٥/١) ، والإصابة (١١٣/٣) .

(٢) جامع البيان (١٥٨/١–١٥٩) ، وتحقيق شاكر (٢٨٧/١) .

وشاكلوهم في صفاقم ؛ لأن القرآن نزل لهداية العالمين ، من بعثة نبيّنا محمّد -ﷺ- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦ ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٦] **قال -رحمه الله-** :"...اختلف أهل العلم في حكم قول الله -عزّ وجلّ- : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ ﴾ هل هو خاصّ في أهل بدر؟ أم هو في المؤمنين جميعاً ؟ . فقال قومٌ : هو لأهل بدرٍ خاصة ؛ لأنه لم يكن لهم أن يتركوا رسول الله -ﷺ- مع عدوّه وينهزموا عنه، فأمّا اليوم فلهم الانهزام...وقال آخرون : بل هذه الآية حُكمها عامٌّ في كلّ من ولّى الدُّبُر عن العدوّ منهزماً...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي ، قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت في أهل بدر ، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين..." [(١)]

وفي هذه الآية حكم ووعيد نزل في أهل بدر ، ولكن لا يصحّ جعل الحكم خاصّاً بهم مع عدم الدليل ، وإنما يقال بالنّسخ أو الخصوصيّة بدليل وبرهان ، ويبطل القول بالخصوص عند عدم دليل التخصيص ، ويصبح اللفظ عامّاً لكلّ من يصلح لهم الخطاب .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٩٣ ﴾ [الأنعام: ٩٣] **قال - رحمه الله -** :"...وقد اختلف أهل التأويل في ذلك : فقال بعضهم فيه : [هذا تسفيهٌ من الله وتجهيل للعرب في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح [(٢)] لنبيّ الله - ﷺ - بدعوى

---

(١) جامع البيان (٦/٢٠١-٢٠٢) ، وتحقيق شاكر (١٣/٤٣٦) .

(٢) هو الصحابيّ ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث ، كان مؤمناً من كتبة الوحي ، ثم ارتدّ وسب دين الإسلام ، =

أنه جاء بمثل ما جاء به رسول الله-ﷺ -والحنفي مسيلمة [(١)] لنبي الله -ﷺ - بدعوى النبوة]...، وقال آخرون : بل نزل ذلك في عبد الله بن سعد خاصّة...وقال آخرون : بل القائل : ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ مسيلمة الكذّاب...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب : أن يقال : إن الله قال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ولا تَمَانُعَ بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال : إني قد قلت مثل ما قال محمد ، وأنه ارتدّ عن إسلامه ولحق بالمشركين . فكان لا شكّ بذلك من قيله مفترياً كذباً . وكذلك لا خلاف بين الجميع : أن مسيلمة ، والعنسيّ [(٢)] الكذّابين : ادّعيا على الله كذباً أنه بعثهما نبيين ، وقال كلّ واحد منهما : إن الله أوحى إليه ، وهو كاذبٌ في قيله ، فإذ كان ذلك كذلك ، فقد دخل في هذه الآية كل من كان مختلقاً على الله كذباً ، وقائلاً في ذلك الزمان وفي غيره : أوحى الله إلي، وهو في قيله كاذب لم يوح الله إليه شيئاً ، فأما التنزيل فإنه جائز أن يكون نزل بسبب

=

فأهدر الرسول - ﷺ- دمه عند فتح مكة ، وجاء به عثمان إلى الرسول -ﷺ- فعفا عنه ، وأسلم ، ثم حسن إسلامه، فأصبح من قواد الجيوش ، وهو أخ لعثمان بن عفان من الرضاعة ، ولاه عثمان على مصر كلها ، وكان محموداً ، توفي سنة ست وثلاثين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٣/٣٣) ، والإصابة (٤/٧٦) ، وشذرات الذهب (١/٤٤) .

(١) هو أبو ثمامة ، مسيلمة الكذاب بن ثمامة بن بكر بن حبيب الحنفي الوائلي ، ولد ونشأ باليمامة ، وهي حاليّاً تسمى بالجبيلة ، قرب العيينة بوادي حنيفة في نجد ، ادّعى النبوة ، وتبعه قومه ، وتزوج سجاح التي تنبأت ، وتبعها قومها من بني تميم ، توفي النبي- ﷺ - قبل أن يقضي على فتنته، وأرسل أبو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد فقتله وانتصر على جيشه ، سنة إحدى أو اثنتي عشرة . انظر المعارف صفحة (١٧٠و٢٦٧و٤٠٥) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٤٦) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٥)،والكامل في التاريخ (٢/٢٤٣-٢٤٧) .

(٢) هو عيهلة الأسود بن كعب العنسي ، من مذحج ، ارتدّ وتنبّأ بصنعاء ، وغزا نجران ، وسار إلى صنعاء ، وملك من مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين إلى عدن ، واستطار أمره كالحريق ، وأمر النبي بقتاله أو قتله غيلة ، فأجابوه وقتله فيروز ، وكان أول أمره إلى آخره ثلاثة شهور . انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٤٦) ، والكامل لابن الأثير (٢/٢٢٧-٢٣٠) .

بعضهم ، وجائز أن يكون نزل بسبب جميعهم ، وجائز أن يكون عني به جميع المشركين من العرب..." (١)

ففي هذين المثالين يظهر جليّاً أنّ آيات الله المنزلة إن كانت ذا سبب ومخاطبين معاصرين لنزولها ، فإنّ هذا لا يعني اختصاصها بهم ، وإنما يدخل في معناها كلّ من شابههم .

ويمكن التفريق بين من نزلت الآيات بسببه وبين من شابهه : بأنّ دخول من نزلت فيه الآية قطعيٌّ لا يخرج مطلقاً من دلالة الآية ، وأما غيره فهو محل اجتهاد ونظر(٢). هل هو مشابه لمن نزلت بسببه الآيات أم لا ؟ . وهذا لا يتعارض مع قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وإنما يجعل إدخال الشخص في مضمونها مشروطاً بتوفّر الصّفات وصحّة القياس فيمن يقال بدخوله في مدلول الآيات .– والله أعلم – .

---

(١) جامع البيان (٥/٢٦٨-٢٦٩) ، وتحقيق شاكر (١١/٥٣٣) . وانظر مواضع أخرى في : النساء (١٣٤) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾الآية جامع البيان (٤/٣١٩) ، و(١٣٥)﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾الآية جامع البيان (٤/٣٢٠)، والنحل (٩١)﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ الآية جامع البيان (٧/٦٣٦) ، والنور (٢٣)﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ الآية جامع البيان (٩/٢٩٢) .

(٢) انظر شرح الكوكب المنير (٣/١٨٧) .

المطلب الثالث : التعامل مع ما ورد فيه لفظ عموم :

في قوله -تعالى- : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤] **قال – رحمه الله** – :"...فإن قال قائل : ومن الذي عُني بقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ وأيّ المساجد هي ؟ . قيل : إنّ أهل التأويل في ذلك مختلفون : فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه : هم النصارى ، والمسجد : بيت المقدس... وقال آخرون: وهو بختنصّر وجنده ومن أعانهم من النصارى ، والمسجد : مسجد بيت المقدس...وقال آخرون: بل عنى الله –عزّ وجلّ– بهذه الآية مشركي قريش ، إذ منعوا رسول الله – ﷺ –من المسجد الحرام...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التي ذكرها بتأويل الآية : قول من قال : عنى الله –عزّ وجلّ– بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ : النصارى ، وذلك أنّهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده . والدليل على صحة ما قلنا في ذلك : قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها ، وأن لا مسجد عنى الله –عزّ وجلّ– بقوله : ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ إلاّ أحد المسجدين ، إمّا مسجد بيت المقدس ، وإمّا المسجد الحرام . وإذْ كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أنّ مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام ، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله –ﷺ – وأصحابه من الصلاة فيه ، صحّ وثبت أن الذين وصفهم الله –عزّ وجلّ– بالسعي في خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتها ، إذْ كان مشركو قريش بنو المسجد الحرام في الجاهلية ، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على

غير الوجه الذي يرضاه الله منهم ، وأخرى : أن الآية التي قبل قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ مَضَت بالخبر عن اليهود والنصارى وذَمّ أفعالهم [١]، والتي بعدها نبّهت بذمّ النّصارى والخبر عن افترائهم على ربهم[٢] ، و لم يَجْرِ لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها ، فيوجه الخبر بقول الله –عزّ وجلّ- : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام . وإذْ كان ذلك كذلك ، فالذي هو أَوْلى بالآية أن يوجه تأويلها إليه : هو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً ، إلاّ أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك ، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت . فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك ، إذْ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في المسجد [المقدس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، فيلجئون] [٣] توجيه قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ إلى أنّه معنيّ به مسجد بيت المقدس ، فقد أخطأ فيما ظنّ من ذلك ، وذلك أن الله –جلّ ذِكْره – إنما ذكر ظلم من منع من كان فرضه الصلاة في بيت المقدس من مؤمني بني إسرائيل ، وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعي في خراب المسجد ، وإن كان قد دلّ بعموم قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أن كلّ مانعٍ مصليّاً في مسجد لله فرضاً كانت صلاته فيه أو تطوّعاً ،

---

(١) وهي قوله عن أهل الكتاب :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ١١٣] وما قبلها .

(٢) وهي قوله–تعالى–: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١١٦] .

(٣) في تحقيق شاكر أشار : إلى أن العبارة هكذا وردت في النسخ المطبوعة والمخطوطة ، ولعلّ فيها سقطا وتحريفاً ، ويمكن أن يكون الكلام هكذا " فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا في ذلك ليس كذلك ، إذْ كان المسلمون لم يلزمهم قط فرض الصلاة في مسجد بيت المقدس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، وكان النصارى واليهود لم يمنعوهم قط من الصلاة فيه، فيجوز توجيه قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤] إلى أنه معنيّ به مسجد بيت المقدس". انظر تحقيق شاكر (٥٢٣/٢) .

وكلّ ساعٍ في خرابه فهو من المعتدين الظالمين ." [(١)]

ويستفاد من المثال أن العموم يؤخذ من لفظ العمـــوم في الآيـــة ، وهـــو ﴿ وَمَنْ ﴾ ، فهـــو يشمل من نـــزلت فيه الآيات ومن شابهه؛ لكن دخول من نـــزلت فيه الآيات دخولٌ أوليٌّ .

وفي قولـــه -تعـــالى- : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧] **قال -رحمه الله-**:"...واختلفـــوا في معـــنى الاعتـــداء الـــذي قـــال -تعالى ذِكْرُه- : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فقال بعضهم : الاعتـــداء الـــذي نهـــى الله عنه في هذا الموضع : هو ما كان عثمان بن مظعون[(٢)] همّ بـــه مـــن جـــبّ نفســـه ، فنُهِـــي عـــن ذلك، وقيل له : هذا هو الاعتداء...وقال آخرون : بـــل ذلـــك هـــو مـــا كـــان الجماعـــة مـــن أصحاب رسول الله - ﷺ - همّوا به من تحريم النســـاء ، والطعـــام ، واللبـــاس ، والنـــوم ، فنُـــهوا أن يفعلوا ذلك ، وأن يستَنّوا بغيـــر سنة نبيّهم محمّد - ﷺ -...**وقـــال بعضـــهم** : بـــل ذلـــك نهي من الله -تعالى ذِكْرُه- أن يتجاوز الحلال إلى الحرام...وقد بيّنـــا أن معـــنى الاعتـــداء : تجـــاوز المرء ماله إلى ما ليس له في كلّ شيء...

قال أبو جعفر : وإذ كان ذلك كذلك ، وكان الله -تعـــالى ذِكْـــرُه - قـــد عـــمّ بقولـــه: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ النهي عن العدوان كله ، كان الواجب أن يكون محكومـــاً لمـــا عمّـــه بـــالعموم ، حتى يخصه ما يجب التسليم له ، وليس لأحد أن يتعدّى حدّ الله -تعـــالى- في شـــي مـــن الأشـــياء مما أحلّ أو حرّم ، فمن تعدّاه فهو داخل في جملة مـــن قـــال -تعـــالى ذِكْـــرُه- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ . وغيـــر مستحيل أن تكون الآية نـــزلت في : أمر عثمـــان بـــن مظعـــون ، والـــرّهط

---

(١) جامع البيان (٥٤٥/١-٥٤٧) ، وتحقيق شاكر (٥٢٠/٢) .

(٢) هو أبو السائب ، عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي ، من سادة المهاجرين ، هاجر الهجرتين ، توفي بعد بدر ، وهو أول من مات من المهاجرين بعد بدر ، قبّله رسول الله ﷺبعد موته ، ودموعه تسيل على خدّ عثمان ، وصلى عليـــه ، وهو أول من دفن في البقيع ، سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل اثنتين . انظر حلية الأولياء (١٠٢/١) ، وسير أعـــلام النـــبلاء (١٥٣/١) ، والإصابة (٢٢٥/٤) ، وشذرات الذهب (٩/١) .

الذين همّوا من أصحاب رسول الله -ﷺ- بما همّوا به من تحريم بعض ما أحلّ الله لهم على أنفسهم ، ويكون مراداً بحكمها كلّ من كان في مثل معناهم ، ممن حرّم على نفسه ما أحلّ الله له ، أو أحلّ ما حرّم الله عليه ، أو تجاوز حدّاً حدّه الله له ، وذلك أن الذين همّوا بما همّوا به من تحريم بعض ما أحلّ لهم على أنفسهم ، إنّما عوتبوا على ما همّوا به من تجاوزهم ما سُنّ لهم وحُدّ إلى غيره ." [1]

فاستفيد العموم من النهي المطلق في قوله : ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ فيدخل تحت النهي : كلّ ما كان اعتداء سواء بالتحليل أو بالتحريم ، ودخول المعتدي إن كان فاعلاً أولى من دخول من نزلت فيه الآيات ؛ لأن من نزلت فيهم الآيات لم يكن منهم فعلٌ بل همٌّ فقط .

وفي قوله -تعالى- : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يعني بقوله -جلّ ثناؤه- : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إن مُبغضَك يا محمد وعدوّك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يعني بالأبتر : الأقلّ الأذلّ المنقطع دابره ، الذي لا عَقِبَ له. واختلف أهل التأويل في المعنيّ بذلك : فقال بعضهم : عُنِي به العاص بن وائل السهمي"[2]...وقال آخرون : بل عُنِي بذلك : عُقْبة بن أبي مُعَيط[3]...وقال آخرون : بل عُنِي بذلك جماعة من قريش...

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن الله -تعالى ذِكْرُه- أخبره أن مُبغض رسول الله -ﷺ- هو الأقلّ الأذلّ المنقطع عقبه ، فذلك صفة كلّ من أبغضه من

---

(١) جامع البيان (٥/١٢-١٣) ، وتحقيق شاكر (١٠/٥٢١) .

(٢) هو العاص بن وائل السهمي ، والد الصحابي عمرو بن العاص ، من المستهزئين ، وكانت حرفته معالجة الخيل والإبل ، وكان من الحكام في الجاهلية ، مات بعد ورمٍ في رجله لم يُدرَ ما سببه ! ، ولم يعرف تحديد وفاته . انظر المعارف صفحة (٢٨٥و٥٧٦) ، والأعلام (٤/١١) .

(٣) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد وكنيته ابن أبي معيط ، كان شديد الأذى للمسلمين ، وكان من أسرى بدر ، وقتله النبي ﷺ بعدها صبراً . انظر المعارف صفحة (١٥٥) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٩٨) ، والأعلام (٥/٣٦) .

الناس، وإن كانت الآية نـــزلت في شخصٍ بعينه ." (١)

فكلّ من أبغض دعوة الإسلام وحاربها ، فهـــو منقطـــعٌ منـــهزمٌ هالـــكٌ ، ســـواءٌ كـــان الفاعل لذلك في عهد نبيّنا محمد -ﷺ- وحياته ، أو كان في زمنٍ بعده إلى قيام الساعة .

وفي مثل هذه المواضع يتضح بجلاء : أن ما كـــان فيـــه لفـــظ عمـــوم مثـــل : مَـــنْ ، أو الأمر، أو النهي المطلق ، فيشمل جميع ما يندرج تحته من أيِّ شخصٍ كـــان ، وقـــد يكـــون اللفـــظ مفرداً فلا مانع من دخول جمـــع تحتـــه ، إذا تشـــابهوا في وصـــف الآيـــة ؛ لأن العـــبرة ليســـت بخصوص السبب بل بعموم اللفظ . -والله أعلم- .

---

(١) جامع البيان (١٢/٧٢٥-٧٢٦) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (١٩٩) ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٦٠) ، والزمر (٣١) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ جامع البيان (١١/٤)، وفصلت (٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ الآية جامع البيان (١١/١١٥) ، والهمزة (١)﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ جامع البيان (١٢/٦٨٧-٦٨٨) .

المطلب الرابع : موضع لم يستعمل فيه الإمام الطبري –رحمه الله– قاعدة تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم ، بل يدخل من يشابههم :

لقد نهج الإمام –رحمه الله– باطراد غالب على تطبيق هذه القاعدة ،ولكن هناك موضع واحد لم يتعامل معه التعامل نفسه :

ففي قوله –تعالى– : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] **قال أبو جعفر** : "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : فقال بعضهم [كابن عيينة] : معناه : سأنزع عنهم فهم الكتاب...وأصرفهم عن آياتي .

قال أبو جعفر : وتأويل ابن عيينة هذا يدلّ على أن هذا الكلام كان عنده من الله وعيداً لأهل الكفر بالله ممن بعث إليه نبينا –ﷺ– دون قوم موسى ؛ لأن القرآن إنما أنزل على نبينا محمد –ﷺ– دون موسى –عليه السلام– . وقال آخرون في ذلك : معناه : سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته ، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته ، في توحيده وعدله ، وغير ذلك من فرائضه ، والسموات والأرض وكلّ موجود من خلقه فمن آياته ، والقرآن أيضاً من آياته ، وقد عمّ بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبّرين في الأرض بغير الحقّ ، وهم الذين حقّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤْمنون ، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والأدّكار بها مصروفون ؛ لأنهم لو وُفِّقوا لِفَهْم بعض ذلك فَهُدوا للاعتبار به اتعظوا وأنابوا إلى الحقّ ، وذلك غير كائن منهم ؛ لأنه –جلّ ثناؤه– قال : ﴿وَإِن يَرَوْا۟

﴿كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ فلا تبديل لكلمات الله ." [١]

وقد عمّمَ الإمام –رحمه الله– معنى الآيات التي يصرف عنها المتكبرون على وجه العموم من عهد موسى –ﷺ–أو غيره ، واستدل بالعموم في قوله : **﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾** وهذا صحيح ؛ ولكن السياق هنا : في اليهود ، والأحسن أن يقال : يدخل اليهود أولاً ، ولا يلزم من معنى الآيات أن يكون القرآن وحده؛ لأن القرآن لم ينزل في عهد موسى–ﷺ –، ويدخل غير اليهود ممن شابههم تبعاً .

وقد قال أبو السعود –رحمه الله– : بـ" ارتباط الآية بوعد اليهود بدخول الأرض المقدسة ، أو بمواعظ التوراة ، وعلى هذا يكون الكلام مع موسى –ﷺ – ، والآية متعلقة بقوله : **﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾** [الأعراف: ١٤٥] أو بما تقدمه " [٢] . **وقال الآلوسي –رحمه الله–** : " وجوَّز الطِّيبيّ[٣] : كونها متصلة بقوله : **﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾**[الأعراف: ١٤٥] ، وقيل: الكلام مع كافري مكة ، والآية متصلة بقوله : **﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾** [الأعراف: ١٠٠] ، وإيراد قصة موسى وفرعون ؛ للاعتبار في أن فرعون لم يستطع إبطال آيات موسى –ﷺ – " [٤] . وأجاز ابن عاشور [٥] الوجهين : أن تكون متصلة بما قبلها وتكملة لها ، وفي هذا تعريض بكفار العرب ، أو تكون جملة معترضة عن كفار قريش ،

---

(١) جامع البيان (٦/٦٠–٦١) ، وتحقيق شاكر (١٣/١١٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٢/٤٠٣) .

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي ، كان غنيّاً فأنفق حتى عاد فقيراً ، من مؤلفاته : شرح المشكاة ، وشرح الكشاف ، توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . انظر الدرر الكامنة (٢/١٥٦) .

(٤) انظر روح المعاني (٦/٩٠) .

(٥) هو محمد بن الطاهر بن محمد عاشور ، مالكي المذهب ، رئيس المفتين في تونس ، وشيخ جامع الزيتونة ، ومن أعضاء المجمَعين العربيين في دمشق والقاهرة ، له : التفسير العظيم المسمى : بالتحرير والتنوير ، وقد اهتمّ فيه باللغة والبيان بأسلوب واسع ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر المفسرون بين التأويل والإثبات لآيات الصفات (٢/٣٥٧) للمغراوي .

وصفاهم مطابقة لما ذكر في الآية أتم انطباق .[١]

وفي ختام القاعدة تبينت طريقة العمل الصحيحة مع القرآن لفهمه كما هو وقت نزوله ، وما يصاحب النزول من أسباب وما يلحق به من توابع ، مع مراعاة سياق الآيات في السورة نفسها ، واستحضار حقيقة : أن القرآن ليس مقصوداً به من نزلت فيه الآيات أو كانت بسببه ، بل إنه نزل لكافة البشرية إلى قيام الساعة . -والله الموفق للصواب- .

(١) التحرير والتنوير (جزء ١٠٥/٩) .

المبحث الثامن : الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق :

يمتاز القرآن الكريم بأنه لا يذكر القصص والأخبار لذاتها ، وإنما لما يحصل منها من الدروس والتوجيهات ، ولابد حال النظر إلى هذه التوجيهات في ختام الحوادث والأخبار وغيرها من اعتبار رجوعها إلى ما ذكر من أفعال سابقة ، هذا هو الأصل المتبع ، وهو معنى هذه القاعدة باختصار .

وسأعرض لأمثلة هذا المبحث من خلال المطلبين التاليين :

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها .

المطلب الثاني : الأمر والنهي .

المطلب الأول : نص القاعدة ، والأمثلة الموضحة لها :

نص القاعدة : من عادة القرآن وطريقته : التعقيب على الأوامر والنواهي ، والترغيب والترهيب ، ونحو ذلك ، والواجب في فهم التعقيب أن يفسَّر على أنه عائد إلى ما سبق التعقيب ، دون ما لم يجر له ذكر .

وإليك هذا المثال الواضح في تفسير القاعدة وتطبيقها :

في قوله –تعالى– : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ١٠** ﴾ [البقرة: ١٠] **قال –رحمه الله–**: في قوله –تعالى– : ﴿ **بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ** ﴾ " اختلفت القرأة في قراءة ذلك ، فقرأه بعضهم : ﴿ **بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ** ﴾ مخففة الذال مفتوحة الياء ، وهي قراءة عُظْم قرأة أهل الكوفة . وقرأه آخرون : ﴿ **يُكَذِّبُونَ** ﴾ بضم الياء وتشديد الذال، وهي قراءة عُظْم قرأة أهل المدينة والحجاز والبصرة .[1] وكأن الذين قرأوا ذلك بتشديد الذال وضم الياء رأوا أن الله –جلّ ثناؤه – إنما أوجب للمنافقين العذاب الأليم ، بتكذيبهم نبيّه –ﷺ– وبما جاء به ، وأن الكذب لولا التكذيب لا يوجب لأحد اليسير من العذاب، فكيف بالأليم منه ؟! . وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالوا ، وذلك أن الله –عزّ وجلّ – أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة ، بأنهم يكذبون بدعواهم الإيمان ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعاً لله –عزّ وجلّ– ولرسوله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ [البقرة: ٨ – ٩] بذلك من قيلهم مع استسرارهم الشك والريبة ، وما يخدعون بصنيعهم ذلك إلا أنفسهم ، دون رسول الله –ﷺ– والمؤمنين ، وما يشعرون بموضع خديعتهم أنفسهم، واستدراج الله –عزّ وجلّ – إياهم بإملائه لهم في قلوبهم شك النفاق وريبته ، والله زائدهم شكّاً وريبة بما كانوا يكذبون الله

---

(١) قرأ بالأولى –التخفيف وفتح الياء –: عاصم وحمزة والكسائي وخلف ، وقرأ بالثانية –التشديد مع ضم الياء: الباقون . انظر إتحاف فضلاء البشر (٣٧٨/١) ، والمبسوط في القراءات العشر صفحة (١١٥) .

ورسوله والمؤمنين ، بقولهم بألسنتهم :﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وهم في قيلهم ذلك كَذَبة ؛ لاستسرارهم الشك والمرض في اعتقادات قلوبهم في أمر الله وأمر رسوله -ﷺ -، فأولى في حكمة الله -جلّ جلاله-أن يكون الوعيد منه لهم ، على ما افتتح به الخبر عنهم من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم ، دون ما لم يجر له ذكر من أفعالهم، إذ كان سائر آيات تنزيله بذلك نزل ، وهو أن يفتتح ذكر محاسن أفعال قوم ، ثم يختم ذلك بالوعْد على ما افتتح به ذكره من أفعالهم ، ويفتتح ذكر مساوئ أفعال آخرين، ثم يختم ذلك بالوعيد على ما ابتدأ به ذكره من أفعالهم . فكذلك الصحيح من القول في الآيات التي افتتح فيها ذكر بعض مساوئ أفعال المنافقين ، أن يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من قبائح أفعالهم ، فهذا هذا ، مع دلالة الآية الأخرى على صحة ما قلنا ، وشهادتها بأن الواجب من القراءة ما اخترنا، وأن الصواب من التأويل ما تأوّلنا : من أن وعيد الله المنافقين في هذه الآية العذاب الأليم على الكذب الجامع معنى الشكّ والتكذيب ، وذلك قول الله -تبارك وتعالى -: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ١ - ٢] والآية الأخرى في المجادلة : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦﴾ [المجادلة: ١٦] فأخبر -جلّ ثناؤه - أنّ المنافقين بقيلهم ما قالوا لرسول الله - ﷺ - ، مع اعتقادهم فيه ما هم معتقدون كاذبون. ثم أخبر -تعالى ذِكْرُه- أن العذاب المهين لهم على ذلك من كذبهم . ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة : ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [بالتشديد] لكانت القراءة في السورة الأخرى : والله يشهد إن المنافقين لمكذّبون؛ ليكون الوعيد لهم الذي هو عقيب ذلك وعيداً على التكذيب ، لا على الكذب..." (١)

فهنا رجح أن المراد : معنى التكذيب ، وأنها القراءة الصحيحة ، دون معنى الكذب ، وعليه ضعّف القراءة الأخرى ، مستدلاً بافتتاح الحديث عن تكذيب المنافقين لا كذبهم ،

---

(١) جامع البيان (١/١٥٧-١٥٨) ، وتحقيق شاكر (١/٢٨٤) .

وعزَّز ذلك بآيات أخر في المنافقين من سور أخرى ، فطريقة القرآن إذا افتتح بخبر وختم بوعيد ونحوه بعده ، أن يعيد الختام على ما افتتح الحديث عنه ، دون ما لم يجر له ذكر ، فالمقصود والشاهد هنا أن الختام يعود على السابق وإن اختلف في تحديده .

وسيأتي لمسألة القراءات والترجيح بينها وتضعيف بعضها مزيد بيان في الباب الثاني –إن شاء الله– ، ولكن يلزم توجيه معنى القراءة المشددة المتواترة التي ضعفها الإمام الطبري –رحمه الله– بقوله : "الواجب من القراءة ما اخترنا"...وقوله : "ولو كان الصّحيح من القراءة على ما قرأه القارئون " يقصد القراءة بالتشديد ، فإنّ معنى القراءة بالتشديد على ما قاله جمع من المفسرين والقراء : يكذِّبون الرسل ويردّون على الله –عزّ وجلّ– ويكذبون بآياته ، وأما قراءة التخفيف : فترجع إلى قولهم : السابق ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.[1]

وقال ابن كثير –رحمه الله–: " وقد كانوا متّصفين بهذا وهذا ، فقد كانوا كذَبَة، ويُكذِّبون بالغيب ، يجمعون بين هذا وهذا ." [2]

والتحقيق : أن قراءة التخفيف دلت عليها الآية نفسها حين كانت قراءتها مخففة ، ودلالة ما قبلها في تكذيب الله لهم بقوله : ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ ودلالة ما بعدها في قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ﴾ [البقرة: ١٤] فقولهم لشياطينهم : ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ كذب لقولهم : ﴿ءَامَنَّا﴾ ، فحسنت القراءة بالتخفيف ؛ ليكون الكلام على نظام واحد مطابق لما قبله، وقراءة التشديد فيها استدلال بما سبق أيضاً ، فقوله –تعالى– : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ [البقرة: ١٠] أي : مرض الشكّ ، ومن شكّ في شيء لم يتيقّنه ولا أقرّ بصحّته ، ومن لا يقرّ بالشيء ولا آمن بصحّته فقد كذّب به وجحده ، فهم مكذّبون لا كاذبون ، وفيها مبالغةٌ في الذمّ ؛ لأنّ كلّ مكذّب كاذب ، وليس كلّ كاذب

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١/١٩٨) ، والتفسير الكبير (٢/٧٢) ، وتفسير الجلالين صفحة (٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٧) .

مكذّباً .[(١)]

وفي قوله -تعالى- : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣] **قال أبو جعفر**: "...اختلف أهل التأويل في المعنيّ بالذين كفروا : في هذا الموضع ، والمراد بقوله : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ : فقال بعضهم : المعنيّ بالذين كفروا : اليهود ، وبالذين لا يعقلون : أهل الأوثان...وقال آخرون : بل هم أهل ملة واحدة ، ولكن المفترين المتبوعون، والذين لا يعقلون : الأتباع...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن المعنيين بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ الذين بحّروا البحائر ، وسيّبوا السوائب ، ووصَلوا الوصائل ، وحَمَوا الحوامي ، مثل : عمرو بن لحي[(٢)] وأشكاله ، ممن سنّ لأهل الشرك السنن الرديئة ، وغيّر دين الله دين الحقّ ، وأضافوا إلى الله -تعالى ذِكْرُه- أنه هو الذي حرّم ما حرّموا ، وأحلّ ما أحلّوا ، افتراء على الله الكذب وهم يعلمون ، واختلاقاً عليه الإفك وهم يفهمون ، فكذّبهم الله -تعالى ذِكْرُه- في قيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرّموا ، فقال -تعالى ذِكْرُه- : ما جعلت من بحيرة ولا سائبة ؛ ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك ، ويفترون على الله الكذب . وأن يقال : إن المعنيين بقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ هم أتباع من سنّ لهم هذه السنن من جهلة المشركين ، فهم لا شكّ أنهم أكثر من الذين سنّوا ذلك لهم ، فوصفهم الله -تعالى- بأنهم لا يعقلون ؛ لأنهم لم يكونوا يعقلون أن الذين سنوا لهم تلك السنن ، وأخبروهم أنها من عند الله كذبة في إخبارهم أَفَكَة ، بل ظنّوا أنهم فيما يقولون محقّون ، وفي أخبارهم صادقون . وإنما معنى الكلام : وأكثرهم لا

---

(١) انظر كتاب الكشف في القراءات السبع (٢٢٨/١-٢٢٩) ، لمكي القيسي ، تحقيق محيي الدين رمضان .

(٢) هو أبو ثمامة ، عمرو بن لحي بن قَمَعَة بن خِندف الأزدي من قحطان ، جلب الأصنام إلى جزيرة العرب ، بعد أن كانت على التوحيد دين إسماعيل -عليه الصلاة والسلام -، قال فيه رسول الله -ﷺ -:" رأيت عمرو بن لحي بن قَمَعَة بن خِندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار " أي أمعاءه . انظر مسلم (٢١٩١/٤)،والأعلام (٢٥٧/٥).

يعقلون أن ذلك التحريم الذي حرّمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله -تعالى ذِكْرُه- كذب وباطل... ولا معنى لقول من قال: عني بالذي كفروا: أهل الكتاب، وذلك أن النكير في ابتداء الآية من الله -تعالى ذِكْرُه- على مشركي العرب، فالختم بهم أولى من غيرهم، إذ لم يكن عرض في الكلام ما يصرف من أجله عنهم إلى غيرهم." (١)

فالكذب المقصود هنا تابع لمن تحدث الله عنهم قبل، وهم المشركون، الذين شرعوا ما لم يأذن به الله في شأن الأنعام، وليس له اتصال باليهود؛ إذ ما قبله في المشركين.

وفي قوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤] **قال -رحمه الله-**: "...فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وقد علمت أن باب الرحمة وباب التوبة [لم يُفتحا لهم]، ولم تفتح لهم أبواب أخر غيرهما كثيرة؟ قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم استدراجاً منّا لهم، أبوابَ كلّ ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضرّاء؛ ليتضرّعوا، إذ لم يتضرّعوا وتركوا أمر الله -تعالى ذِكْرُه-؛ لأن آخر هذا الكلام مردودٌ على أوّله، وذلك كما قال -تعالى ذِكْرُه- في موضع آخر من كتابه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنّهم نسوا ما] ذكّرهم، بقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ هو: تبديله لهم مكان السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة، ومن الضرّ في الأجسام إلى الصحة والعافية، وهو فتح أبواب كلِّ شيء كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذكره قبل قوله: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، فردّ قوله: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ عليه. ويعني -تعالى- بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾

---

(١) جامع البيان (٥/٩٣-٩٤)، وتحقيق شاكر (١١/١٣٤).

يقول : حتى إذا فرح هؤلاء المكذّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة والصحة في الأجسام..."[١]

وهذه الآية فيها خبرٌ عن أممٍ سابقة ، حين كذّبت رسلها فابتلاها الله بالبأساء والضرّاء علّها تتضرّع ، قال -تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] فالله -عزّ وجلّ- ابتلاهم بالبأساء : وهي الفقر ، والضراء : وهو المرض ، فلما كذّبت فتح عليها أبواب كل شيء سدّ عنهم قبل ذلك ، ففتح الله عليهم أبواب كل شيء ليس مطلقاً ، بل في الرزق البدني والمالي ؛ لأنه ضدّ البأساء والضراء ، ولا تدخل الرحمة والهداية فيما وهبهم الله بهذا الفتح ؛ لأنه استدراج من الله -عزّ وجلّ- لهم لما نسوا ما ذكّروا به ، وهذا المعنى مستند إلى قاعدة: آخر الكلام مردود على أوّله .[٢]

- ٢ - أمثلة موضّحة للقاعدة : سبق الحديث عن نصّ القاعدة ، ولكن يحسن ذكر ما يعضدها ، ويوضحها من الأمثلة ، ومنها :

قوله -تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٥] قال -رحمه الله- : " يقول -تعالى ذِكْرُه- : إن الذين جحدوا توحيد الله وكذّبوا رسله وأنكروا ما جاءهم به من عند ربهم ، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يقول: ويمنعون الناس عن دين الله أن يدخلوا فيه ، وعن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس الذين آمنوا به كافة ، لم يخصص منها بعضاً دون بعض ، ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ ﴾ ...واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال

(١) جامع البيان (١٩٢/٥) ، وتحقيق شاكر (٣٥٧/١١) .

(٢) ومثل ما سبق : في الأنعام (٦٨)﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٥/٥) .

بعضهم : معناه : سواء العاكف فيه : وهو المقيم فيه ، والباد في أنه ليس أحدهما بأحقّ بالمنزل فيه من الآخر...وقال آخرون في ذلك نحو الذي قلنا فيه [وهو : أن العاكف : المقيم ، والبادي : القادم إليه من بلده هما في حرمته سواء]...وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك؛ لأن الله -تعالى ذِكْرُه- ، ذكر في أوّل الآية : صدّ من كفر به من أراد من المؤمنين قضاء نسكه في الحرم عن المسجد الحرام ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ثم ذكر - جلّ ثناؤه - صفة المسجد الحرام ، فقال : {الّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ} فأخبر -جلّ ثناؤه- : أنه جعله للناس كلهم ، فالكافرون به يمنعون من أراده من المؤمنين به عنه . ثم قال : ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ ﴾ فكان معلوماً أنّ خبره عن استواء العاكف فيه والباد ، إنما هو في المعنى الذي ابتدأ الله الخبر عن الكفار أنهم صدّوا عنه المؤمنين به ، وذلك لا شكّ طوافهم، وقضاء مناسكهم به والمقام ، لا الخبر عن ملكهم إياه وغير ملكهم..." (١)

إذاً معنى قوله -تعالى- : ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ ﴾ هو في دخول المسجد الذي جعله الله -تعالى - للناس جميعا؛ لأن ما قبلها حديث عن صدَّ الكفار المؤمنين أن يدخلوا المسجد الحرام .

---

(١) جامع البيان (١٢٨/٩-١٢٩) . وانظر مواضع أخرى في :النساء (١٦٠) ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ جامع البيان (٣٦٢/٤) ، والأنعام (٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الآية جامع البيان (١٨٤/٥) ، والأعراف (١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية جامع البيان (٧٠/٦) ، وهود(٨) ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ الآية جامع البيان (٩/٧) ، والنحل (٥٩) ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ الآية جامع البيان (٦٠٠/٧) ، و(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ جامع البيان (٦٣٣/٧) ، وطه(١٦) ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ جامع البيان (٤٠٤/٨) ، والأنبياء (٣) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٤/٩) .

المطلب الثاني : الأمر والنهي :

حين يذكر في الآية أمر ويختم بنهي ، أو يذكر نهي ويختم بأمر ، فإن الأولى في تفسير التالي أن يكون على مقابلة الأول ، ومن أمثلة ذلك :

قوله –تعالى- : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

قال أبو جعفر : "...اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ فقال بعضهم : معنى ذلك : فأتوا نساءكم إذا تطهرن من الوجه الذي نهيتكم عن إتيانهن منه في حال حيضهن ، وذلك الفرْج الذي أمر الله بترك جماعهنّ فيه في حال الحيض...وقال آخرون: معناه : فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله فيه أن تأتوهن منه ، وذلك الوجه هو الطّهرُ دون الحيضِ . فكان معنى قائل ذلك في الآية : فأتُوهنّ من قُبْل طهرهنّ لا من قُبْل حيضهن...وقال آخرون : بل معنى ذلك : فأتوا النساء من قبل النكاح لا من قبل الفجور...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك عندي : قول من قال : معنى ذلك : فأتوهن من قُبْل طهرهن ، وذلك أن كل أمر بمعنى فنهيٌ عن خلافه وضده ، وكذلك النهي عن الشيء أمر بضده وخلافه . فلو كان معنى قوله : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ فأتوهنّ من قِبَل مخرج الدم الذي نهيتكم أن تأتوهن من قبله في حال حيضهن؛ لوجب أن يكون قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ ﴾ تأويله : ولا تقربوهنّ في مخرج الدم دون ما عدا ذلك من أماكن جسدها ، فيكون مطلقاً في حال حيضها إتيانهن في أدبارهنّ ، وفي إجماع الجميع على أن الله –تعالى ذِكْرُه- لم يطلق في حال الحيض من إتيانهنّ في أدبارهن شيئاً حرّمه في حال الطهر ، ولا حرم من ذلك في حال الطهر شيئاً أحلّه في حال الحيض ، ما يعلم به فساد هذا القول . وبعد : فلو كان معنى ذلك على ما تأوّله قائلو هذه المقالة لوجب أن يكون الكلام : فإذا تطهرن فأتوهن في حيث أمركم الله، حتى يكون معنى الكلام حينئذ على

التأويل الذي تأوّله ، ويكون ذلك أمراً بإتيانهن في فروجهن ؛ لأن الكلام المعروف إذا أريد ذلك أن يقال : أتى فلان زوجته من قبل فرجها، ولا يقال : أتاها من فرجها إلا أن يكون أتاها من قبل فرجها في مكان غير الفرج..."(١)

فرجّح الإمام الطبري-رحمه الله- أن المراد بالأمر : هو مقابل النهي ، ولما كان النهي عن إتيان الحائض جعل الأمر بما يقابله ، وهو الأمر بإتيانها بعد ذهاب حيضها في المكان الذي نهي المكلف عن الإتيان فيه حال الحيض .

وفي قوله -تعالى- : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٦]...﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **قال أبو جعفر** : "يعني -تعالى ذِكْرُه- بذلك : فإن رجعوا إلى ترك ما حلفوا عليه أن يفعلوه بهنّ من ترك جماعهن فجامعوهن وحنثوا في أيمانهم ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ : لما كان منهم من الكذب في أيمانهم بأن لا يأتوهن ثم أتوهن ، ولما سلف منهم إليهن من اليمين على ما لم يكن لهم أن يحلفوا عليه، فحلفوا عليه ، ﴿رَّحِيمٌ ﴾: بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين..." (٢)

فختام الآية من وعد بالمغفرة لمن فاء ورجع ، عائد إلى ما عزموا عليه من الامتناع عن إتيان نسائهم.

وفي قوله -تعالى- : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] ... ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ **قال أبو جعفر** : " يقول -تعالى ذِكْرُه- لموسى إذ كتب في الألواح من كلّ شيء : خذها بجدّ في العمل بما فيها واجتهاد ، وأمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها ، وانههم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي، فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم ، فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ وهي نار الله التي أعدّها لأعدائه . وإنما

---

(١) جامع البيان (٢/٤٠١-٤٠٢) ، وتحقيق شاكر (٤/٣٨٨) .

(٢) جامع البيان (٢/٤٣٤) ، وتحقيق شاكر (٤/٤٦٥) .

قال : ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري !، على وجه التهدّد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : فقال بعضهم: بنحو ما قلنا في ذلك...وقال آخرون : معنى ذلك: سأدخلكم أرض الشام ، فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة...وقال آخرون : معنى ذلك : سأريكم دار قوم فرعون ، وهي مصر...[(١)]

قال أبو جعفر : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك ؛ لأن الذي قبل قوله –جلّ ثناؤه–: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أمرٌ من الله لموسى وقومه بالعمل بما في التوراة ، فأولى الأمور بحكمة الله –تعالى– أن يختم ذلك بالوعيد على من ضيّعَه وفرّط في العمل لله ، وحاد عن سبيله ، دون الخبر عما قد انقطع الخبر عنه أو عما لم يجر له ذكر."[(٢)]

فعلم من رد ختام الآية إلى أولها : أن الوعيد مناسب ومقابل لما قبله من الأمر بحفظ التوراة والعمل بها ، هذا في أول نزول الخطاب فدخولهم أولي فيستقيم العمل بهذه القاعدة، بالإضافة إلى دخول من بعدهم في معناها –كما سبق تقريره في المبحث الماضي وهو : تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم بل يدخل من يشابههم .

وفي ختام المبحث يتبين معنى القاعدة : وأن كل وعد أو وعيد مختوم بتعليق وتوجيه فهو راجع إلى الوعد والوعيد ، وكذا كل أمر أو نهي ، وعُقّب عليه بخلافه فيحمل على نقيض الأول ، وقد عزّزت ذلك بذكر الأمثلة ؛ ليستفاد منها في توضيح تطبيقات القاعدة . –والله الموفق –.

---

(١) في تحقيق شاكر إشارة إلى وجود بياض بعد هذا النص ، بمقدار خمسة أسطر . (١١١/١٣) .

(٢) جامع البيان (٥٩/٦–٦٠) ، وتحقيق شاكر (١١٠/١٣) . وانظر مواضع أخرى في : آل عمران (١٥٠) ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ جامع البيان (٤٦٧/٣) ، والمائدة (٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ الآية جامع البيان (٣٦/٥–٣٧) ، والأعراف (٣١) ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ الآية جامع البيان (٤٧٢/٥) .

المبحث التاسع : لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب:

كثيراً ما يعلّل الإمام الطبري –رحمه الله– في تفسيره جامع البيان المذهب الذي يراه ويرجّحه على غيره بالظاهر من الخطاب ، وهذا يدلّ على سعة هذا المبحث وتشعّبه ، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه ، فسأعرض لأهم الأمثلة من خلال المطالب التالية :

المطلب الأول : نص القاعدة .

المطلب الثاني : ضوابط استعمال الظاهر من الخطاب .

المطلب الثالث : متى يترك الأظهر من الخطاب ويصار إلى غيره .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري –رحمه الله– قاعدة : تفسير السياق بالظاهر من الخطاب .

وقبل الدخول إلى المبحث أقدم بأوضح التعريفات للظاهر عند الأصوليين : **قال السرخسي–رحمه الله–** (١) : " هو ما يعرف المراد منه بنفس السماع من غير تأمّل ، وهو الذي يسبق إلى العقول والأوهام ؛ لظهوره موضوعاً فيما هو المراد ." (٢)

---

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل ، شمس الأئمة ، من كبار قضاة الحنفية ، من أهل سرخس في خراسان ، من أهم مصنفاته : المبسوط في أصول الفقه ، وشرح الكافي ، والأصول ، توفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وقيل غير ذلك. انظر الجواهر المضية (٢/٢٨)، والفتح المبين (١/٢٦٤) ، وتاج التراجم صفحة (٢٣٥) .

(٢) أصول السرخسي (١/١٦٣-١٦٤) طبع دار الكتاب العربي بمصر ، ١٣٧٢هـ ، والسرخسي من الحنفية ، وقد عرف الظاهر أبو زيد الدبوسي فقال : ما ظهر للسامع بنفس السمع . وقال البزدوي : الظاهر اسم لكل كلام ظهر المراد به للسامع بصيغته . وراجع تفسير النصوص في الفقه الإسلامي (١/١٤٢-١٤٣) للدكتور : محمد أديب صالح . وقد سبق ذكر دلالات الألفاظ من حيث الظهور والخفاء ، وأنه قد وقع الخلاف بين الجمهور والحنفية فيها ، ينظر التمهيد صفحة (٦١) و(٧٤) وما بعدها .

المطلب الأول : نصّ القاعدة :

يعمد المفسّر إلى بيان كلام الله –عزّ وجلّ – على وجهه الأظهر حين سماعه ، الأغلب في استعماله ، ولا ينتقل إلى الأقل الأغرب إلا بشروط سيأتي بيانها – إن شاء الله –.

ومن أمثلة هذه القاعدة : قوله –تعالى– :﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٦٥] **قال –رحمه الله–** :"...عن مجاهد : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ قال : مسخت قلوبهم ، و لم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم : ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ ﴾[الجمعة: ٥].

قال أبو جعفر : وهذا القول الذي قاله مجاهد ، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف ، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت[1]، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم : ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] ، وأنّ الله –تعالى ذِكْره – أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم ، وأنهم عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أُمروا بدخول الأرض المقدسة ، فقالوا لنبيهم : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة: ٢٤] فابتلاهم بالتّيه . فسواءٌ قائل قال : هم لم يمسخهم قردة ، وقد أخبر –جل ذكره – أنه جعل منهم قردة وخنازير ، وآخر قال : لم يكن شيء مما أخبر الله عن بني إسرائيل أنه كان منهم من الخلاف على أنبيائهم والنّكال والعقوبات التي أحلها الله بهم . ومن أنكر شيئاً من ذلك وأقرّ بآخر منه ، سئل البرهان على قوله ، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقرّ به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح . هذا مع خلاف قول مجاهد قول جميع الحجة، التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة

---

(١) وذلك في قوله تعالى في المائدة (٦٠) ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الآية .

عليه، وكفى دليلاً على فساد قولٍ إجماعها على تخطئته . " (١)

فقول مجاهدٍ –رحمه الله – لا دليل عليه بل الآية على الإخبار بخلافه ؛ لأن الظاهر يجب إعماله ، والذهاب إلى مدلوله .

قال ابن كثير –رحمه الله– : " مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم...[وقال في سند قول مجاهد] وهذا سند جيد عن مجاهد ، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره ، قال الله –تعالى– : ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾[المائدة: ٦٠] الآية ."(٢)

والفصْل في تضعيف القول : أنْ إجماع المفسرين على خلافه ، وكفى به دليلاً :

قال القرطبي –رحمه الله–: بعد ذكر ما قاله مجاهد : " و لم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم"(٣).

وقال الرازي –رحمه الله–: " وإذا جاز المسخ أمكن إجراء الآية على ظاهرها ، و لم يكن لنا حاجة إلى التأويل الذي ذكره مجاهد ، وإن كان ما ذكره مستبعد جداً . " (٤)

وقال الآلوسي –رحمه الله– : " وظاهر القرآن أهم مسخوا قردة على الحقيقة، وعلى ذلك جمهور المفسرين ، وهو الصحيح ." (٥)

وفي قوله -تعالى- : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾** ﴾ [الرعد: ٢] **قال–رحمه**

---

(١) جامع البيان (٣٧٣/١) ، وتحقيق شاكر (١٧٣/٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠١/١) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤٤٣/١) .

(٤) التفسير الكبير (جزء ١١٩/٣) .

(٥) روح المعاني (٤٤٧/١) .

الله-:"...واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ فقال بعضهم : تأويل ذلك : الله الذي رفع السموات بعمَد لا ترونها...وقال آخرون : بل هي مرفوعة بغير عمد...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال : كما قال الله -تعالى- : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها ، كما قال ربنا -جلّ ثناؤه- . ولا خبر بغير ذلك ، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه . " [(١)]

ففي هذا المثال تلاحظ تفسير الآية على ظاهرها دون التكلف في تحميلها غيره.

قال ابن كثير -رحمه الله- : " روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد ، أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى . وقال إياس بن معاوية[(٢)] : السماء على الأرض مثل القبة ، يعني بلا عمد ، وكذا روي عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله -تعالى- : ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾[الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله : ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تأكيداً لنفي ذلك ، أي : هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة ." [(٣)]

وفي قوله -تعالى- : ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة: ٥٦] قال - رحمه الله -:"يعني بقوله : ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾ : ثم أحييناكم . وأصل البعث : إثارة الشيء من محلّه ، ومنه قيل : بعث فلان راحلته : إذا أثارها من مبركها للسير...ويعني بقوله : ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم ، وقوله : ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ يقول :

---

(١) جامع البيان (٣٢٨/٧-٣٢٩) ، وتحقيق شاكر (٣٢٣/١٦) .

(٢) هو أبو واثلة ، إياس بن معاوية بن قرة المزني الليثي ، قاضي البصرة ، ضرب به المثل في الذكاء والدهاء والسؤدد والعقل ، وثقه ابن معين والذهبي ، وقال الذهبي : قلّما روي عنه ، توفي سنة اثنتين وعشرين ومائة . انظر المعارف صفحة (٤٦٧) ، وحلية الأولياء (١٢٣/٣) ، وشذرات الذهب (١٦٠/١) ، وميزان الاعتدال (٢٨٣/١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٨٠/٢-٤٨١) .

فعلنا بكم ذلك ؛ لتشكروني على ما أوليتكم من نعمتي عليكم ، بإحيائي إياكم استبقاء مني لكم ؛ لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم ، بعد إحلالي العقوبة بكم بالصاعقة التي أحللتها بكم، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذي كان منكم فيما بينكم وبين ربكم . وهذا القول على تأويل من تأوّل قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ ثم أحييناكم . وقال آخرون : [كالسدي] معنى قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ أي : بعثناكم أنبياء...**قال أبو جعفر** : وتأويل الكلام على ما تأوله السدي : فأخذتكم الصاعقة ، ثم أحييناكم من بعد موتكم ، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم ، ثم بعثناكم أنبياء لعلكم تشكرون . وزعم السدي أن ذلك من المقدّم الذي معناه التأخير ، والمؤخّر الذي معناه التقديم...وهذا تأويل يدل ظاهر التلاوة على خلافه ، مع إجماع أهل التأويل على تخطئته . والواجب على تأويل السدي الذي حكيناه عنه أن يكون معنى قوله :﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تشكروني على تصييري إياكم أنبياء ." [1]

وحمل البعث على جعلهم أنبياء ليس هو ظاهر معناه في اللغة ، مع كونه مخالفاً لقول المفسرين ، وإنما الظاهر في البعث بعد الموت : هو إخراج الأموات حقيقة من قبورها إرجاع بعد خروج أرواحها .

(١) جامع البيان (٣٣٠/١) ، وتحقيق شاكر (٨٤/٢) .

المطلب الثاني : ضوابط استعمال الأظهر وحدوده :

بعد بيان نص قاعدة تفسير السياق بالظاهر من الخطاب ، سأعرض ضوابط استعمال الظاهر والتفسير به ، وأن لذلك حدوداً تجعل هذا أولى من غيره ، وأن الظاهر قد يتعدّد ، فيرجح أعلاها مرتبة في الظهور ، ومن هذه الضوابط :

-١- **يقدم المصرح به دون ما لم يجر له ذكر** : فقد يكون المتبادر قد جرى له ذكر في الكلام تصريحاً ، وقد يكون ذكره جرى بالمعنى لا بالتصريح ، فيقدّم المصرّح به في السياق على الذي لم يوجد له ذكر :

ففي قوله -تعالى- : ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾ [المائدة: ٤٥] **قال أبو جعفر** :"...اختلف أهل التأويل في المعني به : ﴿ **فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ** ﴾ **فقال بعضهم** : عُني بذلك المجروحُ وولِيّ القتيل...**وقال آخرون** : عَنَى بذلك الجارحَ ، وقالوا معنى الآية : فمن تصدّق بما وجب له من قَوَدَ أو قصاص على من وجب ذلك له عليه فعفا عنه فعفوه ذلك عن الجاني كفارة لذنب الجاني المجرم ، كما القصاص منه كفارة له ، قالوا : فأما أجر العافي المتصدّق فعلى الله...

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عني بقوله : فمن تصدّق به فهو كفارة له المجروح ، فلأن تكون الهاء في قوله : ﴿ **لَّهُۥ** ﴾ عائدة على : "مَنْ" أولى -من أن تكون مِنْ ذِكْر مَنْ لم يَجْرِ له ذِكْر إلا بالمعنى دون التصريح- وأَحْرى ، إذ الصدقة هي المكفرة ذنب صاحبها ، دون المتصدّق عليه في سائر الصدقات غير هذه ، فالواجب أن يكون سبيل هذه سبيل غيرها من الصدقات"[1].

فالضمير عادة يعود إلى أقرب مذكور -وهو الصريح دون غيره -، والصدقة

---

(١) جامع البيان (٦٠٢/٤) ، وتحقيق شاكر (٣٦٢/١٠) .

تكفِّر ذنب صاحبها ، دون من تُصُدِّقَ بها عليه ، والكفارة من جنس الصدقات ، فثواب التكفير لمن فَعَلها لا لمن فُعِلت له .

-٢ – ومن ضوابط التفسير بالظاهر :

أن يكون المعنى الظاهر مما يفيد المخاطب: ففي قوله –تعالى- : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] **ذكر أبو جعفر – رحمه الله –** اختلافهم في المقرّبَين مَنْ هما ؟ فقال: "...وكان المقرّبان ابني آدم لصلبه أحدهما : هابيل ، والآخر : قابيل[١]...وقال آخرون [كالحسن] : اللذان قرّبا قرباناً وقصّ الله –عزّ ذكره- قصصهما في هذه الآية ، رجلان من بني إسرائيل لا من ولد آدم لصلبه...[٢]

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب ، أن اللذين قرّبا القربان كانا ابني آدم لصلبه ، لا من ذريته من بني إسرائيل . وذلك أن الله – عزّ وجلّ – يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة ، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن تقريب القربان لله لم يكن إلا في ولد آدم دون الملائكة والشياطين وسائر الخلق غيرهم . فإذا كان معلوماً ذلك عندهم ، فمعقول أنه لو لم يكن معنيّاً بـ ﴿ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ اللذَين ذكرهما الله في كتابه ابناه لصلبه ، لم يفدْهم بذكره – جلّ جلاله – إياهما فائدة لم تكن عندهم . وإذْ كان

---

(١) هما ابنا آدم لصلبه ، كان يولد لآدم –عليه السلام – في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قص الله في هذه الآية . انظر المعارف صفحة (١٧-١٨) .

(٢) إسناد هذا القول إلى الحسن ضعيف ، فالراوي عن الحسن عند ابن جرير هو عمرو بن عبيد شيخ القدرية والمعتزلة ، قال حميد : يكذب على الحسن ، وكذا قال ابن عوف ، وقال أحمد : ليس بأهل أن يحدث عنه ، وقال يحيى بن معين : ليس بشيء ، وفي الإسناد أيضا : سهل بن حنيف عن عمرو ، ولم يسمع منه . انظر تهذيب الكمال ١٢٣/٢٢ ، وتاريخ بغداد ١٦٦/١٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٠٤/٦، والإجماع في التفسير للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيري صفحة (٢٩٠) .

غير جائز أن يخاطبهم خطاباً لا يفيدهم به معنى ، فمعلوم أنه عنى بـ ﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ [ابني آدم لصلبه] ، لا بَني بنيه الذين بَعُد منه نسبهم ، مع إجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل على أنهما كانا ابني آدم لصلبه ، وفي عهد آدم وزمانه ، وكفى بذلك شاهداً ." [(١)]

فحين تقرأ الآية تعرف أن المراد من ذكر : ابني آدم أنهما لصلبه ؛ لأن عدم القول بذلك يوحي بأن جملة ﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ لا فائدة منها فهي تحصيل حاصل ؛ لأن من المعلوم أن القربان كان في المكلفين من بني آدم ، وهذا لا يقال به ، أضف إلى ذلك ما ورد في السياق من أن الرجل القاتل لم يعرف كيف يواري سوءة أخيه في قوله -تعالى- عنه : ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

وقد نصّ على ذلك **ابن جرير -رحمه الله- فقال :** " وهذا أيضاً أحد الأدلة على أن القول في أمر ابني آدم بخلاف ما [روي]...عن الحسن ؛ لأن الرجلين اللذين وصف الله صفتهما في هذه الآية ، لو كانا من بني إسرائيل ، لم يجهل القاتل دفن أخيه..." [(٢)]

-٣- ومن ضوابط التفسير بالظاهر : إذا كانت الآية نازلة على معيّن أن ينظر إلى ما يفهمه المعين من ظاهر اللفظ حين إطلاقه :

ففي قوله -تعالى- : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك : **فقال بعضهم:** معناه : انبجس الماء من وجه الأرض ، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ : وهو وجه الأرض...**وقال آخرون:** هو تنوير الصبح ، من قولهم : نوّر الصبح تنويراً...**وقال آخرون :** معنى ذلك: وفار أعلى الأرض وأشْرَفَ مكانٍ فيها بالماء . **وقال :** ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ : أشرف الأرض...**وقال آخرون:** هو التنور

(١) جامع البيان (٤/٥٣٠) ، وتحقيق شاكر (١٠/٢٠٢) .

(٢) جامع البيان (٤/٥٣٧) ، وتحقيق شاكر (١٠/٢٢٤) .

الذي يختبز فيه...وكان ابن عباس يقول في معنى : ﴿وَفَارَ﴾ : نبع...

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله : ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قول من قال : هو التنور الذي يخبز فيه ؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها ، وذلك أنه –جل ثناؤه- إنما خاطبهم بما خاطبهم به ؛ لإفهامهم معنى ما خاطبهم به . ﴿قُلْنَا﴾ لنوح حين جاء عذابنا قومه الذي وعدنا نوحاً أن نعذّبهم به ، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا بيننا وبينه لهلاك قومه ، ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ يعني : في الفلك..." (١)

– ٤ – ومن ضوابط التفسير بالظاهر : أن لا يقال بتقديم الكلام بعضه على بعض إلا أن يمتنع فهمه على ترتيبه : ففي قوله –تعالى- : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥] **قال أبو جعفر** : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : **فقال بعضهم** : معناه : فلا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . **وقال** : معنى ذلك : التقديم وهو مؤخر...عن قتادة قوله : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ﴾ **قال** : هذه من تقاديم الكلام ، يقول : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة...**عن ابن عباس ، قوله** : إنما يريد اللّه لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الآخرة . **وقال آخرون** : بل معنى ذلك : إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، بما ألزمهم فيها من فرائضه...الحسن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **قال** : بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله ...

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا ، التأويل الذي ذكرنا عن الحسن [القول الثاني] ؛ لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل ، فصرف تأويله إلى ما دلّ عليه

(١) جامع البيان (٧/٤٠-٤١) ، وتحقيق شاكر (١٥/٣١٨) .

ظاهره أولى من صرفه إلى باطن لا دلالة على صحته ، وإنما وجه من وجه ذلك إلى التقديم وهو مؤخّر ؛ لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا وجهاً يوجّهه إليه ، وقال : كيف يعذّبهم بذلك في الدنيا ، وهي لهم فيها سرور ، وذهب عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه : إلزامه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيب النفس ، ولا راج من الله جزاء ، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً ، على ضجرٍ منه وكرهٍ ." [1]

فتفسير كلام الله –تعالى– يكون على الترتيب الذي يكون في الآية نفسها ، هذا هو الأصل والقاعدة ، إلا أن يصعب فهمه على هذا النحو فيقال : حينئذٍ بالتقديم والتأخير ، وظاهر الآية تعذيب المنافقين بأموالهم وأولادهم في الدنيا ، فينظر المفسِّر إلى أوجه ذلك التعذيب ، فإن ظهر له وجهٌ قال به ويكون الكلام على ظاهره ، وإلا قال بالتقديم والتأخير –والله أعلم– .

وقد أنكر ابن القيم –رحمه الله– على من قال بالتقديم والتأخير ، وذكر اختيار ابن جرير، ووافقه على أن الكلام على ترتيبه ، ولكنه حمل معنى العذاب على التعب والنصب في طلب الدنيا ؛ لأن العذاب هو الموجع المؤلم الشاق ، ولا أتعب ممن جعل الدنيا أكبر همه .[2]

– ٥ – ومن ضوابط استعمال الظاهر : النظر إلى استعمالات القرآن في مواضع أخرى بعد حمله على الظاهر : ففي قوله –تعالى– : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾ [التكوير: ٥]

قال –رحمه الله– : " اختلف أهل التأويل في معنى قوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾ **فقال بعضهم** : معنى ذلك : ماتت...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك : وإذا الوُحوش اختلطت... وقال آخرون : بل معنى ذلك : جمعت...

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : جمعت فأميتت؛

---

(١) جامع البيان (٦/٣٩٠-٣٩١) ، وتحقيق شاكر (١٤/٢٩٥) .

(٢) انظر إغاثة اللهفان (١/٤٦) وما بعدها .

لأن المعروف في كلام العرب من معنى الحشر : الجمع ، ومنه قول الله : ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾[ص: ١٩] يعني : مجموعة ، وقوله: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣] ، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله ، لا على الأنكر المجهول ." (١)

ولا شكّ أنّ القرآن الكريم تعاد المواعظ فيه والقصص ، فيكون فيها تفسيراً لمبهمها ونحوه ، وله عادات في استعمال بعض الأساليب والألفاظ ، متى ما اعتني بها استفيد منها .

- ٦ - ومن ضوابط استعمال الظاهر : الدلائل اللفظية الدالة عليه :

كما في قوله -تعالى- : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] **قال -رحمه الله-** : " وقوله : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ اختلف أهل الرواية في معنى ذلك : **فقال بعضهم** : معناه : بل للإنسان على نفسه شهود من نفسه ، ولو اعتذر بالقول مما قد أتى من المآثم ، وركب من المعاصي ، وجادل بالباطل...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك : بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة ولو تجرّد...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك : ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب...وقال آخرون : بل معنى ذلك : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ لم تقبل...

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : معناه : ولو اعتذر ؛ لأنّ ذلك أشبه المعاني بظاهر التنزيل ، وذلك أن الله -جل ثناؤه- أخبر عن الإنسان أنّ عليه شاهداً من نفسه ، بقوله : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ فكان الذي هو أولى أن يتبع ذلك ، ولو جادل عنها بالباطل ، واعتذر بغير الحقّ ، فشهادة نفسه عليه به أحقّ وأولى من اعتذاره

(١) جامع البيان (١٢/٤٥٩-٤٦٠) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٢٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية جامع البيان (١/٢٢١) ، وإبراهيم (٩) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[إبراهيم: ٩] الآية جامع البيان (٧/٤٢٣-٤٢٤) ، والنور (٣٦) ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ ﴾ جامع البيان (٩/٣٣٠) .

بالباطل."(١).

وفي هذا المثال يتضح استفادة معنى جديد بالنظر إلى الجملتين المتتابعتين ، فقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ يحمل على اعتذار الإنسان بلسانه ؛ لإثبات الله -عزّ وجلّ- قبل ذلك أن الإنسان شاهد على نفسه في قوله : ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ .

- ٧ - ومن ضوابط استعمال الأظهر في الألفاظ أنه : إذا كان اللفظ له استعمال أغلب حمل عليه دون غيره : ففي قوله -تعالى- : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧ وغيرها] **قال -رحمه الله-** : " يقول -تعالى ذِكْرُه -: ولقد سهّلنا القرآن ، بيّناه وفصّلناه للذكر ، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ ، وهوّناه...وقوله : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقول : فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر . **وقد قال بعضهم في تأويل ذلك** : هل من طالب علم أو خير فيُعان عليه ، وذلك قريب المعنى مما قلناه ، ولكنّا اخترنا العبارة التي عبرناها في تأويله ؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه على ظاهره..." (٢)

وتفسير كلام الله -عزّ وجلّ- على مقتضى ظاهر المعاني ، وأغلب الاستعمالات: يكون في الحروف والكلمات :

-أ- فمثال الظاهر في الحروف : قوله -تعالى- : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦] **قال -رحمه الله-**: " وأمّا قوله : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فإنّ معناه : فلا تعصوا الله فيها ، ولا تحلوا فيهنّ ما حرّم الله عليكم ، فتكسبوا أنفسكم ما لا قبل لها به من

---

(١) جامع البيان (١٢/٣٣٧-٣٣٨) . وانظر مواضع أخرى في : المعارج (١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ جامع البيان (١٢/٢٣٠) ، والمزمل (١) {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} جامع البيان (١٢/٢٧٨) .

(٢) جامع البيان (١١/٥٥٥-٥٥٦) .

سخط الله وعقابه...ثم اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه الهاء والنون في قوله : ﴿فِيهِنَّ﴾ : **فقال بعضهم** : عاد ذلك على الاثني العشر الشهر ، **وقال** : معناه : فلا تظلموا في الأشهر كلها أنفسكم...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك : فلا تظلموا في الأربعة الأشهر الحرم أنفسكم ، والهاء والنون عائدة : على الأشهر الأربعة...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك: فلا تظلموا – في تصييركم حرام الأشهر الأربعة حلالاً وحلالها حراماً – أنفسكم...

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب ، قول من قال : فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظّم حرمتها . وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في تأويله ؛ لقوله : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ﴾ فأخرج الكناية عنه مخرج الكناية عن جمع ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وذلك أن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة إذا كَنَّتْ عنه : فعلنا ذلك لثلاث ليال خلون، ولأربعة أيام بقين ، وإذا أخبرت عما فوق العشرة إلى العشرين ، قالت : فعلنا ذلك لثلاث عشرة خلت ، ولأربع عشرة مضت . فكان في قوله –جل ثناؤه– : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وإخراجه كناية عدد الشهور التي نهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فِيهن مخرج عدد الجمع القليل من الثلاثة إلى العشرة ، الدليل الواضح على : أن الهاء والنون من ذكر الأشهر الأربعة ، دون الاثني العشر ؛ لأن ذلك لو كان كناية عن الاثني عشر شهراً لكان : فلا تظلموا فيها أنفسكم . فإن قال قائل : فما أنكرت أن يكون ذلك كناية عن الاثني عشر ، وإن كان الذي ذكرت هو المعروف في كلام العرب ، فقد علمت أن من المعروف من كلامها إخراج كناية ما بين الثلاث إلى العشر بالهاء دون النون...قيل : إن ذلك وإن كان جائزاً فليس الأصحّ الأعرف في كلامها ، وتوجيه كلام الله إلى الأفصح الأعرف أولى من توجيهه إلى الأنكر . "[1]

---

(١) جامع البيان (٦/٣٦٦-٣٦٧) ، وتحقيق شاكر (١٤/٢٣٧) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ جامع البيان (١/٢٥٢-٢٥٤) ، والأنعام =

-ب- ومثال الظاهر في الكلمات : قوله -تعالى- : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يس: ٢٨] **قال -رحمه الله-**:"...واختلف أهل التأويل في معنى الجند الذي أخبر الله أنه لم ينزل إلى قوم هذا المؤمن بعد قتلهموه : **فقال بعضهم** : [كمجاهد] عُني بذلك : أنه لم ينزل الله بعد ذلك إليهم رسالة ، ولا بعث إليهم نبيّاً...**وقال آخرون** : بل عُني بذلك : أن الله -تعالى ذِكْرُه -لم يبعث لهم جنوداً يقاتلهم بها؛ ولكنه أهلكهم بصيحة واحدة...

وهذا القول الثاني أولى القولين بتأويل الآية ، وذلك أن الرسالة لا يقال لها : جند ؛ إلا أن يكون أراد مجاهد بذلك : الرّسُل ، فيكون وجهاً ، وإن كان أيضاً من المفهوم بظاهر الآية بعيداً ، وذلك أن الرسُل من بني آدم لا ينزلون من السماء ، والخبر في ظاهر هذه الآية عن أنه لم ينزل من السماء بعد مَهْلِك هذا المؤمن على قومه جنداً ، وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم ." (١)

وهذا المثال واضح في صرف معنى : الجند الذين نفى الله نزولهم ، من : بني آدم ، إلى الملائكة بسبب التعبير عن وصولهم إلى المكلفين بالإنزال وهو ظاهر في الملائكة ، أما البشر فلا ينزلون ، بل يرسلون ويبعثون .(٢)

=

(٢٨) ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾الآية جامع البيان (١٧٥/٥) ، وطه (١٤) ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ جامع البيان (٤٠٠/٨-٤٠١) ، والمؤمنون (٦١) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ جامع البيان (٢٢٦/٩) .

(١) جامع البيان (٤٣٧/١٠-٤٣٨) .

(٢) وقد كان تقديم الظاهر في التفسير كثيراً جداً ، ومنه في : آل عمران (١٧) ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ جامع البيان (٢٠٨/٣-٢٠٩) ،و(٢٨) ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٩/٣) ، و(١١٣) ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ جامع البيان (٤٠٢/٣) ، والنساء (٤٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ الآية جامع البيان
=

=

(١٢٦/٤) ، و(١٠٥) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٩/٤-٢٧٠) ، و(١١٧) ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ الآية جامع البيان (٢٧٩/٤-٢٨٠) ، و(١٣٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية جامع البيان (٣٢٣/٤) ، و(١٥٣) ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية جامع البيان (٣٤٦/٤) ، والمائدة (١١٤) ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ الآية جامع البيان (١٣٢/٥-١٣٣) ، والأنعام (٦٥) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ الآية جامع البيان (٢١٨/٥) ، و(١٤١) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٩/٥) ، والأعراف (٢) ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الآية جامع البيان (٤٢٦/٥) ، و(٣) ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الآية جامع البيان (٤٢٧/٥) ، و(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ جامع البيان (٤٢٧/٥) ، و(٤٦) ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٥٠١/٥-٥٠٢) ، و(١٠١) ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ الآية جامع البيان (١٢/٦-١٣) ، والتوبة (٣) ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الآية جامع البيان (٣١٦/٦-٣١٧) ، و(٤٧) ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٣٨٤/٦-٣٤٩) ، و(١٢٢) ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ الآية جامع البيان (٥١٦/٦-٥١٧) ، وهود (٤٣) ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ الآية جامع البيان (٤٥/٧-٤٦) ، و(١٠٨) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ الآية جامع البيان (١١٨/٧) ، ويوسف (٨٠) ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ الآية جامع البيان (٢٦٩/٧-٢٧٠) ، و(٨٨) ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ الآية جامع البيان (٢٨٩/٧-٢٩٠) ، وإبراهيم (٤٨) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ جامع البيان (٤٨٢/٧-٤٨٣) ، والحجر (٢٠) ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ جامع البيان (٥٠٢/٧-٥٠٣) والنحل (٢٦) ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ جامع البيان (٥٧٧/٧-٥٧٨) ، والإسراء (١) ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الآية جامع البيان (٥/٨-٦) ، و(١٦) ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ جامع البيان (٥٢/٨-٥٣)، و(٣٦) ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

=

وقد يكون المعنى الظاهر الذي حمل عليه النص : قاعدة أصولية في فهم النص: كالأمر للوجوب : ففي قوله -تعالى- : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا

= بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ الآية جامع البيان (٨/٨٠-٨١) ، و(٧١) ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ الآية جامع البيان (٨/١١٥-١١٦)، والكهف (١٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٨/٢٠٢-٢٠٣) ، و(٨٢) ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ الآية جامع البيان (٨/٢٦٨-٢٦٩) ، ومريم (٦٤) ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية جامع البيان (٨/٣٦٠-٣٦١) ، وطه (٨) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ جامع البيان (٨/٣٩٤-٣٩٥) ، و(١٥) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ الآية جامع البيان (٨/٤٠٤) ، والحج (٤٠) ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الآية جامع البيان (٩/١٦٥-١٦٦) ، و(٧٨) ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ الآية جامع البيان (٩/١٩١) ، والنور (٦١) ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية جامع البيان (٩/٣٥٢-٣٥٤) ، والشعراء (٢١٨-٢١٩) ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ جامع البيان (٩/٤٨٥-٤٨٧) ، والنمل (٦٦) ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ جامع البيان (١٠/٨-٩)، ولقمان (٦) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ الآية جامع البيان (١٠/٢٠٢) ، والسجدة (٥) ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ جامع البيان (١٠/٢٣٢) ، و(٧) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ جامع البيان (١٠/٢٣٤)،ويس (٥٢) ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ الآية جامع البيان (١٠/٤٥١-٤٥٢) ، والجاثية (٢٣) ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ الآية جامع البيان (١١/٢٦٢) ، والذاريات (١٧) ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ جامع البيان (١١/٤٥٤-٤٥٥) ، والواقعة (١٧) ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ جامع البيان (١١/٦٢٨-٦٢٩) ، و(٧٥) ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ جامع البيان (١١/٦٥٨) ، و(٨٩) ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ جامع البيان (١١/٦٦٧) ، والقيامة (٢) ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ جامع البيان (١٢/٣٢٧) ، والإنسان (٢٧) ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ جامع البيان (١٢/٣٧٤) ، والأعلى (٦-٧) ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ الآيتين جامع البيان (١٢/٥٤٥) ، والفجر (٧) ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ جامع البيان (١٢/٥٦٨) ، و(١٠) ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ جامع البيان (١٢/٥٧١) ، والمسد (٤) ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ جامع البيان (١٢/٧٣٦-٧٣٧) .

تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور: ٣٣] قال -رحمه الله-:"...واختلف أهل العلم في وجه مكاتبة الرجل عبده الذي قد علم فيه خيراً ، وهل قوله : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ على وجه الفرض ؟ أم هو على وجه الندب؟. **فقال بعضهم** : فرض على الرجل أن يكاتب عبده الذي قد علم فيه خيراً إذا سأله العبد ذلك...وقال آخرون : ذلك غير واجب على السّيّد ، وإنما قوله : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ : نَدْب من الله سادَةَ العبيد إلى كتابة من علم فيه منهم خير لا إيجاب...**قال مالك بن أنس**: الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، و لم أسمع بأحد من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . وقد سمعت بعض أهل العلم إذا سُئل عن ذلك فقيل له : إن الله -تبارك وتعالى -يقول في كتابه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ يتلو هاتين الآيتين : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾[المائدة: ٢] ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] **قال مالك** : فإنّما ذلك أمر أذِن الله فيه للناس ، وليس بواجب على الناس ولا يلزم أحداً . **وقال الثوريّ** : إذا أراد العبد من سيّده أن يكاتبه ، فإن شاء السّيّد أن يكاتبه كاتبه ، ولا يُجْبر السّيّد على ذلك...

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : واجب على سيد العبد أن يكاتبه إذا علم فيه خيراً ، وسأله العبد الكتابة ، وذلك أن ظاهر قوله : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ ظاهر أمر ، وأمر الله فرضٌ الانتهاء إليه ، ما لم يكن دليلٌ من كتاب أو سنة على أنه ندب..." (١).

ثم **قال -رحمه الله-**: " وقوله : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[النور: ٣٣] يقول -تعالى ذِكْرُه -: وأعطُوهم من مال الله الذي أعطاكم . ثم اختلف أهل التأويل في المأمور بإعطائه من مال الله الذي أعطاه : مَنْ هو ؟ . وفي المال : أيّ الأموال هو ؟ . فقال بعضهم: الذي أمر الله بإعطاء المكاتب من مال الله هو مولَى العبد المكاتَب ، ومال الله الذي أُمر

---

(١) جامع البيان (٣١٢/٩-٣١٣) .

بإعطائه منه هو مال الكِتابة ، والقدر الذي أمر أن يعطيه منه الربع . **وقال آخرون** : بل ما شاء من ذلك المولى...وقال آخرون : بل ذلك حضّ من الله أهل الأموال على أن يعطوهم سهمهم الذي جعله لهم من الصدقات المفروضة لهم في أموالهم بقوله : ﴿**إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ**﴾ [التوبة: ٦٠] **قال** : فالرّقاب التي جعل فيها أحد سُهْمان الصدقة الثمانية هم المكاتَبون ، **قال** : وإياه عنى -جل ثناؤه- بقوله : ﴿**وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ**﴾ : أي : سَهمْهم من الصدقة...

وأولى القولين بالصواب في ذلك عندي : القول الثاني ، وهو قول من قال : عَنَى به إيتاءَهم سهمهم من الصدقة المفروضة . وإنما قلنا ذلك أولى القولين ؛ لأن قوله : ﴿**وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ**﴾ أمر من الله – تعالى ذِكْرُه – بإيتاء المكاتَبين من ماله الذي آتى أهل الأموال ، وأمر الله فرض على عباده الانتهاءُ إليه ، ما لم يخبرهم أن مراده الندْب..." [(١)]

وكما هو واضح من المثالين المتتاليين أن سبب الترجيح هنا قاعدة أصولية معلومة من خطابات الشارع بالاستقراء والتتبع ، وهذه القاعدة صارت ظاهر خطابات الشارع الحكيم ، والأدلة على أن الأمر للوجوب كثيرة [(٢)]، فإذا ورد أمر في خطاب فالواجب والأصل حمله على الوجوب ؛ لأنه الظاهر ، إلا إذا دل الدليل على صرفه عنه إلى الاستحباب أو الإباحة .

– ٨ – ومن ضوابط استعمال الظاهر اللفظية : إذا كان اللفظ الظاهر عامّاً فلا يجوز لأحد تخصيصه إلا بدليل : ففي قوله -تعالى- : ﴿**لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ**

---

(١) جامع البيان (٩/٣١٥-٣١٧) .

(٢) ومن الأدلة على أن الأمر إذا أطلق فهو للوجوب : قول الله تعالى : ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣] فالأمر مطلق ، والتحذير بالفتنة والعذاب الأليم ، دال على وجوب فعل الأمر . انظر الأصول من علم الأصول لابن عثيمين صفحة (١٦) الطبعة الثالثة لجامعة الإمام ١٤٠٥هـ .

رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٨٩] **قال أبو جعفر**:"...اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله : ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ على ما هي عائدة ، ومن ذكر ما ؟ فقال بعضهم : هي عائدة على "ما" التي في قوله : ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ ...

قال أبو جعفر : فمعنى الكلام على هذا التأويل : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارة ما عقدتم منها : إطعام عشرة مساكين . وقال آخرون : الهاء في قوله : ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ عائدة على اللغو ، وهي كناية عنه . قالوا : وإنما معنى الكلام : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم إذا كفرتموه ، ولكن يؤاخذكم إذا عقدتم الأيمان ، فأقمتم على المضيّ عليه بترك الحنث والكفارة فيه ، والإقامة على المضيّ عليه غير جائزة لكم ، فكفّارة اللغو منها إذا حنثتم فيه : إطعام عشرة مساكين...

قال أبو جعفر : والذي هو أولى عندي بالصواب في ذلك : أن تكون الهاء في قوله: ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾ عائدة على "ما" التي في قوله : ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ ؛ لما قدّمنا فيما مضى قبل أن من لزمته في يمينه كفارة وأوخذ بها ، غير جائز أن يقال لمن قد أوخذ : لا يؤاخذه الله باللغو ، وفي قوله –تعالى– : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ دليل واضح أنه لا يكون مؤاخذ بوجه من الوجوه من أخبرنا –تعالى ذِكْرُه –أنه غير مؤاخذه . فإن ظنّ ظانّ أنه إنما عنى –تعالى ذِكْرُه –بقوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ بالعقوبة عليها في الآخرة إذا حنثتم وكفّرتم ، إلا أنه لا يؤاخذهم بها في الدنيا بتكفير، فإن إخبار الله –تعالى ذِكْرُه –وأمره ونهيه في كتابه : على الظاهر العامّ عندنا...دون الباطن العامّ الذي لا دلالة على خصوصه ، في عقل ، ولا خبر ، ولا دلالة من عقل ولا خبر ، أنه عنى –تعالى ذِكْرُه –بقوله: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ بعض معاني المؤاخذة دون جميعها . وإذ كان ذلك كذلك، وكان من لزمته كفارة في يمين حنث فيها مؤاخذاً بها بعقوبة في ماله عاجلة ، كان معلوماً أنّه غير

الذي أخبرنا –تعالى ذِكْرُه –أنه لا يؤاخذه بها." (١).

فتحديد اليمين التي فيها كفارة بيمين اللغو مخالف لظاهر الآية التي فيها نفي المؤاخذة، ولا شك أن الكفارة إذا قيل بلزومها في لغو اليمين فهي مؤاخذة مثبتة لا منفية ، وهذه المؤاخذة مطلقة فلا يصح تخصيص عدم المؤاخذة في الدار الآخرة وإثبات المؤاخذة في الدنيا بغير دليل على هذا التخصيص ؛ لأنه لفظ عام ظاهر ، والتخصيص خلاف الظاهر .

– ٩ – ومن ضوابط استعمال الأظهر : إذا قيل بأن هذا القول في الآية هو الأظهر فلا يعني أن غيره يكون بالضرورة خطأً ، وإنما له حظٌّ من النظر ووجه في القبول والصحة: ففي قوله –تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور: ٢١] **قال –رحمه الله–** : " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : **فقال بعضهم** : معناه : والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّياتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذرّياتهم المؤمنين في الجنة ، وإن كانوا لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم ، تكرمة لآبائهم

(١) جامع البيان (١٧/٥) ، وتحقيق شاكر (٥٢٥/١٠) . وانظر مواضع أخرى في : المائدة (٩٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ﴾ الآية جامع البيان (٤٤/٥) ، والأنعام (٣٩) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ﴾ الآية جامع البيان (١٨٧/٥–١٨٨) ، و(١٥١) ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الآية جامع البيان (٣٩١/٥–٣٩٢)، والأعراف (١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ الآية جامع البيان (٧٠/٦–٧١)، و(١٥٨) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الآية جامع البيان (٨٨/٦) ، و(١٧٥) ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ جامع البيان (١٢١/٦–١٢٢) ، و(١٨٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ﴾ الآية جامع البيان (١٤٣/٦–١٤٤) ، والأنبياء (٣١) ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ جامع البيان (٢٢/٩) ، والفرقان (٢٤) ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ جامع البيان (٣٨٢/٩) ، والسجدة (١٦) ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ جامع البيان (٢٣٩/١٠–٢٤٠) .

المؤمنين ، وما ألتنا[1] آباءهم المؤمنين من أجور أعمالهم من شيء...**وقال آخرون** : بل معنى ذلك : والذين آمنوا وأتبعناهم ذرّيّاتهم التي بلغت الإيمان بإيمان ، ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار التي لم تبلغ الإيمان ، وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء...وقال آخرون نحو هذا القول ، غير أنهم جعلوا الهاء والميم في قوله : ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ من ذكر الذرّيّة ، والهاء والميم في قوله : ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الثانية من ذكر الذين . وقالوا : معنى الكلام : والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم الصغار ، وما ألتنا الكبار من عملهم من شيء... **وقال آخرون** : بل معنى ذلك : الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ فأدخلناهم الجنة بعمل آبائهم ، وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء...وقال آخرون : إنما عني بقوله : ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2]: أعطيناهم من الثواب ما أعطينا الآباء...

وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ عليه ظاهر التنزيل...: والذين آمنوا بالله ورسوله ، وأتبعناهم ذرياتهم الذين أدركوا الإيمان بإيمان ، وآمنوا بالله ورسوله ، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان فآمنوا في الجنة ، فجعلناهم معهم في درجاتهم ، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم ، تكرمة منا لآبائهم ، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئاً . وإنما قلت : ذلك أولى التأويلات به ؛ لأن ذلك الأغلب من معانيه ، وإن كان للأقوال الأُخر وجوه ." [3].

فقضية الظاهر لا شك أنها مقوية للقول ، ولكن يبقى للأدلة الأخرى حظها ووجهتها في مواضع أخرى ، مما يعني احتمال رجحانها ، وسيأتي قريباً الحديث عن ترك

---

(١) أي : ما أنقصنا ، بمعنى أن الله –عز وجل– أدخل الأبناء بفضيلة الآباء ، وما أنقص الآباء من أجورهم شيئاً . انظر تفسير غريب القرآن لابن الملقن ، صفحة (٤١١) ، تحقيق سمير طه المجذوب .

(٢) قرأ بالجمع بألف وكسر التاء أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب ، وقرأ بالإفراد بدون ألف ورفع التاء : ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف . انظر كتاب السبعة في القراءات صفحة (٦١٢) ، والمبسوط في القراءات العشر صفحة (٣٥١).

(٣) جامع البيان (١١/٤٨٧-٤٨٩) .

الظاهر لأسباب عديدة ، منها على سبيل المثال : إجماع المفسرين على القول بغير الظاهر .

- ١٠ – **ومن ضوابط استعمال الظاهر** : أن الظاهر قد يحتمل أقوالاً عديدة : ففي قوله –تعالى– : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] **قال –رحمه الله–**:"...ثم اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى اللّهُ بها إبراهيمَ نبيّه وخليلَهُ – صلوات الله عليه –، **فقال بعضهم** : هي شرائع الإسلام ، وهي ثلاثون سهماً...**وقال آخرون** : هي خصال عشرٌ من سنن الإسلام...**وقال بعضهم** : بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال ، بعضهنّ في تطهير الجسد ، وبعضهنّ في مناسك الحجّ... **وقال آخرون** : بل ذلك : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ في مناسك الحجّ...[وروي] عن أبي صالح مولى أم هانىء في قوله : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ قال منهن : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، ومنهن آيات النسك : **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ}**[البقرة : ١٢٧]...[وقال] مجاهد في قوله : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال الله لإبراهيم : إني مبتليك بأمرٍ ، فما هو ؟ قال : تجعلني للناس إماماً . قال : نعم . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين . قال : تجعل البيت مثابة للناس ، قال : نعم . [قال:] وأمْناً ، قال : نعم .[قال :] وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك ، قال : نعم . [قال :] وترينا مناسكنا وتتوب علينا ، قال : نعم . قال : وتجعل هذا البلد آمناً ، قال : نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم ، قال: نعم...[وقال] مجاهد : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال : ابتلي بالآيات التي بعدها : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ...[وقال] **الربيع في قوله** : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ فالكلمات : ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، وقوله : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[البقرة: ١٢٥] ، وقوله : ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ ﴾ [البقرة: ١٢٥] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [البقرة: ١٢٧] الآية ، قال : فذلك كلّه من الكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم...] **وقال آخرون** : بل ذلك مناسك الحجّ

خاصة...**وقال آخرون** : هي أمور منهن الختان...**وقال آخرون** : بل ذلك الخلال الستّ : الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، التي ابتلي بهنّ فصبر عليهنّ...**وقال آخرون**...عن السّديّ : الكلمات التي ابتلى بهنّ إبراهيم ربه : ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إنّ الله – عزّ وجلّ– أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه ، وأمره أن يعمل بهنّ فأتمهنّ ، كما أخبر الله –جل ثناؤه– عنه أنه فعل . وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل الكلمات ، وجائز أن تكون بعضه ؛ لأن إبراهيم –صلوات الله عليه – قد كان امتُحن فيما بلغنا بكل ذلك ، فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأَمْره الواجب عليه فيه . وإذ كان ذلك كذلك ، فغير جائز لأحد أن يقول : عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء ، ولا عنى به كل ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها ، من خبر عن الرسول– ﷺ –، أو إجماع من الحجة ، و لم يصحّ فيه شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته...ولو قال قائل في ذلك: إن الذي قاله مجاهد ، وأبو صالح ، والربيع بن أنس ، أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهباً ؛ لأن قوله : ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾، وقوله : ﴿**وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ**﴾ ، وسائر الآيات التي هي نظير ذلك ، كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلي بهنّ إبراهيم ." (١)

– ١١ – ومن ضوابط استعمال الأظهر : قد يكون القولان في الآية وجهين محتملين ، ويذكر لأحدهما سياق الآية دليلاً ، ويبقى للقول الآخر حظ من النظر :

ففي قوله –تعالى– : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا**

---

(١) جامع البيان (١/٥٧٥-٥٧٦) ، وتحقيق شاكر (٣/٧) .

عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٠] قال -رحمه الله-: " يعني بذلك -جلّ ثناؤه- : وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، فإن الله لا يبخس أحداً من خلقه أنفق في سبيله مما رزقه من ثواب نفقته في الدنيا ، ولا من أجرها يوم القيامة . ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي : ما يزنها ويكون على قدر ثقلها في الوزن ، ولكنه يجازيه به ويثيبه عليه . كما :...[روى عن] قتادة أنه تلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ قال : لأن تفضل حسناتي في سيئاتي بمثقال ذرّة أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها...وبنحو الذي قلنا في ذلك صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ ...[حيث] قال : « إنّ اللّهَ لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يُثابُ عَلَيْها الرّزْقَ فِي الدّنْيا وُيجْزَى بها فِي الآخِرَةِ ، وأمّا الكافِرُ فَيُطْعَمُ بها فِي الدّنْيا ، فإذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ لَمْ تَكُنْ لَه حَسَنَةً »[(١)] ... **وقال آخرون في ذلك**...[كابن مسعود-رضي الله عنه-] : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ، ثم نادى مناد من عند الله : « ألا من كان يطلب مظلمة، فليجئ إلى حقه فليأخذه! » قال : فيفرح -والله- المرء أن يذوب[(٢)] له الحقّ على والده أو ولده أو زوجته ، فيأخذ منه وإن كان صغيراً . ومصداق ذلك في كتاب الله -تبارك وتعالى -: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيقال له : « ائت هؤلاء حقوقهم » أي : أعطهم حقوقهم . فيقول : أي ربّ من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله لملائكته : أي ملائكتي : انظروا في أعماله الصالحة ، وأعطوهم منها ! . فإن بقي مثقال ذرة من حسنة ، قالت الملائكة -وهو أعلم بذلك منها-: يا ربنا أعطيْنا كلّ ذي حقّ حقه ، وبقي له مثقال ذرّة من حسنة . فيقول للملائكة : ضعّفوها لعبدي ، وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة! . ومصداق ذلك في كتاب الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ : أي : الجنة يعطيها ، وإن فنيت حسناته وبقيت

---

(١) ورد نحوه عند مسلم في صحيحه وغيره ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ، حديث (٢٨٠٨) (٢١٦٢/٤) .

(٢) يذوب أي : يثبت .

سيئاته ، قالت الملائكة –وهو أعلم بذلك-: إلهنا فنيت حسناته وبقي سيئاته، وبقي طالبون كثير! . فيقول الله : ضعّفوا عليها من أوزارهم ، واكتبوا له كتاباً إلى النار!. قال صدقة[1]: « أو صكّاً إلى جهنم » ، شكّ صدقة أيتهما قال[2]...**قال أبو جعفر**: فتأويل الآية على تأويل عبد الله هذا : إن الله لا يظلم عبداً وجب له مثقال ذرّة – قِبَل عبدٍ له آخر في معاده ويوم لقائه – فما فوقه ، فيتركه عليه فلا يأخذه للمظلوم من ظالمه ؛ ولكنه يأخذه منه له ، ويأخذ من كل ظالم لكل مظلوم تَبِعَتَهُ قِبَلَهُ . ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا**﴾ يقول: وإن توجد له حسنة يضاعفها ، بمعنى : يضاعف له ثوابها وأجرها . ﴿**وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا**﴾ يقول : ويعطه من عنده أجراً عظيماً . والأجر العظيم : الجنة على ما قاله عبد الله ، ولكلا التأويلين وجه مفهوم،أعني التأويل الذي قاله ابن مسعود ، والذي قاله قتادة . وإنما اخترنا التأويل الأوّل ؛ لموافقته الأثر عن رسول الله – ﷺ – مع دلالة ظاهر التنزيل على صحته ، إذ كان في سياق الآية التي قبلها ، التي حثّ الله فيها على النفقة في طاعته ، وذمّ النفقة في طاعة الشيطان ، ثم وصل ذلك بما وعد المنافقين في طاعته بقوله : ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا**﴾ ." [3]

---

(١) هو صدقة بن أبي سهل ، ترجم في تعجيل المنفعة ولم يذكر فيه جرحاً فهو ثقة . انظر تعجيل المنفعة صفحة (١٢٥) ، وتحقيق شاكر (٣٦٣/٨) .

(٢) ورد في الإسناد أبو عمرو ، قال : الشيخ أحمد شاكر بمعناه : ولم أتمكن من التعرّف عليه بالتحديد ، وقد نقل ابن كثير إسناد ابن أبي حاتم وهو : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن عنترة عن عبد الله ابن السائب قال : سمعت زاذان يقول، قال عبد الله بن مسعود...، وهذا الإسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ، ومثل هذا له حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال فيه بالرأي ، وابن مسعود لا يأخذ عن أهل الكتاب ، ولا يقبل الإسرائيليات انظر تحقيق شاكر (٣٦٣/٨-٣٦٤) ، وقال ابن كثير بعد ذكره ، وبعد ذكر إسناد ابن جرير : " ولبعض هذا الأثر شاهد في الصحيح". انظر تفسير القرآن العظيم (٤٧١/١) .

(٣) جامع البيان (٩١/٤-٩٣) ، وتحقيق شاكر (٣٥٩/٨) . وانظر مواضع أخرى في المائدة (٨٣) ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ**﴾ الآية جامع البيان (٧/٥-٨) ، والرحمن (٣) ﴿**خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ**﴾ جامع البيان (٥٧٢/١١) .

فكلا القولين له وجه ، ولكن أحدهما : اجتمع لـــه ظـــاهر اللفـــظ ، وموافقـــة الحـــديث النبوي ، وسياق الآية ، فكان أولى .

وهناك ما توقّف الإمام -رحمه الله- في حمله على أحـــد مـــا يحتملـــه ظـــاهر الكـــلام :

ففي قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ [الرحمن: ٣] **قال -رحمه الله-** : " يقـــول -تعـــالى ذِكْـــرُه -: خلـــق آدم وهو الإنسان في قول بعضهم...وقال آخرون : بل عنى بذلك النـــاس جميعـــاً ، وإنمـــا وحّـــد في اللفظ؛ لأدائه عـــن جنســـه ، كمـــا قيـــل : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾ [العصـــر: ٢] والقـــولان كلاهما غيـــر بعيدين من الصواب ؛ لاحتمال ظاهر الكلام إياهما ." (١)

فهذه الضوابط وغيـــرها : تظهر أن تحديد الظاهر في الســـياق يعـــني أنـــه الأولى ، ولكـــن مع مراعاة حال المخاطب ، وما يفيده الخطـــاب ، ومراعـــاة ترتيـــب الكـــلام علـــى ســـياقه دون تقديم ولا تأخيـــر ، وحمل معنى اللفـــظ علـــى الأغلـــب مـــن معانيـــه في الاســـتعمال ، وهـــذه الأولوية ليست مطلقة ، بل قد تحتمل الأوجه الأخـــرى التـــــرجيح ، وقـــد تـــدخل جميعهـــا في المعنى ؛ لأنه لا مرجّح لأحدها على الآخر ، ولكن كلما قـــوي جانـــب أحـــد الأقـــوال بمجمـــوع أدلته فاق الأقوال الأخرى قوة . -والله أعلم-.

---

(١) جامع البيان (٥٧٢/١١) .

المطلب الثالث : أحوال يتـــرك فيها القول بالظاهر في التفسيـــر :

سبق الحديث عن وجوب استعمال الظاهر في فهـــم كـــلام الله -عـــزّ وجـــلّ -، ولكـــن هناك حالات يتـــرك القول فيها بالظاهر في الآية ؛ لأدلة أقوى ، وقد نـــص علـــى ذلـــك الإمـــام الطبري -رحمه الله-في مواضع : منها :

قولـــه -تعـــالى- : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقـــرة: ٦٦]

قال -رحمه الله-: معقِّباً على قولٍ :"...وأمّا الذي قـــال في تأويـــل ذلـــك: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ يعـــني : الحيتان ، عقوبة لما بين يدي الحيتان من ذنوب القوم وما بعـــدها مـــن ذنـــوبهم ، فإنـــه أبْعَـــدَ في الانتزاع ، وذلك أن الحيتان لم يجر لها ذكر فيقال : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ فإن ظـــنّ ظـــانّ أن ذلـــك جـــائز وإن لم يكن جرى للحيتان ذكر ؛ لأن العرب قد تكني عن الاسم و لم يجر له ذكـــر ، فـــإن ذلـــك وإن كان كذلك ، فغيـــر جائز أن يتـــرك المفهوم من ظاهر الكتـــاب ، والمعقـــول بـــه ظـــاهرٌ في الخطاب والتنـــزيل إلى باطن لا دلالة عليه من ظاهر التنـــــزيل ، ولا خـــبر عـــن الرســـول -ﷺ- منقول ، ولا فيه من الحجة إجماع مستفيض..." (١)

فقد نص الإمام الطبري -رحمه الله - في هـــذا الموضـــع علـــى بعـــض الأدلـــة الـــتي يتـــرك الظاهر لها وهي :

١- إذا دل دليل من النص القرآني على أن هذا الظـــاهر غيـــــر مقصـــود ، وهـــو دليـــل من سياق الكلام ، أوفهمٌ لاستعمالات العرب .

٢- إذا دل الحديث النبوي الصحيح علـــى أن المعـــنى غيـــــر مـــا يظهـــر في الكـــلام ، والسنة هي المفسرة والموضحة للقـــرآن كمـــا قـــال -تعـــالى- : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٤] .

---

(١) جامع البيان (٣٧٦/١-٣٧٧) ، وتحقيق شاكر (١٨٠/٢) .

٣-إذا أجمع العلماء على قول دون غيره [١]، وقد قال النبي - ﷺ - : "...سألت الله -عزّ وجلّ- أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها .." الحديث . [٢]

وكذلك نصّ الإمام الطبري -رحمه الله-: على أسباب أخرى منها :

٤- الضرورة أو الحاجة الماسة : فهي سبب الانتقال من الظاهر إلى غيره : **قال -رحمه الله-** : " ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام ، المستعمل في ألسن العرب ، دون الأقلّ ما وجد إلى ذلك سبيل ، و لم يضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد،فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفيّ من الكلام والمعاني ."[٣]

٥- تـرك الظاهر والأخذ بالخفيِّ من المعاني إذا حسُن كما في المثل لا الخبر :

والمثل في قوله -تعالى- :﴿**أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾**﴾ [النور: ٤٠] **قال -رحمه الله -** : " فإن قال لنا قائل : وكيف قيل : لم يكد يراها ، مع شدّة هذه الظلمة التي وصف ، وقد علمت أن قول القائل : لم أكد أرى فلاناً ، إنما هو إثبات منه لنفسه رؤيته

---

(١) انظر موضعاً آخر نص فيه على هذه الأشياء في : آل عمران (٢٠٠) ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾** ﴾ الآية جامع البيان (٣/٥٦٣) .

(٢) رواه أحمد بهذا اللفظ عن أبي بصرة (٦/٣٩٦) حديث (٢٧٢٦٧) ، وبألفاظ أخرى عند أبي داود عن أبي مالك الأشعري في كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤/٤٥٢) حديث (٤٢٥٣) ، وابن ماجه عن أنس ، في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٢/١٣٠٣) حديث (٣٩٥٠)، والترمذي عن ابن عمر ، في كتاب الفتن ، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٠٥) حديث (٢١٦٧) ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وروى الدارمي في المقدمة عن عمرو بن قيس نحوه "ولا يجمعهم على ضلالة " باب ما أعطي النبي -ﷺ- من الفضل (١/٤٢) حديث (٥٤) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي مالك الأشعري (٣/٢٩٢) حديث (٣٤٤٠) ، وقال الزركشي في المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر صفحة (٦٢) : " واعلم أن طرق هذا الحديث كثيرة ، ولا يخلو من علة ، وأوردت منها طائفة ؛ليتقوى بعضها ببعض"،وصححه الألباني:في آداب الزفاف صفحة (١٦٨) .

(٣) جامع البيان (٣/٢٤٩) عند الآية (٣٩) ﴿ **فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾** ﴾ الآية .

بعد جهد وشدّة ، ومن دون الظلمات التي وصف في هذه الآية ما لا يرى الناظر يده إذا أخرجها فيه ، فكيف فيها ؟. قيل : في ذلك أقوال نذكرها ، ثم نخبر بالصواب من ذلك : أحدها : أن يكون معنى الكلام : إذا أخرج يده رائياً لها لم يكد يراها ، أي : لم يعرف من أين يراها . والثاني : أن يكون معناه : إذا أخرج يده لم يرها ، ويكون قوله : ﴿لَمْ يَكَدْ﴾ في دخوله في الكلام ، نظير دخول الظنّ فيما هو يقين من الكلام ، كقوله : ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨] ونحو ذلك . والثالث : أن يكون قد رآها بعد بطء وجهد ، كما يقول القائل لآخر: ما كدت أراك من الظلمة ، وقد رآه ، ولكن بعد إياس وشدة . وهذا القول الثالث : أظهر معاني الكلمة من جهة ما تستعمل العرب «أكاد» في كلامها . والقول الآخر الذي قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يرها : قول أوضح من جهة التفسير ، وهو أخفى معانيه . وإنما حسُنَ ذلك في هذا الموضع ، أعني أن يقول: لم يكد يراها مع شدة الظلمة التي ذكر؛لأن ذلك مَثَل لا خبر عن كائن كان...".(١)

وإليك بعض من أمثلة ترك الظاهر للحديث النبوي ، أو إجماع المفسرين ، أو كثرة القائلين :

بعد عرض الأسباب التي يترك الظاهر لغيره عند الإمام الطبري–رحمه الله-: سأمثل على ترك الظاهر للحديث النبوي ، أو لإجماع المفسرين أو لكثرة القائلين ، يترك السياق من أجل الحديث النبوي إذا كان صحيحاً فقط :

ففي قوله –تعالى- : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢] **قال أبو جعفر** : "...واختلف في قوله : ﴿شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ **فقال السّدي** : هو خبرٌ من الله عن نفسه وملائكته ، أنه –جلّ ثناؤه –قال هو وملائكته ، إذ أقرّ بنوا آدم بربوبيته حين قال لهم : ألست بربكم ؟ . فقالوا : بلى . فتأويل الكلام على هذا

(١) جامع البيان (٣٣٦/٩) .

التأويل : وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ . قالوا : بلى . فقال الله وملائكته : شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . وقد ذكرت الرواية عنه [أي : السدي] بذلك فيما مضى [وهي قوله : وذلك حين يقول–تعالى ذِكْرُه-: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣] ، وذلك حين يقول : ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩] يعني : يوم أخذ منهم الميثاق ، ثم عرضهم على آدم -عليه السلام-] والخبر الآخر الذي رُوي عن عبد الله بن عمرو [1] عن النبيّ - ﷺ - بمثل ذلك [قال : «أخِذُوا مِنْ ظَهْره كمَا يُؤْخَذُ بالمِشْطِ مِنَ الرأس ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ ، قالَتِ المَلائِكَةُ : ﴿شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [2]] وقال آخرون : ذلك خبر من الله عن قيل بعض بني آدم لبعض ، حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقالوا: معنى قوله: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك...

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك بالصواب : ما رُوي عن رسول الله – ﷺ–

---

(١) هو عبد الله بن بن عمرو بن العاص السهمي القرشي ، هو وأبوه صحابيان ، أسلم قبل أبيه ، كان اسمه العاص فغيّره النبي –ﷺ– إلى عبد الله ، قيل : لم يكن بينه وبين والده إلا ثنتي عشرة سنة ، كان كثير العبادة والفضائل ، روى أحاديث كثيرة، توفي سنة خمس وستين ، وقيل غير ذلك . انظر حلية الأولياء (٢٨٣/١) ، وسير أعلام النبلاء (٨٠/٣) ، والإصابة (١١١/٤) ، وشذرات الذهب (٧٣/١) .

(٢) وإسناده هو : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، قال : حدثنا أحمد بن أبي طيبة ، عن سفيان ، عن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك ، وعن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، قال: قال رسول الله الحديث ، قال ابن كثير –رحمه الله -: أحمد بن أبي طيبة هذا : هو أبو محمد الجرجاني ، قاضي قومس ، كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب ، وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو ، وكذا رواه ابن جرير عن منصور به ، وهذا أصح –والله أعلم -. فصحح كونه موقوفاً دون رفعه إلى النبي– ﷺ-. انظر تفسير القرآن العظيم (٢٥١/٢) ، وسيأتي حكم ابن جرير –رحمه الله – في النص بقوله :"ولا أعلمه صحيحاً "، وانظر تحقيق شاكر (٢٣٢/١٣-٢٣٣) .

إن كان صحيحاً ، ولا أعلمه صحيحاً ؛ لأنّ الثقات الذين يعتمد على حفظهم وإتقانهم حدّثوا بهذا الحديث عن الثوري ، فوقفوه على عبد الله بن عمرو ولم يرفعوه ، ولم يذكروا في الحديث هذا الحرف الذي ذكره أحمد بن أبي طيبة عنه . وإن لم يكن ذلك عنه صحيحاً ، فالظاهر يدلّ على أنه خبر من الله عن قيل بني آدم بعضهم لبعض ؛ لأنه -جلّ ثناؤه - قال : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرّين حين أقرّوا ، فقالوا : بلى شهدنا عليكم بما أقررتم به على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين ." (١)

وكذا قد يترك الأغلب في اللغة إذا صحّ الحديث : كما في قوله -تعالى- : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩] حيث ذكر أقوالاً في معنى العتيق ، ورجح : معنى القديم ؛ لأنه الأغلب في اللغة ، ما لم يكن الحديث المروي عن النبي -ﷺ-:"إنما سمّي البيت العتيق ؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه قطّ " صحيحاً(٢).

فامتنع من القول بالأغلب في اللغة إذا كان الحديث النبوي صحيحاً ، أما لو كان ضعيفاً فالمعوَّل عليه الأغلب في اللغة .(٣)

ومثال ترك الظاهر من الخطاب لكثرة القائلين به من السلف :

كما في قوله -تعالى- : ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ

---

(١) جامع البيان (١١٧/٦) ، وتحقيق شاكر (٢٤٩/١٣) .

(٢) وإسناده عند ابن جرير : حدثني محمد بن سهل البخاري ، قال : ثنا عبد الله بن صالح ، قال : أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن الزهري ، عن محمد بن عروة ، عن عبد الله بن الزبير ورفعه . جامع البيان (١٤١/٩-١٤٢) ، وفي التقريب عبد الله بن صالح صدوق كثير الغلط (٤٢٣/١) ، ورواه الترمذي في تفسير سورة الحج ، وقال حديث حسن غريب ، ومن وجه آخر مرسلا عن الزهري (٣٠٤/٥) ، وقال ابن أبي حاتم : لا يحتمل أن يكون مرفوعا عن النبي -ﷺ-، وهو موقوف على عبد الله بن الزبير أشبه . انظر علل الحديث (٢٧٤/١) .

(٣) ومثله في الإخلاص (٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جامع البيان (٧٤٤/١٢) .

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦] **قال -رحمه الله-**: اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية ، وفي من نزلت ، فقال بعضهم : نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري[1]، وكان مسلماً فارتدّ بعد إسلامه...وقال آخرون : [كالحسن] عنى بهذه الآية أهل الكتاب وفيهم نزلت...

قال أبو جعفر : وأشبه القولين بظاهر التنزيل : ما قال الحسن ، من أن هذه الآية معنيّ بها أهل الكتاب على ما قال ، غير أن الأخبار بالقول الآخر أكثر ، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن ، وجائز أن يكون الله -عزّ وجلّ -أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام ، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد -ﷺ- في هذه الآيات ، ثم عرّف عباده سنته فيهم ، فيكون داخلاً في ذلك كل من كان مؤمناً بمحمد -ﷺ- قبل أن يبعث ، ثم كفر به بعد أن بعث ، وكلّ من كان كافراً ثم أسلم على عهده -ﷺ- ثم ارتدّ وهو حيّ عن إسلامه ، فيكون معنيّاً بالآية جميع هذين الصنفين وغيرهما ،ممن كان بمثل معناهما ، بل ذلك كذلك -إن شاء الله-."[2]

فذكر -رحمه الله- أولاً الأظهر من الآية ؛ ولكنّه أحجم عنه لكثرة القائلين بخلافه ، ثم جمع بينهما .

وفي قوله -تعالى- : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: ٤٠] قال -رحمه الله- : "وقوله : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ اختلف أهل التأويل في التسبيح الذي أُمر به من الليل : فقال بعضهم : عنى به صلاة العَتَمة...وقال آخرون : هي الصلاة بالليل في أيّ وقت صلى...:

---

(١) هو الحارث بن سويد بن الصامت ، أخو الجلاس ، فيه خلاف في تعيينه وهذا هو المشهور ، ارتد على عهد رسول الله ولحق بالكفار فنزلت هذه الآية ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [آل عمران (٨٦-٨٩)] ، فحمل رجل هذه الآيات فقرأهن عليه ، فقال الحارث : والله ما علمتك إلا صدوقاً ، وإن الله لأصدق الصادقين ، فرجع وأسلم ، وحسن إسلامه ، قيل : إنه قُتِل بعد قَتْله المجذّر في أُحُد . انظر الإصابة (١/٢٩٣) ، وأسد الغابة (١/٣٩٦-٣٩٧) .

(٢) جامع البيان (٣/٣٣٩-٣٤٠).وانظر مثله في : المدثر (٥) ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ جامع البيان (١٢/٢٩٩-٣٠٠).

عن مجاهد : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ قال : من الليل كلّه .

والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب : وذلك أن الله -جلّ ثناؤه - قال : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ فلم يَحُدّ وقتاً من الليل دون وقت . وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل ، وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا ، فهو بأن يكون أمراً بصلاة المغرب والعشاء ، أشبه منه بأن يكون أمراً بصلاة العَتَمة ؛ لأنهما يصلّيان ليلاً .

[وقال أيضاً -رحمه الله-:] " وقوله : ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ...واختلف أهل التأويل في معنى التسبيح الذي أمر الله نبيه أن يسبحه أدبار السجود : **فقال بعضهم** : عُنِي به الصلاة، قالوا : وهما : الركعتان اللتان يصليان بعد صلاة المغرب...عن ابن عباس ، قال : قال لي رسول الله -ﷺ-: " يا ابن عباس ركعتان بعد المغرب أدبار السجود "[1]...**وقال آخرون** : عنى بقوله : ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ : التسبيح في أدبار الصلوات المكتوبات ، دون الصلاة بعدها ... **وقال آخرون** : هي النوافل في أدبار المكتوبات...**قال ابن زيد في قوله**: ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ : النوافل .

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال : هما : الركعتان بعد المغرب ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه ، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد ؛ لأن الله -جلّ ثناؤه - لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عمّ أدبار الصلوات كلها ، فقال : ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، و لم تقم - بأنه معنيٌّ به : دبر صلاة دون صلاة - حجةٌ يجب التسليم لها من خبر ولا عقل ." [2]

---

(١) وسند ابن جرير قال : حدثنا : أبو كريب قال : ثنا أبو فضيل عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس ورفعه ، وفيه رشدين بن كريب ، قال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حجر في التقريب ضعيف . انظر تقريب التهذيب (٢٤٠/١) ، والكاشف للذهبي (٣٩٧/١) . وقال ابن حجر في فتح الباري (٥٩٨/٨) : إسناده ضعيف .

(٢) جامع البيان (٤٣٥/١١-٤٣٦) . وانظر بقية المواضع في وجوب التفسير بالظاهر وأنه لا يترك إلا للأدلة الماضية: في البقرة (٣٠) ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ الآية جامع البيان (٢٤٦/١) ، و(٤٥) ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ جامع البيان (٢٩٩/١) ، و(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦ ﴾
=

فقد ترك الإمام الطبري –رحمه الله–القول بالعموم ؛ لإجماع الحجة من المفسّرين ، فقال : بأنهما الركعتان بعد المغرب .

وقال القرطبي –رحمه الله–: " قال ابن زيد : هو النوافل بعد الصلوات ، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة ، قال النحاس[١] : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر، ولا سيّما وهو صحيح عن عليّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– [٢]. وقال أبو الأحوص[٣] : هو التسبيح في أدبار السجود . قال ابن العربي[٤] : " وهو الأقوى في النظر " [٥]. وفي صحيح الحديث : أن النبيّ –صلى الله عليه وسلم– كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة : «لا إلَه إلا الله وحده لا

=

جامع البيان (٣٣١/١) ، و(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ الآية جامع البيان (٤٠٩/١) ، و(١٠٢) ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ الآية جامع البيان (٥١٣/١) ، و(١٦٧) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ الآية جامع البيان (٧٩/٢–٨٠) ، وآل عمران (٢٧) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ الآية جامع البيان (٢٢٥/٣–٢٢٦) ، وفصلت (٢٠) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ جامع البيان (٩٩/١١) ، والشورى (٤٠) ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الآية جامع البيان (١٥٦/١١) .

(١) هو أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري ، النحوي المفسر ، له مصنفات كثيرة ، زادت عن خمسين ، منها : معاني القرآن ، والناسخ والمنسوخ ، توفي غرقاً ، سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وقيل غير ذلك . انظر إنباه الرواة (١٠١/١) ، وبغية الوعاة (٣٦٢/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٦٧/١) .

(٢) الناسخ والمنسوخ (٢٣/٣–٢٤) .

(٣) هو سلام بن سليم الكوفي الحنفي مولاهم ، الإمام الثقة الحافظ ، قال العجلي : كان ثقة صاحب سنة واتباع ، وكان حديثه نحو أربعة آلاف ، توفي سنة تسع وسبعين ومائة . انظر سير أعلام النبلاء (٢٨١/٨) ، وشذرات الذهب (٢٩٢/١) .

(٤) هو أبو بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي القاضي ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة ، له مؤلفات كثيرة ، منها : أحكام القرآن ، وعارضة الأحوذي على كتاب الترمذي ، وكتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن ، ألفه في ثمانين ألف ورقة ، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقيل ست وأربعين . انظر الديباج المذهب (٢٥٢/٢) ، وشذرات الذهب (١٤١/٤) .

(٥) أحكام القرآن (١٧١٦/٤) .

شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الْجَدّ »[١] وقيل : إنه منسوخ بالفرائض ، فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات ، نقل ذلك الجماعة ." [٢]

وقال ابن كثير –رحمه الله–: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ " قال ابن أبي نجيح [٣] عن مجاهد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : هو التسبيح بعد الصلاة [٤]. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– [٥] أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي –ﷺ–: « وما ذاك؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال –ﷺ–: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ . تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال : فقالوا : يا رسول الله : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال –ﷺ–:

---

(١) رواه البخاري ، في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة ، حديث (٨٤٤) صفحة (١٦٨) ، ومسلم ، في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، عن المغيرة بن شعبة ، حديث (٥٩٣) ، (٤١٤/١–٤١٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦/١٧) .

(٣) هو أبو يسار ، عبد الله بن أبي نجيح يسار المكي ، مولى بني مخزوم ، صاحب التفسير ، قال الذهبي : هو من أخص الناس بمجاهد ، قال ابن حجر : ثقة رمي بالقدر ، وربما دلّس ، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة . انظر ميزان الاعتدال (٥١٥/٢) ، وتقريب التهذيب (٤٥٦/١) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢٥٨/١) ، وشذرات الذهب (١٨٠/١) .

(٤) رواه البخاري عن مجاهد عن ابن عباس : أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها . عند سورة "ق" حديث (٤٨٥٢) صفحة (١٠٤٠) .

(٥) هو أبو هريرة ، عبد الرحمن –على الصحيح– بن صخر الدوسي اليماني ، أسلم عام خيبر ، أكثر من روى الحديث النبوي ، وقد وعده النبي –ﷺ–بأن يحفظ إذا ضم نمرة إليه فضمها ، روى خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة شخص ، إمام فقيه مجتهد حافظ ، توفي سنة سبع وخمسين ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٥٧٨/٢)، والإصابة (١٩٩/٧) ، وشذرات الذهب (٦٣/١) .

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [١].

والقول الثاني : أن المراد بقوله -تعالى- : ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وروي ذلك عن : عمر ، وعلي ، وابنه الحسن ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي أمامة[٢] -رضي الله عنهم- وبه يقول مجاهد ، وعكرمة ، والشعبي [٣] ، والنخعي[٤] ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم . " [٥]

وقال الآلوسي : " وفيه احتمال العموم لصلاة العشائين ، والخصوص بالتهجد وهو الأظهر . " [٦]

---

(١) رواه البخاري ، في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة ، حديث (٨٤٣) صفحة (١٦٨) ، ومسلم ، في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، عن المغيرة بن شعبة ، حديث (٥٩٥) ، (٤١٦/١-٤١٧) .

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن والبة الباهلي ، صاحب رسول الله -ﷺ-، نزيل حمص ، روى علماً كثيراً ، كان عمره حجة الوداع ثلاثين سنة ، توفي بالشام سنة ست وثمانين ، وقيل إحدى وثمانين . انظر تهذيب الأسماء واللغات (١٧٦/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣٥٩/٣) ، والإصابة (٢٤٠/٣) ، وشذرات الذهب (٩٦/١) .

(٣) هو أبو عمر ، عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي ، الإمام العلم ، ولد لست سنين خلت من خلافة عمر ، أدرك خمسمائة من الصحابة ، وروى عنهم ، ورأى عليا ، وصلّى خلفه ، يقول : ما أودعت قلبي شيئاً فخانني ، وكان مزَّاحاً ، توفي سنة ثلاث ومائة ، وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء (٢٩٤/٤) ، وشذرات الذهب (١٢٦/١) .

(٤) هو أبو عمران ، إبراهيم بن يزيد اليماني النخعي -قبيلة أو بلدة باليمن -، فقيه العراق بالاتفاق ، عدّه ابن قتيبة من الشيعة ، توفي سنة خمس وتسعين ، وله ست وأربعون . انظر المعارف صفحة (٤٦٣و٦٢٤) ، وسير أعلام النبلاء (٥٢٠/٤) ، وشذرات الذهب (١١١/١) ، واللباب في تهذيب الأنساب (٤٧٣/٥) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢٣١/٤) .

(٦) روح المعاني (٢٩١/١٤) .

المطلب الرابع : مواضع لم يستعمل فيها الإمام الطبري -رحمه الله- قاعدة : تفسير السياق بالظاهر من الخطاب:

تبين مما تقدم في هذا المبحث شأن الاهتمام بالظاهر من السياق ، وأن الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- أكثر من الاهتمام به ، ولكن هناك مواضع قليلة يظهر أنها لم تطبق فيها هذه القاعدة ومنها :

تفسيره الكرسي بالعلم خلاف ظاهر آية الكرسي : ففي قوله -تعالى- : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **قال أبو جعفر** :"...اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي الذي أخبر الله -تعالى ذِكْرُه -في هذه الآية أنه وسع السّموات والأرض : **فقال بعضهم** : هو علم الله -تعالى ذِكْرُه -:... **[قال] ابن عباس** : ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ﴾ قال : كرسيه : علمه...[وفي رواية قال] ابن عباس مثله ، وزاد فيه : ألا ترى إلى قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾؟ [(١)]...وقال آخرون : الكرسي: موضع القدمين ، وقال آخرون : الكرسي: هو العرش نفسه...

قال أبو جعفر : ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب ، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ ، [وفيه] قال : «إنّ كُرْسِيّهُ وَسِعَ السّمَوَاتِ وَالأرْضَ، وَإنّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ مِقْدَارُ أرْبَعِ أصَابِعَ » ثم قال بأصابعه فجمعها : « وَإنّ لَهُ أطيطاً كأطِيطِ الرّحْلِ الجَدِيدِ إذَا رُكِبَ مِنْ ثِقَلِه »[(٢)] [وذكر أسانيد

(١) سيأتي تخريجه بعد قليل في التعقيب على النقل .

(٢) رجال السند هم : شيخ الطبري عبد الله بن أبي زياد القطواني ، قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن خليفة ، قال : أتت امرأة النبيّ - ﷺ - ، فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة! ، فعبد الله بن =

أخرى ثم قال :] وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس...هو علمه ؛ وذلك لدلالة قوله – تعالى ذِكْرُه –: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ على أن ذلك كذلك ، فأخبر أنه لا يؤوده حِفظ ما علم ، وأحاط به مما في السموات والأرض ، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فأخبر –تعالى ذِكْرُه –أن علمه وسع كل شيء ، فكذلك قوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [(١)].

والصواب ما قال ابن عباس– رضي الله عنه – " إنه موضع قدمي الله –عزّ وجلّ –" [(٢)] وليس

=

الحكم ، شيخ الطبري ثقة ، انظر تهذيب التهذيب (١٢٥/٣-١٢٦) ، وعبيد الله : ثقة صدوق حسن الحديث ، وأثبت رواة إسرائيل عن إسرائيل . انظر تهذيب التهذيب (٣٥/٤-٣٧) ، ومدار الحديث على عبد الله بن خليفة ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وترجم له في التهذيب ، قال ابن كثير –رحمه الله– : " وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما ، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما ، والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي إسحاق السبيعي ، عن عبد الله بن خليفة ، وليس بذاك المشهور ، وفي سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفاً ، ومنهم من يرويه عنه مرسلاً ، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها . وقال: وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك، وعندي في صحته نظر ، والله أعلم ". تفسير القرآن العظيم (٢٩٣/١) ، وانظر جامع البيان تحقيق شاكر (٤٠٠/٨) .

(١) جامع البيان (١١/٣-١٢) ، وتحقيق شاكر (٣٩٧/٥) .

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة أثر (٥٨٦) (٣٠١/١) ، وابن أبي شيبة في كتاب العرش صفحة (٤٤٣) ، وابن خزيمة في التوحيد (٢٤٨/١) ، والحاكم في المستدرك (٢٨٢/٢) ، وقال صحيح على شرط الصحيحين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ورواه الدارقطني في كتاب الصفات (٣٦) ، عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح (٣٢٦/٦) ، وقال الألباني في مختصر العلو صفحة (٤٥) : صحيح موقوف . وانظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين تخريج سعد الصميل (١٧١/١-١٧٢).

وأما الأثر المروي عن ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم واحد : وهو مروي عن أبي جعفر بن أبي المغيرة عن ابن جبير عن ابن عباس . وأما سائر الروايات عنه وعن غيره فهي تدلّ على أن المراد بالكرسي ، هو الكرسي المشهور المذكور مع العرش ، قال أبو منصور الأزهري : والصحيح عن ابن عباس ما رواه الثوري وغيره عن عمار الدهني ، عن مسلمٍ البَطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال : " الكرسي موضع القدمين ، وأما العرش فلا يقدر قدره " وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها ، قال : والذي روى عن ابن عباس في الكرسي أنه العلم فليس مما يثبته أهل المعرفة بالأخبار . انظر

=

الكرسيّ هو العرش ، بل العرش أكبر المخلوقات ، حيث روى أبو ذر - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة " .[1] [2]

وبعد هذه الدراسة للظاهر في التفسير ، تبينت حدود الظاهر وماهيته ، والحالات التي يقدم الظاهر فيها على غيره ، ومتى يترك الظاهر ، ومتى يحمل معنى الكلام على ظاهره ، وما قد ندّ وخرج من المواضع عن الظاهر عند الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- ، والأولى أن تحمل على ظاهرها في المعنى . -والله الموفق للصواب - .

= تهذيب اللغة (٥٤/١٠) ، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي (١٣٤/٢-١٣٥) ، وذكر محمود شاكر -رحمه الله- أنه إذا كان أثر ابن عباس في تفسير الكرسي بالعلم صحيح الإسناد ، فإن الخبر الآخر صحيح على شرط الشيخين ، وقال أيضاً : والاستدلال في الآية على أن الكرسي العلم ضعيف جداً ؛ فلا يلزم من هذا القرب القرب في المعنى ، فلمَ لمْ يجعل قوله : ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] الكرسي هو الرحمة ، وقوله : في الأعراف (١٥٦) ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ انظر تحقيق شاكر (٤٠١/٥) . ومما أنبه عليه هنا : أن الخلاف في معنى الكرسي في الآية ليس قولا مبتدعاً إذا كان صاحب القول يثبت الكرسي لله عز وجل ، فقد ثبت الكرسي في أحاديث أخرى .

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات (١٤٩/٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩) ، وقال : إنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي ﷺ في صفة العرش إلا هذا الحديث . انظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين تخريج سعد الصميل (١٧٢/١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٥١/١) . وانظر مواضع أخرى في : البقرة (٢٢٢) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية جامع البيان (٤٠٣/٢) ، والنساء (٢٥) ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ جامع البيان (٢٣/٤-٢٤) ، و(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية جامع البيان (٣٦٥/٤) ، والرحمن (٤) ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ جامع البيان (٥٧٢/١١-٥٧٣) ، والتحريم (١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ جامع البيان (١٦٣/١٢) ، والمطففين (١٥) ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ جامع البيان (٤٩٢/١٢) ، والبلد (١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ جامع البيان (٥٩٧/١٢) ، والتين (١) ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ جامع البيان (٦٣٣/١٢) .